تاريخ المسلمين وحضارتهم في بلاد الهند والسند والبنجاب

اعداد

دكتــور

محمد عبدالعظيم أبوالنصر الصوفى

أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد

بآداب الزقازيق

٢٠٠٥

الفصل التمهيدى

جغرافية السند والهند والبنجاب

- التسمية
- المناخ
- الحدود
- وادى السند
- التربة والنبات
- الهضاب والجبال
- الانهار
- التقسيم السياسى والجغرافى
- القبائل والاقوام فى السند والبنجاب قبل الاسلام
- أهم القبائل العربية فى السند قبل الاسلام

الوصف الجغرافي
لبلاد السند والبنجاب

كانت شبه القارة الهندية في القديم تنقسم إلى جزأين جغرافيين ، فكان الجزء الأكبر يسمى بلاد الهند والجزء الأصغر يسمى بلاد السند والبنجاب.

تسمية بلاد السند

اختلف المؤرخون والجغرافيون بشأن اسم بلاد السند ، حيث أشاروا إلى أن الاسم القديم لبلاد السند كان "سندهو" الذي أطلقه أهل هذه البلاد في بداية الأمر على نهر السند ثم أطلق الأسم "سندة" على المنطقة التي كان يجري عليها الجزء الأسفل لنهر السند ، كما أطلق اسم فارسى " بنجاب" أي المياه الخمسة على المنطقة التي كانت تجري عليها الأنهار الخمسة لبلاد السند حتى الموضع الذي كانت تتجمع عنده تلك الأنهار بما فيها الجزء العلوي لنهر السند ، وكان من المناسب أن يطلق الإسم " سند " منذ البداية على بلاد السند كلها ، وهي الأرض الممتدة إلى مئات الأميال وعرضها نحو مائة ميل التي أخضر كل جزء منها بفضل هذا النهر العظيم ، ولولاه لكانت بلاد السند صحراء جرداء لازرع فيها ولاحياة.

ويذكر بشأن الاسم سندهو بأنه كان اسما سنسكريتيا قديماً لنهر السند والمنطقة معا ، ويعتقد البعض بأن اليونانيين بدلوا لفظ " سندهو " إلى لفظ " أندس " وأطلقوه على نهر السند نقلوه إلى شعوب أوربا ، ويرى البعض بأن " سندهو " الذي كان اسماً قديماً لنهر السند معناه في اللغة السنسكريتية " البحر " كما كان المراد بكلمة " سند " في قديم الأزمان هو وادي بالسند.

ونجد هناك إسماً قديماً لبلاد السند عند اليونانيين وهو " سنتهوس " وقد ورد ذكره في كتاب يوناني قديم مؤلفه غير معروف : بينما ذكر في كتابه اسماً صينياً قديماً آخر لنهر السند وهو "سنتهو " يرجع تاريخه إلى ماقبل الميلاد في الغالب ، وربما أخذ اليونانيون اسم سنتهوس من هذا الاسم الصيني واطلقوه على بلاد السند مع إ ضافة الحرف الأخير إليه وهو حرف السين ، على أن الاسم (سنتهو) يشبه الاسم المعروف (سندهو) عند أهل السند منذ قديم الزمان وعلى ذلك يمكن لنا القول بأن أقدم اسم لبلاد السند هو " سندهو " بمعنى وادي السند ، ثم خفف بعد ذلك في اللغة السندية إلى (سنده) وكتب في اللغة الأردية (سند) فسميت البلاد عند العرب ببلاد السند ونهرها بنهر السند.

وهناك رواية شرقية تقول بأن اسم السند منسوب إلى " سند بن حام بن نوح" ولايمكن لنا الاعتماد على هذه الرواية لعدم وجود دليل تاريخي عليه ، وقد ظل الجغرافيون والمؤرخون العرب والفرس بعد الإسلام لمدة عدة قرون لايعلقون شيئاً على تسمية السند في كتبهم ومذكراتهم ، وإنما يطلقون اسم السند بصفة عامة على المناطق المحبطة بنهر السند الكبير ، وإن اختلفوا بالنسبة لحدود بلاد السند.

المنـــاخ :

يمكن لنا القول بـأن المنـاخ بصفـة عامـة فـي بـلاد السـند شـديد الحـرارة صيفـاً وشـديد البـرودة شتاء ، والمطـر قليـل جدا فـي فصـل الصيف.

والمناخ في جنوب السند معتدل أي لاحار شديد ولابارد جداً فـي معظم شهور السنة ، ولكن المناطق الجبلية منها بـاردة جـداً فـي الشـتاء وحار جداً في الصيف ، إلا أن الجهات الجنوبية من هذه المناطق تمتـاز بالاعتدال.

والمناخ في شمال بلاد السند شديد الحـرارة فـي الصيـف وشـديد البرودة في الشتاء. وتعتبر مدينة جيكب آباد الحالية أشـد المـدن حـرارة ببلاد السند وربما في القارة الهندية كلها.

والمناخ في وسط بـلاد السـند معتـدل عمومـاً بسـبب وجـود نهـر السند والأنهار المتفرقة الأخرى ، ولكن المناطق الصحـراوية بـه شـديدة الحـرارة صيفاً وشـديدة البـرودة شـتاء بمطـر مطـر قليـل بداخـل السـند لابسبب الرياح ، وإنما بسبب الإنقلابات الجوية المحلية

وموسم الحر في بلاد السند يستمر لمدة سبعة أشهر كاملة ، وفي الشهرين الأخيرين منها تبلغ درجة الحرارة من ١٢٠ إلى ١٢٥ درجة.

وتنقسم بلاد السند من حيث العرض إلى ثلاث منـاطق مناخيـة ، وهي : منطقة السند الشمالية العليا ، ومنطقة السـند الوسـطى ، ومنطقـة السند الجنوبية السفلى ، وأهالي بلاد السـند يطلقـون علـى تلـك المنـاطق الأسماء بالترتيب : سيرو – فيكهولا – لارا . ولكـن معظـم الجغرافييـن

الأجانب يقسمون بلاد السند إلى قسمين كبيرين هما : السند الشمالية والسند الجنوبية ، وبناء على هذا التقسيم ينطبق التقسيم السياسي أيضاً عندهم في الأزمان القديمة.

الحــــدود:

كانت حدود بلاد السند تتغير كثيراً في العصور القديمة ، بحيث كانت المناطق التي تقع في قبضة حكام السند ، يطلق عليها اسم السند ، وفي عهد الملك داهر الذي كان يحكم بلاد السند قبل الفتح العربي كانت الحدود كالتالي ، يحد السند من الشمال العربي منبع نهر جهلم وسلسة جبال كابل ، وكانت هذه الحدود تمتد حتى نهر هلمند ، وفي الجنوب الغربي كانت حدود إيران تتصل بالحدود الساحلية للسند عند منطقة مكران، ومن الجنوب كان يحد السند بحر العرب ، ومن الجنوب الشرقي كان يحد السند خليج كش (كجة) وفي الشرق كانت حدود السند الشرقية تتصل بحدود الهند عند مدينتي راجبوتانة وجسلمير.

وفي عهد العرب كانت بلاد السند تتكون من الإقليم الشمالي الغربي ومنطقة البنجاب مع المنطقة المجاورة الممتدة إلى أرض أفغانستان حتى نهر هلمند ، ومنطقة بلوجستان ، بالإضافة إلى منطقة السند الحالية ، ومنطقة كش (كجة) وكان هذه المناطق كلها تسمى بلاد السند في عهد العرب.

والجغرافيون الغرب قد اختلفوا بشأن حدود بلاد السند في عهد العرب ، وقد ذكر بعضهم شيئاً من التفصيل وبعضهم اكتفى بالإشارات البسيطة الغامضة والخاطئة أحياناً ، ولعل ذلك كان بسبب الظروف

السياسيه التي مرت على بلاد السند ، بحيث كانت بعض المناطق تخرج من أيدي العرب ثم تعود إلى حكمهم ، ولذلك يصعب بيان حدود بلاد السند وتعيينها من أقوال هؤلاء الجغرافيين.

الصحـــــاري :

سبق أن أشرنا أنه لولا نهر السند العظيم لكانت بلاد السند صحراء جرداء لازرع فيها ولاحياة ، ومع ذلك لايزال جزء كبير من بلاد السند عبارة عن مناطق صحراوية شاسعة ذات صفات عجيبة ، وأهمها الصحراء الشرقية.

يلاحظ في الصحراء الشرقية أن رياح مالون الساحلية تحمل الرمال من الغرب الجنوبي لصحراء تهار وتسقطها على شكل هضبتين عظيمتين ، ويتكون وسطهما واد طويل ممتد مع اتجاه الرياح ، ومع طول الهضبتين إلى مسافات طويلة جداً.

السهول ووادي نهر السند:

يلاحظ أن معظم أجزاء وادي السند سهولة منبسطة خضراء ، وهذه الخضرة مختلفة الأنواع ، ويتوقف هذا الاختلاف على نوع التربة في كل منطقة ، فإذا ألقيت نظرة عابرة على وادي نهر السند الجنوبي من منطقة عالية فإن شبة من الأنهار تجذب الأنظار إليها ، ويعتقد المشاهد أن هذه المنطقة التي تبلغ من الطول ٣٠٠ ميل والعرض بين ٣٠ إلى ٨٠ ميلاً منطقة خصبة للغاية ، فهو يشاهد في ركن من الوادي سنابل القمح والشعير وأشجار القطن ، وعلى ضفتي النهر بيوت

الفلاحين ومخازن الغلات والقنوات وأشجار الزيتون ، كما يشاهد في ركن آخر من الوادي الهضبات الرملية والأراضي البور المرتفعة عن سطح البحر ، وكذلك يشاهد في بعض أجزاء الوادي غابات صغيرة ، بينما لايشاهد الإنسان في سهول جتي سالت وفي منطقة شهداد كوت وصحراء بت أي أثر للزرع أو للخضرة ، بل يجدها منطقة صحراوية خالية من الحياة، ويشاهد في جزء من منطقة روهري ميادين مليئة بالمزروعات والخضروات ، وفي الجزء الآخر منها مجموعات من الأشجار والأحواض.

ومن مميزات المناظر الطبيعية ببلاد السند أنه تكثر بها بحيرات صغيرة وأراضي وحلة كما تكثر بها والطيور المائية مثل الأوزة وأهم هذه البحيرات بحيرة منوجهر الواقعة في منطقة دادو بالسند.

التربة والنبات:

من ميزة تربة بلاد السند أنها تختلف من مكان إلى مكان ، وبالتالي تختلف المزروعات والخضروات والفواكه والأشجار ، وإن التربة السندية عموما تمتاز بالصلابة ، وأهل السند يسمونه " بكي " ولونها أصفر ترابي فاتح ، ولذلك تكثر في السند الأشجار الشوكية المتنوعة ، وفي جهة من السند على شاطي البحر يوجد نوع من التربة تسمى " التربة البحرية " أي التربة الرملية الخليطة بنوع من التربة البيضاء الدقيقة.

وفي دلتا السند تسمي التربة " التربة الخام " فمن ميزاتها أنها تجذب مياه الفيضان إلى جوف الأرض ، ثم تتكون على سطحها طبقة

أخرى من التربة ، وهـي الغرين النـاتج عن رواسب مياه الفيضـان ، ولذلك تكثر النباتات التي تحافظ على الدلتا من أخطار البحـر والأمطـار والفيضانات ، بحيث تقع في الجهة العليـا للدلتـا غابـة تمارسك وأسفلها الحشائش الطويلة التي تغطي الأرض في هذه المنطقة.

وكـانت الحـرف لكثير من سكان بـلاد السـند قديمـاً ، رعـي المواشـي والإبـل والأغنـام، وكذلـك صيـد الأسـماك والطيـور وبعـض الحيوانات في مناطق مختلفة ، كما كانوا يزرعـون الغـلات الضروريـة ثم في عهد العرب تحسنت الحياة في بلاد السند في شتى المجالات ، في الزراعة والتجارة والصناعة وفي ميادين العلوم والفنون ، بحيث تقدمـت البلاد من كل ناحية.

الهضبات والجبال:

يقـول العلمـاء الجيولوجيـون بعـد البحـث والتنقيـب فـي المنطقـة الجبلية الغربية ببلاد السند ، وكذلك بمنطقة الهضبات الحجريـة الواقعـة على الأراضي العالية بوادي السند ، بأنها قد تكونت فـي الـدورة الثالثـة للتقلبات والهزات الأرضية الكثيرة ، فظهرت هذه المناطق بعد انسـحاب مياه البحر منها ، وتدل على ذلك الآثار البحرية الباقية مثل الودع التـي وجدت على عمق آلاف من الأقدام.

وأهم السلاسل الجبلية ببلاد السند يسمى (سلسلة كرنـهار) وهـي تقع في الجهة الغربية بحيث تبدأ من الشمال الغربي للسند وطولها ١٥٠ ميلاً وارتفاعها مابين ٤٠٠٠و ٧٠٠٠ قدم.

والسلسلة الجبلية الثانية تسمى (لاكهي) وهي تقع في الجنوب الشرقي لسلسلة كرتهار وتمتد إلى مسافة ٧٠ ميلاً والطبقات العالية منها مكونة من طبقات جيرية والطبقات السفلية منها متكونة من طبقات نارية ، ويصل ارتفاع هذه السلسلة إلى ٢٣٠٠ قدم.

وهناك سلسلة ثالثة تسمى (جبال راجبوتانة) التي تقع على الحدود السندية الهندية ، وتعتبر من أقدم الجبال في العالم ، ويقع في وادي هذه السلسلة إقليم كش (كجة) التابع لبلاد السند.

ومن ميزات هذه المناطق ببلاد السند ، أنه تكثر فيها عيون ساخنة مفيدة للصحة، وتندر النباتات ، ولكن تكثر الأشجار الجبلية الصغيرة والحشائش التي تستخدم كعلف للأغنام والمواشي ، وبها أيضاً بعض الحيوانات الجبلية ، ومن أهم ميزات هذه المناطق الجبلية أيضاً هو وقوع أودية أسفل كل سلسلة جبلية.

وكان هناك في القديم طريقان تجاريان بالقرب من بحيرة منجهر ، وكانت القوافل التجارية بالجمال تسير في هذه الطرق لنقل البضائع من جهة إلى جهة أخرى حيث لم تكن توجد أسواق تجارية منظمة في تلك المناطق الجبلية التي كانت تعيش فيها القبائل السندية القديمة منذ زمن بعيد ، وكان هذه القبائل كثيراً ماتهجم على القوافل التجارية وتنهب الأموال والبضائع التجارية ، وتضر بالمصلحة العامة ، والدليل على وجود تلك القبائل قديماً في هذه المناطق الجبلية هو المقابر المنثورة هنا وهناك ، وبالنسبة لهذه المناطق الجبلية لاتوجد معلومات كافية في كتب تاريخ السند.

الأنهـــار :

نهر السند : لقد اختلف الباحثون الغربيون والكتاب الشرقيون من العرب والفرس والهنود بشأن الاسم القديم لنهر السند ومصدره ، وأعطوا للنهر أو نسبو إليه أسماء كثيرة منها : سندهو – سنده – السند – مهران – سنتو – ملان – آب سند – بنج آب – أندس – وغيرها.

وأما معظم الجغرافيين والمؤرخين العرب (في القرون الثاني والثالث والرابع للهجرة) يذكرون إسماً واحداً للنهر وهو (نهر السند) على أنه منسوب إلى اسم البلاد.

من صفات نهر السند : إن كل مظاهر النعم والخيرات من المزوعات والخضروات ومن العقاقير والتوابل والأزهار والعطور ، ومن الطيور والحيوانات التي تشاهد ببلاد السند بفضل نهر السند العظيم الذي أجراه الله من أجل الإنسان ، فماء النهر كلما وصل بقعة من الأرض جعلها خضراء يانعة وملأها بالحياة والرفاهية ، مصداقا لقوله تعالى :﴿ **وجعلنا من الماء كل شيء حي** ﴾ فلولا وجود هذا النهر لكانت بلاد السند منطقة صحراوية جرداء خالية من جمال الزرع وبهجة الحياة.

وينبع نهر السند من جبال كيلاس ببلاد التبت.

التقسيم الجغرافي والسياسي
لأقاليم بلاد السند والبنجاب

أولا : التقسيم الجغرافي:

كانت بلاد السند تنقسم قديماً إلى أربعة أقاليم جغرافية وهي : السند العليا والسند الوسطى والسند السفلى واقليم كش (كجة).

السند العليا : تبلغ مساحتها ١٠٣٠ ميلاً مربعا ، وتقع في غربها منطقة كش (كجة).

السند الوسطى : تبلغ مساحتها ٤١٧ ميلاً مربعاً ، ويبلغ الطول في الجهة الشمالية وكذلك الجهة الجنوبية ١٦٠ ميلاً ، وفي الجهة الشرقية وكذلك في الجهة الغربية ٤٥ ميلاً ، ومن أهم مدنها القديمة مدينة سهوان.

السند السفلي : تبلغ مساحتها نحو ٥٠٠ ميل مربع ، تمتد الجهة الشرقية منها إلى صحراء عمر كوت.

اقليم كش (كجة) : يقع هذا الإقليم في الجنوب الغربي لمدينة الور عاصمة بلاد السند على بعد ٢٦٧ ميلاً.

ثانيا التقسيم السياسي:

تنقسم بلاد السند من ناحية التقسيم السياسي إلى خمسة أقاليم هي: إقليم برهمن اباد ، وإقليم سيوستان ، وإقليم اسكلنده ، وإقليم الملتان (البنجاب) وإقليم الور ، وكان الور عاصمة المملكة السندية عند فتح

العرب لبلاد السند أي في نهاية القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) وذلك في عهد الملك داهو.

اقليم برهمن آباد : كانت تقطع في أقليم برهمس اباد من المدن سهيره مثل النيرون والديبل ومناطق لوهانة وسهت وسمه وغيرها.

إقليم سيوسان : كانت تدخل في نطاق هذا الإقليم منطقة البودهية ومدينة جهنكان حتى حدود مكران.

اقليم اسكلنده : كانت تقع في دائرة هذا الإقليم من المدن القديمة مثل بابيا ، وبوده بور وغيرها.

اقليم الملتان (البنجاب) : كانت تدخل فيه من المدن القديمة مثل سكهر وبرهمبور وكرور واشهار (شاهار) وكبة (كبنة) حتى حدود بلاد كشمير.

اقليم الور (أرور) : كانت الور عاصمة بلاد السند ومركز هذا الإقليم ومقر الملك السندي ، وكانت تقع في هذا الإقليم من المدن القديمة مدينة كروان والقيقان ونيرهاس (برهاس) وغيرها.

وكان على كل إقليم حاكم برتبة نائب الملك من أقرباء الملك داهر الذي في عهده فتح العرب بلاد السند.

الفصل الأول

الأحوال السياسية والمذهبية والاجتماعية فى السندوالهند قبل الاسلام وعلاقاتها بالدول المجاورة.

- حالة بلاد السند والبنجاب سياسياً ومذهبياً واجتماعياً
- الديانات القديمة فى بلاد الهند والسند
- العقيدة الجينية
- العقيدة البوذية
- البرهمية
- علاقات بلاد السند والبنجاب مع ايران قديما

الأقوام والقبائل ببلاد السند والبنجاب في العصور القديمة قبل الإسلام ثم من صدر الإسلام إلي العصر العباسي

أولا : أهم الأقوام القديمة ببلاد السند قبل الإسلام:

سكنت بلاد السند أقوام عديدة قبل الإسلام بزمن بعيد ، ويرجع تاريخ بعضها إلى ماقبل خمسة آلاف سنة ، أهما القوم الداوردي والقوم الآري.

(أ) القوم الداوردي:

يعتبر القوم الداراوردي أول قوم من بين الأقوام القديمة التي أتت إلى بلاد السند من الخارج ، وسكنتها قبل قدوم الآريين إليها ، والقوم الدراوردي هم أصحاب الحضارة العظيمة التي كانت في منطقة موهنجود أرو الأثرية ببلاد السند ومنطقة هربا الأثرية وكان زمنهم ببلاد السند مابين سنة ٣٢٥٠ وسنة ٣٨٠٥ قبل الميلاد.

وتدل الآثار القديمة على أن سكان وادي نهر السند قد ظلوا فترة من الزمن تحت سيطرة قوم البربر الذين أتوا إلى بلاد السند قبل الفرس عند زحفهم نحو الشرق عن طريق بلوجستان ، ونتيجة للحملة التي قام بها هؤلاء البربر على بلاد السند من جهة الشمال والغرب ، قد أجبر بعض القبائل السندية القديمة المتفرعة من القوم الدراوردي أن تترك مواطنها الأصلية لتسكن أماكن أخرى في الشمال والغرب ببلاد السند ، كما اضطر بعض القبائل الأخرى إلى أن تندمج بعضها ببعض بسبب عوامل كثيرة.

(ب) القوم الآري (الفارسي) :

يعتبر القوم الآري هو القوم الثاني الكبير الذي أتي إلى بلاد السند من الخارج ، وقد تحركوا في قوافل عديدة على شكل هجرات كبيرة من وسط أسيا وزحفوا نحو الشرق والغرب حتى وصلوا إلى بلاد السند ، وأن القافلة الأولى وصلت بلاد السند في سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد ، والقافلة الأخيرة في سنة ٦٠٠ قبل الميلاد ، وقد قضى الآريون بعد قدومهم على نفوذ الدراوردين الذين كانت لهم حضارة موهنجود أرو العظيمة ، وثبتوا أقدامهم في البلاد وحكموها ، في حين تشتت أمر القوم الداوروى وساءت حالة قبائله المختلفة ، وكانت للآريين حضارة بسيطة في بداية الأمر ثم ارتقت بمرور الزمن ، ولكنها لم تصل إلى درجة حضارة موهنجود أرو وهربا التي كانت للدراوردين السكان الأصليين لبلاد السند القديمة.

ثانيا : أهم الأقوام ببلاد السند بعد الإسلام:

بعد الإسلام أتت أقوام أخرى إلى بلاد السند ، وسكنتها واندمجت بالأقوام القديمة وكان لهذه الأقوام الجديدة أثر كبير على أهل بلاد السند من نواح مختلفة.

(أ) العرب سكنوا إقليم مكران:

العرب هم القوم الثالث الكبير الذي أتى إلى بلاد السند من الخارج ، في أواخر القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) وفتحوها وحكموها أكثر من أربعة قرون من الزمان ، والعرب من النسل السامي، وقد تركوا آثارهم العظيمة في كل بقعة من بقاع بلاد السند في

النواحي المختلفة ، السياسيه والدينية والثقافية والاجتماعيه والعمرانيـة ، وأعادوا إلى بلاد السند مجدها في صورة حضارة أعظم من حضـارتهم السابقة.

على أن البعض يرى بأن القوافل العربية كانت تـأتي إلـى بـلاد السند والهند منذ أكثر من ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، وأنهـا سـكنت المناطق الساحلية واندمجت بمرور السـنين بأهـالي تلـك المنـاطق ، وأن القافلة الأولى من الحملة العربية البريـة التـي وصلـت إلـى حدود بـلاد السند بعد ظهور الإسلام فإنها سكنت إقليم مكران ، وأنهـا اقتربت مـن نهر السند ثم تراجعت إلى مكران وذلك في سنة ٢٣هـ/٦٤٣مثم بعد فتح العرب لبلاد السند في سنة ٩٢هـ/٧١٠م سكنت قبائل عربية مختلفة في المدن والمناطق الكبيرة بها ، واندمج العرب مع أهلها مما كان لذلك أثر كبير في انتشار الإسلام والثقافة الإسلامية في هذه البلاد الواسعة.

(ب) أقوام أخرى:

بعد انتهاء العهد العربي ببلاد السند في سنة ٤١٦هـ/١٠٢٥م ، بدات اقوام أخرى مختلفة تأتي إلى بلاد السند ، وذلك منذ القرن الخامس الهجري ، وتسكن هذه البلاد وهي : الترك والتـاجيك والمغول والتتر والفرس وغيرهم ، وهذه الأقوام أيضاً إندمجت في الأقوام الموجودة مـن قبل في بلاد السند ولعبوا أدوارهم على مسرح التاريخ السندي.

(جـ) الأوروبيون:

وفي القرون الآخيرة جاء الأوروبيون وسكنوا مناطق مختلفة من شبه القـارة الهنديـة مشـتغلين بالتجـارة فـي أول الأمـر كالبرتغـاليين والانجليز ثم انتهي نشاطهم في القرن الماضي باستعمار الانجليز للقـارة

الهنديه مـ فيه بلاد السند . ولكن الأوروبييـن لـم يندمجـوا بأهـالي هـده البلاد كعير هم من الأقوام.

ثالثا : أهم القبائل السندية القديمة:

من الأقوام التي سكنت بلاد السد على شكل قبائل كبيرة بأسـماء محتلفة قبيلتان كبيرتان وهما الزط Jote والميـد Meds وكانتـا تسـكنان مناطق محتلفة في بلاد السند ، وقد دخل معظم القبائل الزطيـة والميديـة في الإسلام في عهد العرب.

ويؤخد من البيانـات الـواردة فـي الكتـب السنسـكريتية بـأن قـوط الرط كانوا يشتغلون على السفن الصغيرة بالتجـارة والنقـل ، بينمـا قـوم الميد كانوا يشتغلون بالرعي ، ويظن البعض بأن أحد الكتـاب قد أخطـأ في استعمال الاسـمين بحيث وضـع أحدهمـا موضـع الآخـر ، بدليـل أن نسل قوط الزط لايزالون يعملون بالرعي ، في حين أن نسل قـوم الميـد يعملـون بالسـفن ، ويسـكنون نواحـي مكـران ويسـتخدمون البحـر فـي الأسفار.

والحقيقة أن الجغرافيين والمؤرخين العرب أيضـا اختلفوا بشـأن هدين القومين وقبائلهم بالنسبة للمنـاطق التـي كان يسـكنانها ، وكذلـك بالنسبة لأعمالهما وحرفهما وصفاتها . يذكر الأصطخري بأن قوم الميـد كانوا يسكنون احصاصا واجاما ويتغـذون بالسـمك وطـير المـاء ، بينمـا قوم الرط كانوا سكنون على شطوط نهر السندمن حد الملتان حتى البحر

وكانت لهم مراع كثيرة في البرية بين نهر مهران وبين مدينة قامهل التي تقع على الحدود السندية الهندية.

ويذكر ابن خرداذبة بأن قوم الزط كانوا يحافظون على الطريق بين كرمان والمنصورة بينما كان قوم الميد لصوصاً وقطاع طرق ، ويقول ابن حوقل بأن جماعات من الزط كانت تقيم في المنطقة الواسعة مابين المنصورة ومكران على طول نهر السند في الأكواخ المبنية من الخوص ، وكان غذاؤهم السمك والطيور المائية ، كما أن جماعات أخرى منهم كانت تسكن بعيداً عن النهر في مناطق صحراوية ورعوية وكان طعامهم اللبن والجبنة والخبز ، أي أنهم كانوا رعاة مواش وأغنام وكانت حياتهم كحياة البدو.

وقد ورد في كتاب جحنامة – وهو يعتبر أقدم مرجع تاريخي لبلاد السند – بأن قوم الزط كانوا قطاع طرق وكانوا يهجمون على القوافل التجارية المارة بطرق السند المختلفة.

ويعلق البعض على ذلك بأن الميد والزط كانوا من الأقوام القديمة ببلاد السند ، وكان الميد معروفين بالوحشية والنهب والسرقة ، ولذلك كانوا يتخذون قرب الصحاري مساكن لهم ، وكذلك الزط حتى يسهل عليهم القيام بعمليات النهب والسرقة والإضطرابات والفتن بعيداً عن سلطة الحكومة.

وخلاصة القول : يرى المسعودي بأن قوم الميد كانوا يشتغلون في البحر بالقرصنة ن وأما قوم الزط فكانوا يشتغلون بالرعي ، ويرى الأصطخرى وابن خرداذبة والإدريسي بأن الميد كانوا يسكنون في المناطق الصحراوية ، بالقرب من نهر السند ، وكانوا يشتغلون بالرعي

، في حين يرى صاحب جغرافية وابن حوقل وصاحب نخبة الدهر بأن قوم الزط كانوا يقيمون على طول شاطئ النهر في أماكن عديدة وكانوا قطاع الطرق وحدد البلاذري بأن أهم منطقة كان يسكنها قوم الميد هي منطقة القيقان وكانت سلطتهم بها قوية.

رابعا : أهم القبائل السندية في عهد العرب:

لقد أشرنا سابقاً بأن القومين الزط والميد كانا قومين سنديين كبيرين معروفين ، وقد استمر وجودهما منذ مئات السنين إلى عهد العرب ، وقد امتازوا بتعصبهما القومي والوطني ، وكان كلاهما يتنافسان على حكم البلاد ، وكان الزط أكثر عدداً وأقوى نفوذاً وأخطر على الأمن والدولة من الميد ، ولذلك نرى محمد بن القاسم الثقفي فاتح بلاد السند (٩٢-٩٥هـ/ ٧١٠-٧١٣م) قد اهتم بدراسة حياة قبيلة الزط الكبيرة التي تنتسب أصلاً إلى قبيلة لوهانة Luhans الهندية ببلاد السند ، وقد علم أنهم قوم ليست بينهم الطبقات ، بل كلهم طبقة واحدة يعيشون عيشة وحشية كسكان الغابات ، وأن الجهل منتشر بينهم ، وهم قطاع الطرق الذين يهجمون على القوافل التجارية المارة بطرق السند فينهبون الأموال ويقتلون الأنفس بغير الحق ، كما أنهم يقومون دائماً بالإضطرابات والفتن ضد الحكومة، ولذلك عاملتهم معاملة شديدة مثل معاملة الملك جج ملك السند الأسبق لهم ، فقد علم محمد بن القاسم الثقفي من الوزير سياكر السندي وبعض زعماء السند بأن الملك جج كان قد وضع قيوداً في تصرفات وتحركات هذه القبيلة وخاصة بمنطقة

اللوهانة بإقليم برهمنا باد ، مثلمـا فعل قديمـاً مـع قبيلتـي سـرانه وسـاكا القديمتين الطاغيتين، فقد أمر الملك جج بأن يسحب كـل فـرد مـن الـزط كلياً حتى يكون معروفاً بين الناس ، وأخذ منهم الضمانات علـى سـلامة القوافل التجارية وسلامة المسافرين ، وفـرض عليهـم عقوبـة المـوت أو الحرق لمن يسرق منهم ، فقد اضطر محمد بن القاسم الثقفي أيضـاً إلـى وضع نفس القيود عليهم حتى يضمن الأمن والاستقرار في البلاد ، لكنـه خفف عنهم تلك القيـود بـالتدريج ، بينمـا كـان محمـد بـن القاسـم الثقفـي يعامل القبيلتين سما وسـهيتة اللتيـن تسـكنان أيضـاً بنواحـي برهمنـا بـاد معاملة طيبة للغاية لسلوكهما الحسنة في حياتهما الاجتماعية.

ويذكر البعض بأن في الفترة مابين عهد الدولـة الماريـة القديمـة وبين عهد العرب كان سكان بلاد السند متأثرين بثقافات وعادات وتقـاليد مختلفـة للأقـوام السـابقة التـي حكمتهـم أو سيطرت عليهـم مثـل الفـرس والبربر وغيرهم ، بل امتزجت الدماء المحلية بدماء تلك الأقوام الـورادة من الخارج حتى ظهر ببلاد السند نتيجة لذلـك الخلـط قومـان مشـهوران بقبائلهما المتفرقة الكثيرة وهما قوم الزط وقـوم الرجبـوت ، وحيـن جـاء العرب إلــى بـلاد السـند كـان معظـم القبـائل السـنديه تنتسـب إلـى هذيـن القومين المعروفين بالإضافة إلى وجود قوم الميـد بقبائلـه المتفرقـة فـي مناطق مختلفة ببلاد السند.

ومن الجدير بالذكر هنا أن التاريخ قد أثبت بأن العرب المسـلمين كانوا يعاملون هذه الأقوام أو القبائل الكبيرة حتى التي لم تدخـل الإسـلام معاملة طيبة وعادلة مادامت تطيع الحكومة ، كما يعترف التاريخ أيضـاً بأن العـرب الذيـن فتحـوا بـلاد السـند وحكموهـا رغـم قلـة عددهـم ، قد

استطاعوا بفضل سياستهم الحكمية وأخلاقهم الحميدة أن يؤثروا تأثيراً قويا من الناحية الاجتماعية والمذهبية في تلك الأقوام أو القبائل المختلفة ذات تقاليد عجيبة وعادات سيئة وصفات وحشية.

خامسا : القبائل الأخرى المتفرعة في عهد العرب:

ورد في ججنامة في عدة مواضع بأن قواد الجيش في عهد الملك داهر السندي كانوا من البرهميين وكان يطلق عليهم اسم التهاكرة وهم كانوا أصلاً ينتسبون إلى قبيلة الراجبوت الهندية القديمة ويتصفون بالمهارة الحربية والشجاعة ، وكان يطلق عليهم أيضاً اسم سودها sodhas ، وقد انضم عدد كبير من هؤلاء القواد التهاكرة إلى محمد بن القاسم الثقفي أيام الفتوحات ، وخدموا الجبش العربي في أثناء حملاته الحربية ، وكان لهم دور فعال في انتصارات العرب.

وقد نزحت قبائل سندية مختلفة من شمال وشرق بلاد السند ، وسكنت اقليم البنجاب وأشهرها قبيلة عرفت باسم " زط البنجاب " التي تفرعت من قبيلة الزط الكبيرة ثم تفرعت هذه القبيلة في البنجاب إلى قبائل كثيرة مثل وجوبو وكوهاوا.

وكانت ببلاد السند قبيلة أخرى باسم قبيلة سومرا وهي متفرعة من قبيلة سودها التي استمرت بالتمسك بمذهبها البرهمي الهندي ولم تدخل فروع منها في الإسلام في عهد العرب ، إلا قبيلة سومرا هذه التي دخلت في الإسلام في أواخر عهد العرب وفيما بعد ، كما كانت هناك قبيلة تعرف باسم كوكهر التي تفرعت من قبيلة راتهور المتفرعة من قبيلة راجبوت الكبيرة ، وقد دخل معظم أفرادها في الإسلام ،

واشتهروا باسم قبيلة سيراي في بلاد السند ، وأما قبيلة لوهانة البرهمية التي لم تدخل الإسلام في عهد العرب فكانت تسكن بعض الأجزاء من إقليم كش (كچة) ومنطقة ماتياوار وبعض أجزاء أخرى من بلاد السند.

وقبيلة سهتا Shatas التي كانت تسكن بلاد السند ، وخاصة في إقليم برهمنا باد فقد دخلت جماعات كبيرة منها في الإسلام في عهد العرب ، وبعضها بقى على مذهبه القديم ، وكانت هذه القبيلة مسالمة مع العرب ، وعاملهم محمد بن القاسم الثقفي وغيره من حكام العرب في كل وقت معاملة طيبة ، وكانت هناك قبيلة سمه Sammah التي دخلت الإسلام في عهد العرب وكانت تسكن المناطق الزراعية ، بينما كانت قبيلة لوهانة غير المسلمة تسكن المدن وتشتغل بالأعمال التجارية ، ولذلك كان بين القبيلتين المسلمة وغير المسلمة فرق من الناحية الفكرية والبدنية ، كما كانت في اقليم البنجاب قبيلة تسمى الورة Alora لها صلة بقبيلة لوهانة ببلاد السند وقد أخذت إسمها من اسم المدينة المعروفة.

ومعظم سكان صحراء تهار Thar في النصف الجنوبي منها ينتسبون إلى قبيلة سيودي الرجبوتية . وقد دخلت جماعات منها في الإسلام ، وأما القبيلة الشهيرة ماهار Mahars التي كانت تسكن في المناطق الشمالية الشرقية لصحراء السند ، فقد دخل معظم أفرادها في الإسلام في عهد العرب ، بينما قبيلة ماهار الراجبوتية التي كانت تسكن السند الشرقية والشمالية أيضاً لم تدخل الإسلام في عهد العرب.

حالة بلاد السند والبنجاب سياسياً ومذهبياً واجتماعياً قبل الفتح الإسلامي

بالرغم من دخول بلاد السند في الدور الأول للفتوحات، فإن المعلومات عن هذا الدور غير كافية، وإنما المرجع الوحيد الذي يمكن لنا الاعتماد عليه والذى يعطي لنا فكرة اجمالية عن هذه الفترة هو كتاب جچنامه الذي جمع مواده وكتبه بالعربية مؤرخ عربي فى أواخر العصر الأموي، ثم قام عالم عربى آخر بترجمته إلى الفارسية فى سنة ٦١٣ هجرية، وقد أخذ منه المؤرخون القدماء مثل صاحب تاريخ المعصومي وصاحب تاريخ فرشته وغيرهما، وكذلك اعتمد عليه كثير من المؤرخين الشرقيين والغربيين، ومعنى ذلك أنه لا يوجد أى كتاب فى تاريخ بلاد السند قبل جچنامه عن العصر الذى سبق صدر الإسلام، وعلى العموم نحاول الاستفادة من هذا المرجع بقدر الامكان.

كانت الدولة الهرشية الهندية يؤيدها أصحاب المذهب البرهمي الهندي وهم البراهمة الذين أوجدوا نظام الطبقات، بحيث قسموا الشعب إلى أربع طبقات: الطبقة الأولى تسمى طبقة البراهمة أو الكهان والسدنة ورجال الدين، والطبقة الثانية تسمى طبقة الاكشترية وهى البقة الحاكمة والمحاربة، والطبقة الثالثة تسمى طبقة الفيشية وهي طبقة التجار والصناع والزراع التي توفر وسائل العيش للبراهمة والحكام، ثم الطبقة الرابعة تسمى طبقة الشودرية ووظيفتها خدمة تلك الطبقات الثلاث فى أحقر الأعمال كنظافة البيوت ورفع القاذورات، على أن أفراد الطبقات الثلاث الكبرى من أصل آري، وقد أتوا إلى بلاد السند قبل الميلاد

بزمن بعيد وحكموها، بينما أفراد طبقة الشودرية هم أصحاب البلاد الأصليين وقد أخرجهم البراهمة من ميدان السياسة والحكم والتعليم بل أذلوهم واعتبروهم طبقة المنبوذين وحرموهم من كل حقوقهم الطبيعية الشرعية، فهم ليسوا حتى في منزلة العبيد وقد أخرجوهم من دائرة الإنسانية حسب نظام الطبقات هذا.

ونتيجة لمظالم نظام الطبقات وأصحابه البراهمة، ظهر ببلاد الهند مصلح اجتماعى وهو بوذا بمذهبه الاجتماعي الجديد، وبدأ يحارب مظالم البراهمة. بآرائه الثائرة، يريد الخلاص للطبقة الشودرية المظلومة من تلك العبودية والذلة، ويريد الوصول بهم إلى حياة العزة والسعادة، وسرعان ما انتشرت مبادئ هذا المذهب بعد عهد هرشا حتى أيده بعض الملوك فى الهند والسند، ومن هنا بدأ الصارع الرهيب بين المذهب البرهمي القديم والمذهب البوذي الجديد، واستطاع البراهمة أن يطردوا الكثيرين من البوذيين والشودرية من وسط بلاد الهند، فانتشروا فى الجنوب والغرب وخاصة فى بلاد السند.

ورغم وجود الاختلاف الكبير بين البوذيين والشودرية من الناحية الفكرية والاجتماعية، فقد نشأ بين الفريقين نوع من الاتحاد السياسي، وأصبحت لهم قوة أيضاً فى بلاد السند ضد البرهمنيين حتى جاء عهد الملك جج (سنة ١-٤٠هـ ٦٢٢-٦٤٠م) الذى كان ابناً لسادن برهمي فأيد مذهبه وجعله مذهباً رسمياً للدولة، وبذلك عادت القوة إلى البراهمة مرة أخرى فى بلاد السند، واشتد الصراع المذهبي فى أنحاء البلاد، مما أثر ذلك كثيراً على تدهور الحالات الاجتماعية والفكرية والمذهبية والاقتصادية، لدرجة أن معظم الشعب السندي كانوا يتمنون

ان تتاح لهم فرصة ليتخلصوا من هذه الفوضى المذهبية والمظالم الطبقية واستبداد الحكام، ولينجوا بأرواحهم من أنواع وسائل التقتيل والتشريد والتعذيب من جانب البراهمة، وأن يشعروا بالطمأنينة والسلم فى ظل العدالة الاجتماعية حتى ينعموا بالرفاهية الاقتصادية ويتمتعوا بالحرية الفكرية والمذهبية.

هكذا كانت بلاد السند تعيش فى هذه الفترة من التاريخ فى حالة سيئة من الناحية الاجتماعية والمذهبية بصفة خاصة، ومن الناحية الاقتصادية والفكرية والسياسية بصفة عامة، ونتحدث الآن عن الحالة السياسية لبلاد السند ابتداء من عهد الملك سهرس الثاني بن ساهسي الأول إلى عهد العرب.

عهد دوائج وعهد سيهرس الأول:

حكمت بلاد السند أسرة حاكمة قبل الإسلام لمدة ١٣٧سنة وذلك سنة ٤٨٥-٦٢٢م أى حتى السنة الأولى الهجرية، وأسماء ملوكها بالترتيب: دوائج ثم سيهرس الأول ثم ساهسي الاول ثم سيهرس الثانى، ثم ساهسي الثانى وفي عهدها انتقل البوذيون على شكل هجرات كبيرة إلى بلاد السند بعد طردهم من بلاد الهند، ولذلك يمكن التخمين بأن حكام هذه الدولة كانوا بوذيين غير متعصبين.

عهد الملك سيهرس الثاني:

إن أول ضوء يلقيه التاريخ على بلاد السند يبدأ في عهد الملك سيهرس الثاني بن ساهسي الأول، الذي كان يجلس على عرش بلاد

السند في القرن السادس الميلادي وكانت بلاده تنقسم إلي خمس ولايات هي: برهمنا بادوسيوستان واسكلنده والملتان والور، وكانت الور عاصمة البلاد كلها يقيم بها الملك وأما بقية الولايات فكان يحكمها أمراء من أقرباء الملك وقد حكم هذا الملك بلاد السند فترة من الزمن حكماً عادلاً ونشر الأمن والاستقرار.

عهد ساهسي الثاني:

ولما وصل خبر موت الملك السندي إلي العاصمة قام رجال الدولة بتتويج ولي العهد ساهسي الثاني بن سيهرس وأجلسوه على عرش أبيه، وحكم البلاد بالعدل والانصاف سنوات طويلة، وفي عهده حضر شاب برهمي فقير إلي القصر وقابل الحاجب رام والوزير برهمين وقال لهما: أنا اسمي جج بن سيلائد السادن وأبي وأخي يعملان في معبد الور، وقد أدرت أن أتشرف بمقابلة الحاجب الذي اشتهر بالفصاحة والبلاغة، وأرجو منه أن يتكرم باعطاء عمل لي في الديوان فأقوم بانجازه بكل أمانة وإخلاص، حيث أنني أحفظ كتب الهند الأربعة (رك - جج- أسام - أثرين) وفي هذه الأثناء وردت رسائل من مدينة الديبل فأعطى الحاجب خطاباً إلى جج فقرأه جيداً وكتب الرد بأسلوب جميل وألفاظ رقيقة وخط حسن، فأعجب به الحاجب وعينه كاتباً في الديوان، ولما توفي الحاجب تعين جج رئيسا للديوان واستطاع أن يضبط أمور القصر والدولة بسياسة وحكمة.

عهد جج بن سيلائج:

وهكذا وصل جج البرهمي إلى العرش والحكم بمساعدة الملكة الأرملة. وبعد أن نظم الملك جج أمور مملكته الداخلية، أراد الاستفادة من الاضطرابات السائدة في مملكة فارس الجارة، فسار إلى مكران واستولى عليها بعد أن كانت دولة إيران تسيطر عليها.

ثم توفى الملك جج في مدينة الور عاصمة البلاد بعد أن دام حكمه أربعين عاماً

عهد جندر بين سيلائج:

بعد وفاة الملك جج جلس على العرش أخوه جندر في سنة ٤٠ هجرية ٦٦٠م وحكم بلاد السند لمدة سبع سنوات وقضى على بقية الفتن، ونشر الاستقرار في البلاد حتى توفي في العام الثامن من حكمه وذلك في سنة ٤٨ هجرية ٦٦٨م.

عهد الملك داهر بن جج:

بعد وفاة جندر ساد الاضطراب أنحاء المملكة السندية وانقسمت البلاد إلى قسمين، وجلس داهر بن جج على العرش بمدينة الور بداخل السند، بينما اعتلى عرش اقليم برهمناباد الأمير دارج بن جندر ابن عم داهر لمدة سنة واحدة (٤٨-٤٩هـ ٦٦٨-٦٦٩م) وبذلك تقاسم الأخوان حكم المملكة لمدة ثلاثين سنة وكانا يتبادلان نقل مقر الحكم، فتارة كانت العاصمة مدينة الور وتارة تكون العاصمة مدينة برهمناباد، ثم وقع الخلاف بين دهرسيه وبين داهر بسبب اتخاذ القرار من جانب داهر

بالزواج من حنه الأمير ماتي (ماييں) وكـ ـنك القرار نتيجه لرأي أحد المنجمين حين أخبر الملك داهـر بـأن حنه لأميره مـاييں سـتكون مر نصيب شخص يصبح ملكاً على كل بلاد السد فانشـغل فكـر داهر بهذا الخبر الخطير واستشار وزيره الذي نصحه بالزواج منها حتـى لا يفلت زمام الحكم من يده، وبذلك قرر الزواج مضطراً لأسـباب سياسية، وقد استنكر هذا الخبر شقيقه الكبير الأمير دهرسيه الذي كان ملكا على اقليم برهمناباد، فنصحه بالعدول عن هذه الفكرة ولكنه لم يقبل ذلـك، فتوجـه الأمير دهرسيه بجيشه نحو العاصمة الور لمحاربـة الملـك داهر ولكنـه فشل في القضاء عليه، وكان قد عسكر بالقرب من قصور الور وقلعتها، ومرض فجأة متأثراً بفشله وحزنه ومات في ذل المعسكر. وبعد ذلك تم زواج الملك داهر من أخته ماييں.

وبذلك استقل الملك داهر بحكم البلاد ابتداء من سنة ٧٩ هجريـه ٦٩٨م، ووحد المملكة وحكمها لمدة ثمـان سـنوات أخـرى، حتـى فوجئ بهجوم حاكم ولاية الباتيه عليه وكان يلقب بنائب الملك ويسـمى الأمـير رمل (رنمل) ويبـدو أنـه كـان مـن أقربـاء الملـك داهـر وحصـل خلاف بينهمـا، واقترب حـاكم الباتيـه مـن العاصمـة فـي سـنة ٨٧هـ ٧٠٥م، واستطاع داهر أن يقهره بسهولة بعد ان ظن أنه كاد يفقد الحكم، وذلـك بمساعدة محمد العلافي العربي ورفاقه العرب.

وبعد ذلك حكم الملك داهر بلاد السند بضع سنوات أخـرى حتـى وقع النزاع بينـه وبين العرب في إثر حادثـة السفن، وذلـك باسـتيلاء قراصنة السند على السفن العربية التجارية المارة بموانئ السند، وعدم اهتمام الملك بذلك بالإضافة إلى حمايته للمتمردين العرب وتشجيعه لهـم بمحاربة ولاة العرب باقليم مكران، وعلـى ذلـك قرر العرب فتح بـلاد السند في سنة ٩١ هجرية ٧٠٩م.

الديانات القديمة ودخول الإسلام في بلاد السند والبنجاب في عهد العرب

الديانات القديمة ببلاد السند والبنجاب:

أهم الأديان القديمة التي كانت موجودة ببلاد السند عند الفتح العربى، هي البرهمية والبوذية والجينية، كما كان فيها اليهودية والمسيحيه اتباع قليلون من قبل الإسلام، وكان المذهب البرهمي يعتبر اقدم هذه الديانات واوسعها انتشار وأكثرها نفودا في بلاد السند والبنجاب، ثم جاء من بعده المذهب الجيني وظهر معه المذهب البوذي قبل الميلاد بنحو خمسمائة سنة، وهما معاصران، وقد ظهرا بضد تعاليم المذهب البرهمي، على أن المذهب البودي قد راج أكثر من المذهب الجيني وكثر أتباعه حتي أتى عهد كانت له أهمية ومقبولية أكثر مما للمذهب البرهمي القديم، ثم جاء الإسلام إلى بلاد السند والبنجاب في نهاية القرن الأول الهجري (القرن الثامن الميلادي) مع الفتوحات العربية الإسلامية واخد في الانتشار يوما بعد يوم في هده البلاد.

ليس للدين البرهمي مؤسس حتى نعتبره مرشدا معينا لأتباعه من أهل الهند، كما لا يوجد شخص معين ذو مركز روحي عظيم في ذلك النظام المذهبي عند البراهمه حتى ننسب إليه الكتب المقدسة لهؤلاء البراهمة في الأزمان القديمة، وإن ظهر بعض شخصيات كبيرة فيما بعد، وبسبب كثرة عددهم لا نجد في الدين البرهمي، التوحيد في العقيدة ولا المذهب، لا القانون ولا العادات، ونكثره الاختلافات في طرق

العبادة وكثرة عدد المعبود من الأصنام، وهذا الدين يبدو كالغابة التي تتخللها آلاف الطرق، ولكن لا يوجد بينهما طريق واحد يكون سهلاً واضحاً مستقيماً ليرضي به جميع أتباع هذا الدين، ومع ذلك فهناك عقيدة برهمية تشترك فيها الفرق البرهمية المختلفة بصفة عامة، وهي فكرة التناسخ والحلول التي لها علاقة كبيرة بالفلسفة.

وقد عرفت بلاد السند والبنجاب قبل البرهمية كثيراً من معتقدات الآريين الذين كانوا قد وفدوا إليها قبل الميلاد بأكثر من خمسة عشر قرناً، فاعتنقت الناجا الطوطية وعبدت إلهها الأفعوان كما عبدت هانومان الإله القرد وعبدت ناقوس الإله الثور، وقدست الأشجار والموتى من الأسلاف أعتقاداً منه بخلود أرواحهم وقدمت لهم القرابين، استخدمت الرقي والتعاويذ والسحر لجلب السعادة واطالة العمر ودفع الأرواح الشريرة وايقاع الارتباك بالأعداء، وما زال اليوم قلة منعزلة تؤله النمرة والقردة والأفاعي والنيران والأنهار وغيرها وقد ورد بكتب الويدا وهي أقدم أساطير الهند والسند تفصيل لآلهة الآريين والهنود الكثيرة هذه ومن بينها ما يمثل قوى الطبيعة نفسها وعناصرها مثل "الإله اندرا الذي ينسب إليه البعض تسمية الهند، وهو إله السماء والعواصف الذي يجلب الأمطار أو الماء والذي هو أصل الحياة، وشوريا إله الشمس، ولكن اختلف الرأي فيمن ينسب إليه خلق العالم من بين هذه الآلهة، فقد أجمعوا على كل حال على وجوب رد الأمر إلى خالق واحد وذلك فيما بعد متأثرين بمسألة التوحيد في الإسلام.

وصار للبراهمة (أصحاب الدين البرهمي) بعد العصر الويدي السلطان والقوة فثبتوا نظام الطبقات الذي كانوا قد أقاموه من قبل.

ووضع قديسهم الأكبر "منو" شرائعه وفقهه الذي غدا دستور بلاد الهند والسند وقانونها الأساسي في كافة نواحي الحياة بها وظهر في ذلك العصر قبل الميلاد بقرون أربعة، ملاحم المهابهارتا والراماتيا فالأولى تشتمل اليوم على قرابة ربع مليون بيت من الشعر في حين تضم الثانية بين دفتيها ثمانية وأربعين ألف بيت، أي أضعاف أضعاف الياذة هوميروس، وبذلك كانت أضخم آثار العالم الأدبية القديمة على الاطلاق، ولا شك في أنها قد تعرضت إلى إضافات كثيرة على مر القرون حتى بلغت صورتها الأخيرة، وللمهابهارتا على الخصوص قداسة عظمى عند البراهمية كقداسة الإنجيل عند أتباع المسيح حتى ليعدون قراءة ما تيسر منها مجلبة للرحمة والمغفرة ومن أعظم وأقدم كتبهم المذهبية التي تقوم عليها طقوسهم ويستمدون منها عقائدهم أربعة كتب يرجع تاريخ أقدمها إلى ٤٥٠٠ سنة قبل الميلاد والأخير منها إلى حوالي ١٢٠٠ سنة قبل الميلاد، وهي هذه الكتب بالترتيب أهمها كتاب (ركفيدا) يشتمل على مجموعات من الأناشيد التي كانوا ينشدونها في تقديم القرابين للآلهة وكتاب (سام فيدا) أيضاً يشتمل على الأناشيد المذهبية وكتاب (ويكرفيدا) يشتمل على الصلوات والأدعية شعراً ونثراً ثم كتاب (أشهر فيدا) يصف عقائد الجمهور في الارواح الشريرة والرقى والسحر وهو آخر مجموعة من هذه الكتب، ولذلك ظل مدة غير معترف به فهو لا يلقى ما تلقاه الكتب الثلاثة السابقة من التقديس.

يبدو أن هذا النظام قد وضع من جانب البراهمة لتوزيع الأعمال على الناس في المجتمع.

. البراهمة (برهمن) أي الكهان من رجال الدين البرهمي ومن

واجباتهم الإشراف على الشـؤون المذهبيـة وخدمـة المعـابد، وهـم أعلـى الناس درجة.

الأكشترية (جهتري) أي الطبقة الحاكمة والمحاربـة، وهـم الذيـن يشرفون على الشؤون الإدارية والعسكرية ومسؤولون عـن الأمـن فـي البلاد.

الفيشية (ويش) أي طبقة التجار بصفة خاصة وتنضم إليها طبقـة الزراع والصنـاع وأصحـاب الأعمـال الاقتصاديـة ومـن واجبهم توفـير وسائل العيش للبراهمة والأكشترية.

الشودرية (جودر) وهم السكان الأصليون في البـلاد ولا ينتمـون إلى الأريين بصلة الدم، وهم أسفل الطبقات فـي نظـر البراهمـة وأحقـر الناس وعملهم خدمـة الطبقـات الثلاثـة الكبـيرة فـي أخـس حاجـاتهم مـن أعمال النظافة، وهم يسمون أيضاً الطبقة المنبوذة.

وتنص شرائع منو على امتيازات للبراهمة لا يرقى إليهـا الملـك نفسه الذي كان عليه ألا يقطع أمراً دون الرجوع إليهم فيه، فهذه الشرائع التي رسمت لكل طائفة من الطوائـف حدوداً لا تتعداهـا قـد أطلقـت فـي الوقت نفسه أيدي البراهمة من كل قيد وجعلت لهم زعامة الناس جميعاً، فالبرهمي لا يدنس بذنب ولو قتل أهل الكون جميعهم، فهم ومـا يملكـون على يمينه وأمره نافذ مطلق.

وقد أباح منو لأبناء الطبقات الثلاث الكبيرة حق المصاهرة فيمـا بينهم على قـدر، بحيث يستطيع الرجـل أن يتزوج مـن طائفتـه أو مـن طائفة أدنى منها وليس أعلى منها، وأما طبقة الشـودرية الرابعـة (طبقـة المنبوذين) فقد حرم عليهم مخالطتهم بأفراد الطبقات الأخرى ولا يجـوز

لهم الزواج إلا من طبقتهم الحقيرة فقط، ومن يتزوج بواحدة من الشودرية يصبح مفضوحاً مذموماً ويطرد من طائفته لينزل إلى طائفة المنبوذين العبيد ويصيبه خزي الدنيا، ولكن يمكن للبرهمي أن يتزوج امرأة أكشترية من الطبقة الحاكمة أو حتى من الطبقة العالية أن تتزوج من طبقة أقل منها، لأنها حينئذ تلد أولاداً يرثون صفات أبيهم التي هي أقل من صفات طبقة أمهم وكم من شودري نفي من الأرض لمحاولته التطلع إلى من هم أعلى منه طبقة، وكم من مرة جرع الجحيم من الزيت الحار أو قطعت يداه لمجرد معارضته لرأي البراهمة فقط كان السبب في وضع نظام الطبقات الجائرة هو أن البراهمة خافوا من أن يختلط بنو قومهم الآريين بعناصر الهند والسند وأهمها القوم الدراوردي الذي سمي بالشودرية المنبوذين بواسطة البراهمة الآريين الذين استولوا على السلطة في البلاد ويخشون من الشودرية أن يقوموا بالمحاولة لاسترجاع حقوقهم في أراضيهم الأصلية، فبقاء هؤلاء الشودرية في الفقر والجهل والحرمان يضمن للبراهمية دوام الاستمرار في الحكم والجاه في البلاد.

ويعيش البراهمة معززين مكرمين على ما يقدم لهم من القرابين والهدايا والأموال، وإن كان قد أذن لهم أيضاً في حالة الحاجة القيام ببعض الوظائف والأعمال التجارية. وقد وردت في شريعة منو نصوص كثيرة تشير إلى مكانة كل طبقة في المجتمع:

وعلى هذا الأساس الذي وضعته الكتب المذهبية قامت الحياة الاجتماعية للبراهمة الهندوس وظلت كذلك عبر القرون تزداد كل يوم شدة وتمكيناً وتزداد كل طبقة تمسكاً بموقفها من غيرها حتى رأيت طبقة

الشودرية المنبوذين وكأنهم أشد إيماناً بذلتهم من غيرهم فهم لا يسكنون مع بقية الأهالي داخل المدن بل يتخذون لهم مساكن حقيرة قذرة في أطراف المدن في غاية الذلة فهم لا يحاولون أن يرتفعوا عن وضعهم هذا والجهل بينهم متمكن.

ولذلك كله قد ضاق الناس ذرعاً باستمرار السلطة للبراهمة واشتداد وطأتهم عليهم، حتى بدت لهم تباشير الخلاص على أيدي مصلحين قد ظهرا من بين الأكشترية الحاكمة في القرن السادس قبل الميلاد وهما (مهابير) صاحب الديانة الجينية وصاحب الديانة البوذية ولقد كانت حياة هذين المصلحين غامضة على كثير من الباحثين أرادوا أن يكتبوا عنهما وعن مبادئهما فلم يجدوا ما يعتمدون عليه في الغالب إلا الأساطير.

العقيدة الجينيــة :

كان الدين الجيني أحد العقائد المنتشرة في بلاد الهند والسند قديماً ولا يزال له أتباع قليلون مثل أتباع البوذية في تلك البلاد، والجينيون يعتبرون دينهم ديناً مستقلاً بذاته كالبوذية ولا يعترفون بالبرهمية، ولكن بعض المؤرخين يعتبرون الجينية مشتقة من البراهمية الهندوسية، بينما يغالي الجينيون فى ادعائهم بأن ديانتهم أقدم الديانات كلها في شبه القارة الهندية، على أن المؤرخين لا يعرفون حقيقة الجينية إلا منذ القرن السادس قبل الميلاد، ويعرفون مؤسسها أو منظمها الأخير باسم "مهاديرا" الذي يؤرخون ميلاده لسنة ٥٩٩ قبل الميلاد أي قبل اثنتين وأربعين سنة من ولادة بوذا صاحب الديانة البوذية في سنة ٥٥٧

قبل الميلاد، وعلى ذلك يعتبر الدين الجيني أقدم في الظهور من الدين البوذي، وإن كان كلا المؤسسين لهذين المذهبين قد تعاصرا في الحياة ثلاثين سنة، ولكنهما لم يتقابلا مع أنهما كانا يعيشان في منطقة واحدة تعرف باسم "بيهار" ببلاد الهند في الوقت الحاضر، وقد مات مهاديرا قبل بوذا بحوالي خمسين سنة.

والجينية من ناحية أخرى تعني عقيدة قهر النفس، وفيها ينظر مهاديرا (مهابير) أي البطل العظيم إلى الحياة بأنها لعنة وعلى المرء أن يتخلص منها بنعمة الانتحار البطيء جوعاً ليبلغ سر الوجود، ويدرك الحقيقة والمعرفة عند أهل الدنيا المتعلقين بأهداب الحياة فيها ولا تتجاوز النسب في الزمان والمكان فيها، فما عند فريق منهم حق محسوب هو عند غيرهم باطل معلوم في الغالب وطريق الخلاص عند الجينيين يقتضى الامتناع عن ايذاء أي كائن حي حتى امتنعوا عن ممارسة أي عمل من الأعمال وغطوا أفواهم بأيديهم لكي لا تتسرب إليها كائنات من الهاء فتقتل، ولذلك كنسوا الأرض برفق زائد أمامهم ومن تحتهم خوف من القضاء على ما يسرح فيها من هوام، حين يمشون وحين يجلسون أو يرقدون ويفعلون ذلك كله إلى أن يتم لهم أعظم انتصار تظفر به الروح على إرادة الحياة وهو الانتحار البطيء جوعاً وحرماناً ومشقة.

والجينية تخالف أيضاً الديانة البرهمية في أنها لا تعترف بمسألة تعدد الولادة

التي يقول بها البراهمة نتيجة لفكرة التناسخ التي تقول بأن الإنسان لا يزال يموت ويولد

حتى تطهر نفسه تماماً فتصل إلي الخلود والنعيم، وتقول الجينية بأن

الإنسان يستطيع أن يتحرر من دورة الولادة هذه بتعطيل حياته وذلك بالتخلي عن كل عمل وكل ما يغذي جسمه حتي تنتهي حياته، وكأنها ترغب بذلك في الانتحار حتي سميت بالانتحارية .

من مبادئ الجينية :

أهم شئ في الجينية هو الدعوة إلي تجرد الإنسان من شرور الحياة وشهواتها حتي تدخل النفس في حالة من الجمود لا تشعر فيها بأي شئ مما حولها ؛ والناسك الحق هو الذي يقهر جميع مشاعره وعواطفه، وحوائجه فلا يحتاج إلي شئ حتي اللباس ، لأنه لا يشعر بحر ولا برد ولا حياء، ويهتم الكهان الجينيون بنتف أشعارهم كلها كدليل علي أنهم لا يهتمون بالجسد المادي لأن الذي يشعر بالحياء يشعر بالتالي إلي ستر عورته ، وإن في الحياة خيراً وشراً وحسناً وقبيحاً، ومعناه انه لا يزال متعلقاً بها خاضعاً لمقاييسها، ويقول الجينيون : إن أدم وحواء كانا يعيشان في الجنة بطهر كامل لا يشعران بحياء ولا خير ولا شر ولا يحملان هماً أو غماً حتى تسلط عليهما الشيطان ليحرمهما من هذه اللذة، فحملهما على أن يأكلا من شجرة العلم بالخير والشر، فأخرجا من الجنة، وبهذه الطريقة يعيش كهانهم عراة لا يسترهم شئ مطلقاً لأن هذا هو المثل الأعلىَ عندهم، أي أن الناسك تجرد من كل إحساس بالدنيا وآراء الناس فيها، فأصبح لا يهتم فيها بخير أو شر أو حسن أو قبيح ويفلسفون في هذا المعنى ويقولون إن الشعور بالحياء يتضمن تصور الإثم، فلو لم يكن الإثم في الحياة لما كان الحياء، فترك

اللباس هو ترك للإثم وتصوره، وعلى ذلك يجب علـى كل ناسك يريد أن يحيا حياة بريئة من الإثم أن يعيش عارياً ويتخذ من الهـواء والسماء لباساً له.

الديانة البوذية (البدهية أو السمينة):

البوذية إحدى الديانات القديمة المعروفـة التـي ظهرت فـي بـلاد الهند وبلاد السند قبل أكثر من خمسمائة سنة قبل الميلاد، وبقيـت مئـات السنين ثم انتقلت إلى البلاد المجـاورة كسيلان وبورمـا وسيام والصيـن واليابان حتى أصبحت هـذه البـلاد الآن هـي الموطـن الحقيقـي لازدهـار البوذية بعـد أن اضمحل شـأنها مـن منبعـه الأصلـي بـلاد الهنـد نفسـها، ويقدر معتنقوها في هذه البلاد بحوالى خمسمائة مليون نسمة.

حياة بوذا ونشأته:

ولد بوذا مؤسس الديانة البوذية في سنة ٥٥٧قبل الميـلاد، وبـوذا هذا لقب لـه ومعنـاه "العـارف المسـتنير" أمـا اسـمه فهـو "كوتامـا" أو "سدهارتا" وكانت ولادته في أسرة حاكمة غنيـة مـن الطبقـة الأكشـترية، فنشأ على طبع أسرته مترفاً منعماً، ولكن لفت نظـره مـا كـان يـراه مـن مظاهر البؤس والشـقاء والمـرض والتفـاوت الاجتمـاعى بيـن الطبقـات، فأخذ يفكر في هذه المظاهر وفـي الحيـاة ولذاتهـا وانقطاعهـا بعد حيـن، فأفزعته هذه الحقيقة فترك حياة القصور والنعيم، وانقطـع يفكـر ويبحث عن مخرج من هذه الآلام، وكان يلازم شجرة يجلس تحتها يفكـر، وقـد

صارت هذه الشجرة بعد ذلك ذات مكانة مقدسة ما زال البوذيون ينظرون إليها نظرة تقديس، وهي الآن في منطقة كايا بولاية بيهار ببلاد الهند.

وعاش بوذا حياة مرة قاسية في الغابات والصحارى فترة من الزمن يعاني آلام البؤس والفقر والجوع ويمارس أنواع الرياضات الجسمية والروحية حتى استطاع أن يصل إلى حالة من التجرد من الماديات، ويعلو بنفسه عن الشهوات، حتى أدرك أن الشهوة هي أم الشرور في الحياة، وأنه لا بد من القضاء عليها، حتى يحس الإنسان بالسعادة والراحة، وأخذ يدعو الناس إلى هذا التحرر نحو أربعين سنة مرتحلاً من مكان إلى مكان، يبشر بالمحبة بين الناس، ويدعو إلى الزهد وأن يعطف الإنسان على كل مخلوق ولو كان حيواناً، وأن ينظر إلى المخلوقات كلها نظرة فيها رحمة وحنان بعيداً عن التعالي والغرور، وعمل بوذا نفسه بما كان يدعو إليه من مبادئ، فكان يقاسم الناس آلامهم، ويدعوهم إلى مبادئه الرحيمة، مبادئ الحب والعطف والتسامح.

ويذهب البعض إلى أن هناك تشابهاً بين ما نسج حول بوذا وحياته وبين ما قاله أتباع عيسى عليه السلام عنه.

تعاليم البوذية:

لم تبحث البوذية في أمر الإله كما هو الشأن في البرهمية، وقالوا أن القصد الأول لبوذا كان تطهير النفس من شهواتها وتحليها بالأخلاق في معاملاتها مع الناس، وتنظيم الأمور الاجتماعية والقضاء على نظام الطبقات، ولذلك تدور تعاليم بوذا كلها حول هذا الأساس

الخلقي والاجتماعي: لا تقتل، لا تسرق مالا، لا تشرب خمرا، لا ترقص، لا تكذب، لا تزن، لا تكن مترفا، لا تتكبر، لا تكن ظالما. . الخ وكان أهم شئ اهتم به بوذا نفسه هو العمل على إلغاء نظام الطبقات الذي أوجدته الديانة البرهمية القديمة لمصلحة البراهمة، وأن البوذية الأصلية لم تحتفل بالطقوس البرهمية الرسمية كنالغسل في الأنهار المقدسة، والمداومة على الصيام والاشتغال بالعبادات المتعبة والجولان عراة حفاة، وتقليد الرهبان في حلق الرؤوس أو تلبيد الشعر وتتريب الجسد وعرض النذور والقرابين، فكل ذلك ليس له حظ في النجاة عند البوذية.

وتنكر البوذية وجود خالق للعالم وأن الموجودات كلها ليست إلا وهماً وظواهر باطلة فانية، وأن الحديث عن الكون وهل هو متناه أو لا متناهي والروح وامتزاج النفس والبدن أو انفصالهما ما هو إلا أسطورة وخرافة من خرافات الأساطير، وكذلك أنكر بوذا القضاء والقدر وقال بأن مصير كل حي منوط بسلوكه الذي قد يقوده إلى السعادة أو إلى الشقاء، فلا آخرة ولا جنة بنعيم ولا سقر بجحيم، كما أنكروا فكرة التناسخ والحلول وغيرها، وقد سخر بودا من البراهمة سخرية شديدة فهدم كيانهم حين أعلن بأن الطقوس وشعائر العبادة وما وراء الطبيعة واللاهوت مسائل لا تستحق النظر، وأن القرابين والأدعية ما هي إلا من صناعة الكهنوت، كما هاجم نظام الطبقات ضمنا حين صرح بأن الناس أشرافهم وأدنياءهم كلهم سواء فهو يشير بذلك إلى انه ليس من العدل أن تتمتع البراهمة بكل شئ وأن يحرم الشودرية من كل شئ، وإلى انه ليس من الحكمة أن لا يكون للاكشترية الحاكمة إلا سلطة

ظاهرية جوفاء وأن لا يكون للغيشية الأعيان والتجار حق الخروج من دائرة طبقتهم الثالثة مهما بلغوا من الكمال والعلم أو الجاه والثروة.

إنتشار البوذية وزوالها ببلاد الهند والسند:

ظهر بوذا في الوقت الذي كان الناس يعيشون تحت ظلم الديانة البرهمية التي قسمت الناس إلى طبقات غير عادلة في بلاد الهند والسند، وكانوا ظامئين إلى مذهب جديد ليخلصهم من الأفكار السيئة والطقوس الصعبة، ومن تعالي وغطرسة البراهمة، ومن الذل والعبودية، ولما ظهر بوذا بالمبادئ الأخلاقية الاجتماعية التف الناس حول ودخلوا في مذهبه وأيدوه ونصروه، وظل بوذا يدعو إلى مبادئه مدة حتى توفي سنة ٤٨٠ قبل الميلاد، ولم تكن البوذية قد أخذت شكلاً رسمياً حتى لفتت هذه المبادئ نظر الامبراطور أشوكا امبراطور الهند الشمالية في القرن الثالث قبل الميلاد، بعد أن خاض حروباً قاسية حتى مال إلى حياة الرحمة والحب والسلام، فاعتنق دعوة بوذا ودعا إليها في حماس وأرسل رسله إلى الممالك المختلفة يدعون إليها وبذلك صار الامبراطور داعياً علميا للبوذية حتى انتشرت واكتسحت في طريقها الديانة البرهمية القديمة.[١]

على أن الذين دخلوا الديانة البوذية من أهل الهند والسند ظلوا معترفين بآلهتهم التي كانوا يعبدونها في البرهمية القديمة، ومن هنا بدأت البوذية تختلط في مظاهرها بالبرهمية وبدأ البوذيون الذين يقوم مذهبهم على عدم الاعتراف بالإله يعترفون بالإله، وبالتالي اندمج فريق من البوذية في طقوس البراهمة حتى ظهرت البوذية بمظهر البرهمية

وبدأت معابدهم تظهر فيها آلهة البراهمة، ومن ثم أخذت البوذية تتلاشى شيئاً فشيئاً، وأصبح بوذا بعد حين إلهاً يعبده البوذيون، وبهذا مهد السبيل إلى انحسار موجة البوذية من بلاد الهند والقضاء عليها في القرن السادس الميلادي بعد مرور ألف سنة من ولادة بوذا ورجعت البرهمية إلى مكانتها القوية وصارت ديناً رسمياً في بلاد الهند وكذلك في القرن السابع الميلادي في بلاد السند.

ومما أدى إلى زوال البوذية أيضاً في بلاد الهند والسند أنه في الوقت الذي لم يأبه البراهمة بأمر الديانة الجينية التي لم تكن خطراً بالنسبة لهم لمبالغتها في التقشف والزهد، انصرفوا بقوة طاغية إلى العمل على تقويض صرح البوذية المتسامحة التي غدت تناوئ سلطانهم حتى أحدثت تغيرات غير قليلة في النظم الاجتماعية والسياسية، وصار لها أتباع كثيرون، وبمرور السنين استطاع البراهمة أن يقضوا على البوذية بقوة وسياسة مذهبية جديدة، ذلك أن رؤساء البراهمة عمدوا إلى إدخال قدر غير يسير من تطور وتسامح في شعائرهم بغية إعادة مجدهم وسلطتهم الدينية، في الوقت الذي انحرف سندنه البوذية عن مبادئها الأولى البسيطة إلى مستحدثان معقدة أقحموها على عقيدتهم السهلة، وراحوا ينشدون لأنفسهم وبذلك وسعوا الشقة فيما بينهم وبين أتباعهم الذين ما لبثوا أن جذبهم تسامح البراهمة الطارئ وتدبيرهم المحكم حين أخلوا لبوذا نفسه مكاناً بين آلهتهم البرهمية وكذلك لمهاديرا نبي الجينية أو إلهها وأعلنوا لهما قدسيتهما، وكانوا قد أنكروا ذلك من قبل.

وهكذا ظهرت برهمية جديدة لا تختلف عن البرهمية القديمة في كثير وقد ساعدت على استرداد أصحابها تحت سيطرة البراهمة بفضل

سياستهم المذهبية الجديدة من جهة وبفضل ما وجدوه عند الأمراء الراجبوتيين الأقوياء الذين ظهروا في القرن السادس الميلادي، من مناصرة وتشجيع مما يسر لهم ذلك في نشر مدارسهم في كل مكان، حتى انتشرت عقيدتهم وهي البرهمية الجديدة في القارة الهندية كلها لا يضرها وجود تلك الجينية الضئيلة ولا البوذية الضعيفة.

موقف أصحاب الديانات القديمة ببلاد السند والبنجاب من العرب:

كانت بلاد السند تحكمها قبل الإسلام زهاء قرن أسرة مالكة تعرف في التاريخ بأسرة سيهاسي وكانت هذه الأسرة بوذية المذهب، ثم في أول سنة من القرن الأول الهجري أي في صدر الإسلام انتقل حكم البلاد إلى رجل يسمى جج وكان برهمي المذهب وحافظاً للكتب البرهمية المقدسة لأنه كان من أسرة دينية برهمية، فقد كان والده سادن معبد الور بينما كان شقيقة جندر الزاهد بوذياً وباستيلاء جج على الحكم صارت الديانة البرهمية هي الدين الرسمي للدولة وسيطرت على الدين البوذي المنتشر في البلاد رغم كون الأغلبية فيها من البوذيين.

وبذلك استطاع البراهمة أن يسيطروا على جميع مناطق بلاد الهند، بل حتى على المنطقة المعزولة عنها جغرافياً وهي بلاد السند، بينما كاد لا يوجد لأتباع الجينية من وجود في بلاد السند في صدر الإسلام وبعد ذلك، حيث أننا لا نجد لنشاطهم أثراً واضحاً في التاريخ، لأن هؤلاء كانوا مسالمين هادئين وزهاداً مغالين في زهدهم بصفة عامة، ولذلك كان البراهمة يتجاهلونهم لقلة خطرهم على الديانة البرهمية، في الوقت الذي شنوا حملاتهم العنيفة في القضاء على

البوذيين بشتى الطرق الوحشية من القتل الجماعي والاحراق العام وأنواع التعذيب، إذن كانت الديانة البرهمية هي دين أغلبية الشعب قبيل الفتح العربى لبلاد السند.

وموقف أصحاب الديانات القديمة ببلاد السند مع العرب أيام الفتح العربي يختلف من ديانة إلى ديانة حسب ظروفها السياسية والمذهبية في البلاد، فالصراع المذهبى الذي كان قائماً في تلك البلاد قبيل الفتح العربي لها بين أصحاب المذهب البرهمي الطغاة وأصحاب المذهب البوذي المتظلمين، يعتبر أهم عنصر لتلك الحياة المذهبية القاسية، ففي بداية القرن الأول الهجري حين قام (هواين تسانغ) الرحالة الصيني المعروف بجولته في شبه القارة الهندية ذكر في مذكراته أن البوذيين كانوا منتشرين في ذلك الوقت بكثرة في وادي نهر السند وفي الوديان الواقعة في المناطق الجبلية ببلاد السند والمجاورة للحدود الهندية وذلك بعد أن سكنوا هذه الأماكن هاربين من ظلم البراهمة في بلاد الهند وقد ورد في مواضع كثيرة من كتاب ججنامه ذكر هؤلاء البوذيين ومعابدهم وحكامهم والمناطق التي كانوا يسكنونها في بلاد السند أيام الفتوحات الإسلامية، فيدل ذلك أيضا على وجود الجماعات الكثيرة منهم في بلاد السند وسيطرتهم على مناطق مختلفة مهمة وعلى وجود الزعماء والحكماء.الكبار الأقوياء بينهم، وخاصة في مدينة النيرون ومنطقة البودهية واقليم سيوستان ومنطقة بت وغيرها كما كان زعماء البوذية يسيطرون على قلاع كبيرة وحصون عظيمة وإن كانوا من كبار الرهبان السمنيين البوذيين، وكانت لهم قطاعات واسعة منيعة وكان لهم حراس مستقلون محاربون أقوياء، فقد جاء في ججنامه أن

الملك جج أراد القضاء على كاهن بوذي معروف بصاحب القلعة الذي اشتهر بعداوته ومخالفته للبراهمة وحكامهم، فتوجه الملك جج بنفسه إلى تلك القلعة ليقضي على ذلك الكاهن، ولكنه سرعان ما انخذل أمامه وفقد قوته وجبروته حين واجهه وجهاً لوجه، فقد استولت عليه هيبة ذلك الرهب البوذي فخرج من عنده منهزماً نفسيا ومعنوياً وسياسياً، بل وعده بتقديم المساعدات اللازمة للمعبد البوذي هناك كما كان كثير من البوذية من التجار والصناع والعلماء يعيشون في المناطق التي كان معظم حكامها وسكانها من البرهميين مثل مدينة الديبل وكان بها أيضاً للبوذيين معبد معروف، ومدينة الور العاصمة السابقة لبلاد السند وكان بها معبد عظيم لهم، ونواحي اقليم سيوستان التي كان بها معابد كثيرة للبوذيين بجانب المعابد البرهمية.

كذلك يفهم من بيانات ججنامه أن البوذيين لم يكونوا يسعون لحماية الأسرة الحاكمة من البراهمة أيام الفتح العربي، ذلك أنهم لم ينسوا تلك المظالم الوحشية التي لاقوها من هؤلاء البراهمة في شبه القارة الهندية لمئات السنين حتى اضطروا في النهاية للانتقال إلى شمال الهند ولا سيما إلى بلاد السند واستوطنوها واستطاعوا أن يتنفسوا قليلاً الحرية المذهبية، ولكنهم لم يتخلصوا تماماً من الاضطهاد المذهبي والاجتماعي ولا من عداوة البراهمة لهم من النواحي الأخرى، فتلك العوامل المذهبية والسياسية والنفسية والاجتماعية كلها، شجعت البوذيين على الترحيب بالعرب الفاتحين أصحاب الدين الإسلامي، دين العدل والمساواة والرحمة، فتعاون البوذيون معنوياً ومادياً مع العرب للقضاء على جبروت حكام البراهمية وظلمهم الذي ملأ البلاد، وقد عد بعض

المؤرخين مساندة البوذيين للعرب من أهم الأسباب التي أدت إلى زوال الدولة البرهمية بسهولة في بلاد السند.

وعلى العموم فإن البوذيين في كل بقعة من بلاد السند كانوا يسالمون العرب ولا يرغبون في القتال ضدهم بل كانوا يرحبون بهم ويعاونونهم في الخطط العسكرية لإتمام مهمة الفتح العربي حتى تزول الدولة البرهمية ويتخلص البوذيون من ظلمهم، لم يكتف البوذيون على مساعدة العرب بل نجد أن كثيراً من الجماعات البوذية قد دخلت الإسلام أفواجاً أفواجاً أيام الفتوحات وبعدها باستمرار حتى يكاد لا يسمع عن وجود البوذيين بعد ذلك في بلاد السند، وهذا يؤيد ما نذهب إليه من أن أغلبية البوذيين قد دخلوا الإسلام في عهد العرب.

وأما موقف أتباع البراهمة فكان بصفة عامة ضد العرب مذهبياً وسياسياً فهم لم يرغبوا رغبة جماعية في الدخول في الإسلام كالبوذية إلا في حالات قليلة، ولكن بعض البرهميين من الزعماء والقواد وزعماء القبائل ببلاد السند دخلوا في طاعة العرب أيام الفتوحات حين وجدوا كفة الميزان في صالح العرب وسالموهم وعملوا تحت رايتهم حتى تم الفتح ودخل البقية في طاعة العرب أيضاً مرغمين وقبلوا حكمهم.

ونذكر هنا بعض الأمثلة للحكام البوذيين وكذلك للبرهميين الذين انضموا برغبتهم وبدون قتال إلى الفاتح محمد بن القاسم الثقفي أيام الفتوحات، وكانوا خير معينين له سياسياً وعسكرياً، فمن الحكماء البوذيين مثل بهندركن حاكم مدينة النيرون والأمير كاكه بن بسايه حاكم منطقة البودهية ومعظم قواده والأمير موكه بسايه حاكم منطقة بت

والأمير راسل الحاكم الثاني لمنطقة بت وكان من كبار قواد الملك داهر حتى قبيل المعركة المصيرية بين محمد ابن القاسم والملك داهر ، وكذلك الأمير ككسه بن جندر حاكم منطقة باتيه وكان في الغالب بوذياً لأنه كان ابن الملك جندر البوذي وأما من كبار الشخصيات السياسية والعسكرية للبرهميين الذين لجأوا إلى محمد بن القاسم ودخلوا تحت لوائه مثل قبلة بن مهترائج المشرف على سجن الديبل، وسياكر وزير الملك داهر وبالإضافة إلى عشرات من القواد الذين استسلموا أثناء القتال وبعد فتح المدن والقلاع في راور والور وبرهمناباد والملتان وغيرها، ومن الجماعات البوذية التي قبلت الطاعة للعرب بدون قتال مثل قوم جنه المقيمين في ناحية من اقليم سيوستان وكذلك جماعات من القواد والجنود البرهميين الذين انضموا إلى العرب أثناء القتال بين محمد بن القاسم والملك داهر وأيضاً قدمت الطاعة قبائل سندية مختلفة مثل زط اللوهانة، وقبيلة السمة وقبيلة السهته ومعظم هؤلاء الأفراد وتلك القبائل قد دخلوا الإسلام أيام الفتوحات وبعدها في عهد العرب ببلاد السند والبنجاب.

علاقات بلاد السند والبنجاب مع الدول المجاورة قبل الفتح الاسلامى

علاقات بلاد السند والبنجاب مع بلاد إيران قديمة

نجد أن العلاقات بين بلاد السند وبلاد إيران ، كانت علاقات مختلفة منذ عصور قديمة جداً ، وكانت مستمرة بحكم الجوار ، وكان من الطبيعي أيضا أن تقع حروب بينهما في بعض فترات من التاريخ ، فقبل الإسلام كانت الجيوش الإيرانية كثيرا ماتشن الحملات وتقوم بالغازات على المناطق السندية الواقعة على الجهة الغربية لنهر السند ، كما كانت الجيوش السندية تصل أحيانا إلى داخل الحدود الإيرانية ، وبعد ظهور الإسلام أيضا تكررت حملات إيران على بلاد السند إلى أن فتح العرب هذه البلاد ، وبذلك انتهت السيطرة العسكرية والسياسيه المتقطعة للفرس على بعض أجزاء بلاد السند.

(أ) علاقة بلاد السند ببلاد ايران قبل الميلاد:

لقد عثر بين الآثار القديمة على خطابات لملوك الدولة الإكمينة الإيرانية (٥٥٠ - ٣٢٣ ق . م) في القرن السادس قبل الميلاد ، وذلك في الجزء الشمالي الغربي من بلاد السند ، مما يدل على وجود العلاقات بين بلاد إيران وبلاد السند في ذلك العهد القديم جدا ، ومن الناحيه السياسية دلت الآثار الحجرية القديمة على أن الملك دارا الأول (٥٢٥-٤٨٦ ق.م) الذي حكم بلاد إيران حكما قويا قد فتح وادي السند

ابتداء من منطقة بنجاب إلى بعض الأجزاء المحيطة لنهر السند في ذلك العهد ، وتعتبر حملة دارا الأول سنة ٥١٨ قبل الميلاد أول حملة إيرانية على بلاد السند.

وبعد دارا الأول جاء الملك زيراس الذي حكم إيران فترة قصيرة (٤٦٤-٤٦١هـ ق. م) وكانت جيوشه تشتمل على الهنود والسند ايضاً . ثم ابتداء من عهد الملك دكار يرى إلى عهد الملك دارا الثالث كانت بلاد السند تحت سيطرة الحكم الإيراني حتى استولى الإسكندر الأكبر المقدوني على منطقة بنجاب التابعة لبلاد السند في سنة ٣٢٣ قبل الميلاد . فزالت بذلك السيطرة الإيرانية من بلاد السند البنجاب لفترة من الزمن.

ويتبين لنا من النقوش التاريخية التي وجدت في إقليم برهمن آباد (آياد) ببلاد السند على وجود علاقات سياسية بين الدولة الإيرانية الكمينية وبالدولة السندية في تلك العصور القديمة.

ومن الناحية الثقافية ، فإن الآثار القديمة التي وجدت في منطقة موهنجود ، وتدل أيضاً على وجود العلاقات الفكرية بين أهل السند وأهل إيران قبل التاريخ ، وكانت هذه العلاقات الثقافية مستمرة بين الدولتين إلى القرن الثالث والقرن الثاني قبل الميلاد.

ومن الناحية التجارية أيضاً تدل تلك الآثار القديمة التي عثر عليها ببلاد السند على وجود العلاقات التجارية بين بلاد إيران وبلاد السند والبلاد المجاورة منذ آلاف السنين ، فمن بين ما عثر عليه بعض الأختام التي كانت تستخدم للختم على الأوراق الرسمية المرسلة إلى الخارج ، والطرود الكبيرة ، ولعلها كانت طرود القطن ، ومنها البضائع

التي كانت تتبادل كالأحجار الكريمة والتماثيل الحجرية والكؤوس والطوب الأحمر ، وكان يستورد حجر الفيروز من إيران ، وربما كانت الأخشاب أيضاً تصدر إلى إيران.

(ب) علاقة بلاد السند بإيران في العهد الساساني:

أسس أرد شير الأول الدولة الساسانية في إيران التي دامت نحو أربعة قرون من الزمان (٢٢٦م-٦٥٢م) واتسعت سيطرتها بعد فترة قصيرة حتى اشتملت على غرب الهند ووسطها والجزء الشمالي الغربي منها ، وأرسل ملوك طوران ومكران بالبيعة إلى أردشير الأول ، وكان إقليم طوران وإقلم مكران يدخلان في نطاق الدولة السندية في ذلك العهد.

وتشير بعض الروايات إلى أن بلاد السند كانت منفصلة عن بلاد الهند في عهد الدولة الهيلينية الهندية في القرن الرابع الميلادي.

(جـ) علاقات بلاد السند ببلاد إيران في عهد انوشيروان:

عادت العلاقات السياسية بين بلاد السند وبلاد إيران في عهد انوشيروان الملك الساساني بعد انقطاعها فترة من الزمن ، فامتدت السيطرة الإيرانية حتى نهر السند وقد صالح كثير من ملوك أقاليم السند والهند أنوشيروان وأرسلوا إليه بهداياهم الثمينة معبرين بذلك عن تقديرهم له ، وكان ذلك خوفاً من كثرة جيوشه وسعة ملكه وغلبته على البلاد الأخرى وقتله لكثير من حكامها الذي رفضوا البيعة له.

ومن الناحية الثقافية فإن العلاقات كانت طيبة بين الطرفين ، فقد طلب الحكيم برزويه الإيراني من الهند كتاب كليلة ودمنة وموضوعه في إصلاح الأخلاق وتهذيب النفس ، وترجمة من السسكريتية إلى الفارسية وقدمه إلى كسرى انوشيروان ، وكذلك نقلت لعبة الشطرنج إلى ايران في عهد انوشيروان.

وهكذا كانت العلاقات السياسية والثقافية وكذلك التجارية قائمة بين بلاد السند وبلاد إيران في العهد الساساني ، حتى عهد يزدجرد الثالث اخر ملوك الساسانيين الذي قضى العرب عليه في سنة ٣١هـ/٦٥١م هجرية أي في القرن السابع للميلاد ، وبذلك زالت الدولة الساسانية الكبيرة عن الوجود ودخلت بلاد إيران تحت حكم العرب.

(د) علاقة بلاد السند ببلاد إيران قبيل عهد العرب:

في بداية القرن السابع الميلادي ، وبعد ظهور الإسلام قام الحاكم الإيراني هرمز بعدد من الحملات البحرية على سواحل بلاد السند ، حتى وقع في أسره عدد كبير من أهالي السند وأخذهم معه إلى ايران وكان معظمهم من قوم الزط لأن أغلبية أفراد الجيوش السنديه كانت منهم ، ولما أراد العرب الحملة على إيران عقدت الدولة الساسانية معاهدة الصلح مع بلاد السند وبموجبها جامل الملك هرمز قوم الزط بإيران وأدخلهم في الجيش الإيراني لمحاربة العرب بهم ، ثم في عهد أبي بكر رضي الله عنه وقعت حرب ذات السلاسل بين إيران والعرب في سنة ١٢ هـ (٦٣٤م) وقتل خالد بن الوليد هرمزا[١] ، ووقع الاف الأسرى من الزط في ايدي العرب ، فدخلوا الإسلام في عهد

وسكنوا العراق ، ثم سنة ١٤ هجرية (٦٣٦م) فطلب الملك يزدجرد الثالث مساعدة عسكرية من حلفائه ولاسيما ملك بلاد السند الذي أرسل إليه الأسلحة والفيلة وأهدى له فيله الأبيض المقاتل الذي كان بمثابة قائد لتلك الفيلة المحاربة ، وقد قتل في الميدان في اليوم الثالث من السهل للعرب إبعاد بقية الفيلة وقتل المعركة ، وبعد ذلك أصبح من رستم القائد الإيراني المشهور ، والقضاء على جيش إيران في هذه الحرب وفي القرن السابع الميلادي في عهد الدولة الهرشية الهندية . أيضاً كانت بلاد السند تابعة للحكم الإيراني سياسياً .

ثم ضعفت إيران بسبب حملات العرب المتكررة عليها ، فانتهز الملك جج ملك بلاد السند هذه الفرصة واسترجع منطقة مكران التي كانت تحت سيطرة إيران وبعد وفاة جج جاء ابنه الملك داهر ، ووحد البلاد كلها وظل يحكم سنوات طويلة ، حتى حصل الفتح العربي الكبير بقيادة محمد بن القاسم الثقفي في سنة ٩٢ هجرية/٧١٠م ، وبذلك انتهت سيطرة إيران على بلاد السند بصفة نهائية.

ومن الناحية التجارية فقد أشار بعض الجغرافيين العرب ومؤرخيهم إلى ان العلاقات التجارية بين بلاد السند وبلاد إيران كانت مستمرة في عهد العرب ، فيذكر المسعودي بأن القوامل التجارية كانت متصلة بين خراسان وبين الملتان بإقليم البنجاب والمنصورة بإقليم السند من خراسان ويذكر الأصطخري بأن الإبل السندية كانت تصدر إلى خراسان وفارس وغيرها.

ومن الناحية الثقافية والفكرية فقد كانت للغة العربية مكانة كبيرة في بلاد السند في عهد العرب بحكم الظروف السياسية ودخول الكثيرين

من أهل السند في الإسلام ، ومـع ذلـك كـان اللغـة الفارسـية رانجـة فـي أماكن مختلفة من بلاد السند بسبب الجوار والتبادل بين بلاد السند وبلاد إيران ، وكذلك بسبب وجود كثير من الفرس في بـلاد السـند حتـى فـي الجيش العربي منذ عهد محمد بن القاسم الثقفي ، فقد ذكـر الأصطخـري بأن لسان أهل مكران كان الفارسية والمكرية (المكرانية) وزيهم أيضاً مثل زي أهـل فـارس والعـراق ويقـول المقدسـي بـأن الفارسـية كـانت مفهومة في اقليم الملتان ايضاً ونلاحظ أن الجغرافيين العرب لم يذكروا أهمية اللغة الفارسية عنـد ذكرهم للغـة العربيـة ببـلاد السـند ، ذلـك لأن إيران ولغتها كانتا محكومتين في ذلك الوقت ، إلا أن الفارسية مـع ذلـك كانت لها أهمية كبيرة عند أهل السند.

وهكذا كـانت العلاقـات بيـن بـلاد السـند والبنجـاب وبـلاد إيـران قديمة ومستمرة في صورها المختلفة في كل العهـود السـابقة حتـى عهـد العرب ببلاد السند والبنجاب وبعد ذلك.

الفصل الثانى

الفتح الاسلامى للسند والبنجاب

- علاقات شبه القارة الهندية ببلاد العرب قبل الاسلام.
- المحاولات الأولى للفتح زمن الخلفاء الراشدين.
- الحملات الاسلامية فى العصر الأموى.
- محمد بن القاسم يفتح بلاد السند والبنجاب.
- إنتشار الاسلام فى السند والبنجاب.

علاقات شبه القارة الهندية بلاد العرب قبل الاسم

انقسمت شبه القارة الهندية فى القديم إلى قسمين جغرفيين كبيرين هما بلاد السند والبنجاب وبلاد الهند ، وتضرب هذه البلاد بجذورها فى اعماق التاريخ ، فهى من البلاد ذات الحضارات القديمة بل الموغلة فى القدم. وقد دلت الحفريات والكشوف الأثرية التى قامت بها بعثة مارشال سنة ١٩٢٢ والتى اسفرت عن العثور على مدينتين قديمتين بغرب بلاد السند هما " مهنجوذارو " و " هربا " دلت على وجود حضارة هندية يرجع تاريخها إلى عصر بناة الأهرام ، وتمتد فى أغوار الزمان ــ مثلما تمتد الحضارة اليونانية والعراقية ــ إلى آلاف السنين قبل ميلاد المسيح ، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

ويفصل البحر بلاد الهند هذه عن الجزيرة ، ولهذا كان من الطبيعى أن يكون البحر هو أول حلقة اتصال بين بلاد العرب من ناحية وبلاد الهند والسند من ناحية أخرى ، وقد قامت الصلات التجارية بين الجانبين منذ آلاف السنين قبل الميلاد ، فكانت القوافل تأتى بتجاراتها إلى بلاد الهند. بل استقر بعض العرب فى مناطقها الساحلية واندمجوا فى أهلها ، كما حمل العرب منتجات شبه القارة الهندية ، وثمارها إلى بلادهم الأصلية ، بل حملوها إلى أوربا عن طريق مصر وبلاد الشام ونقلوا التجارات الأوربية والعربية إلى الهند والصين ، بل ذهب البعض إلى أن الروابط العربية الهندية ترجع إلى

زمن سيدنا سليمان ــ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ــ فقــد كـــان يستورد الذهب والفضة والعاج والطواويس من بلاد الهند.

وعندما فتح المسلمون بلاد فارس واستقروا بهـــا ، اســـتمرت العلاقات بين بلاد السند وبين الجزيرة العربية عن طريق بلاد فارس ، ويذكر المسعودى أن القوافل التجارية كانت متصلة بين خراسان وبين الملتان باقليم البنجاب وبينها وبين المنصورة بـــإقليم الســـند ، ونـــص عبارته " وبلاد الهند متصل ببلاد خراسان " والسند ممـــا يلـــى بـــلاد المنصورة والملقان والقوافل متصلة من السند إلى خراسان وكذلك إلى الهند ويذكر ابن الفقيه فى كتابه " البلدان " أن البضائع الايرانية كانت تصل إلى بلاد السند من خراسان فمن أراد السند أخذ من ناحية فارس على سيراف " ويقول " الاصطخرى " فى المسالك والممالك " أن الإبل السندية ذات السنامين كانت تصدر إلى خراسان وفارس وغيرها " هذا الفالج (الجمل ذو السنامين) الذى يحمل إلى الآفاق بخراسان وفارس وسائر البلاد التى يكون بها البخاتى انما يحمل منهم ".

لقد كانت التجارة العربية مع الهند تسير براً من مصر والشام على ساحل البحر الأحمر إلى اليمن ، ثم تبدأ الرحلة البحريـــة عـــن طريق حضر موت وعمان والبحرين إلى كراتشى ، أو عـــن طريـــق المحيط الهندى إلى موانى الهند ، ولما جاء الإسلام اســـتمرت صـــلة الهند قوية بالعرب ، وهناك كلمات من اللغة الهنديـــة موجـــودة فـــى القرآن الكريم مثل مسك وزنجبيل وكافور ، وقد أهدى بعـــض ملـــوك

الهند للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ جرة فيها زنجبيل فأطعم ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه منها.

ولأن نشاط العرب نشاط تجارى ، فإن لنا أن نتوقع أن يقتصر إتصالهم على السواحل الهندية التى كانوا يعرفونها جيداً ، ويعرفون المدن الواقعة على الساحل الطويل لبحر العرب ، كما كانوا ينطلقون من هذه البلاد إلى ما وراءها ، فيذهبون الى خليج البنغال وبلاد الملايو وجزر أندونسيا.

وقد بقيت بعض الموانى الهندية التى اشتهرت منذ العهد العربى محتفظة بأسمائها حتى الآن مثل ميناء تيز باقليم مكران ، وميناء الديبل ببلاد السند ، وميناء تانة (تهانه) وكهمبانت وسوبارة وجيجو فى اقليم كجران ببلاد الهند ، ومن هذه الموانى كانت سفن التجار العرب تتجه إلى ميناء البنغال وموانى الجزر الهندية وميناء القامرون (كامروب) ، وتستمر فى سيرها حتى تصل إلى بلاد الصين ، وقد ذكر الجغرافيون العرب هذه الموانى ووصفوها فى كتبهم.

وفكرة العرب عن الهند أنها بلاد وافرة الغنى والثراء " بحرها در وجبالها ياقوت وشجرها عطر " حسب وصف واحد من الأعراب وقد أستورد العرب من الهند الأقمشة والعاج والذهب والفضة والعملات الذهبية ، وأنواع التوابل والسكر والأرز والمسك وجوز الهند وغيرها " وقد تبارز المقاتلون بسيوف الهند البتارة ، وتعطرت

النساء بعطورها ورفلن فى حريرهـــا وازيـــن بلآلئهـــا ، وازدحمـــت الجموع حول الملاعب ليشاهدوا نمور الهند وفيلهـــا فـــى المعتـــرك " وصدر العرب لبلاد الهند الجلد المصبوغ والـــدقيق وتمـــر البصـــرة وخمرة العراق ، والزمرد من مصر ، والخيول العربيـــة الأصـــيلة ، والعود الذى كان يستخدم فى المعابد السندية .. إلى غير ذلك.

بإختصار كانت هناك علاقات تجارية بين العرب وبين ســـكان الهند والسند منذ آلاف السنين ، وقد أقام بعض التجـــار العـــرب فـــى الموانى والمدن الساحلية الهندية واستوطنت جاليات عربية هناك قبـــل الفتح الإسلامى لهذه البلاد ، كذلك كان هناك هنود أقاموا بين العـــرب وأخذوا عنهم لغاتهم وتعلموا لسانهم ، وعرفوا بينهم واشتهروا بألقابهم مثل الزط والميد والتكاكرة .. إلخ.

الهدف من السطور السابقة بيان وجود علاقـــات متينـــة بـــين الجزيرة العربية وشبه القارة الهندية ، وأن العرب قد عرفوا هذه البلاد ومارسوا التجارة معها واستقر بعضهم فيها خاصة علـــى ســـواحلها ، فإذا أدركنا ذلك ووضعنا فى الاعتبار طبيعة الرسالة الإسلامية وانهـــا دعوة عامة أرسل الله بها محمداً ــ صلى الله عليه وســـلم ــ للنـــاس كافـــة ، مصداقا لقوله عز وجل ل { وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين} " الأنبياء : ١٠٧ " ، { قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعـــاً}، وقول النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ " كان النبى يُبعث لقومه خاصة وبُعثتُ للناس عامة " ، إذا عرفنا ذلك واستحضرنا ما قام من علاقات

بين الشعبين قبل الإسلام ، تصونا أنه كان مـن الطبيعـي أن يفكـر المسلمون في تبليغ كلمة الله إلى سكان هذه المناطق.

والسؤال الذي يفرض نفسه الآن هو :

هل ترجع محاولات تبليغ الدعوة الإسلامية لسكان شبه القـارة الهندية إلى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

الوقاع أننا أمام روايتين: **الأولى** منهما تقول إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أوفد رسله إلى الملوك والحكام في زمنه ، وأرسـل بعض أصحابه إلى " سرباتك " حاكم " قنوج " بالهند ، وأن هـذا قـد أسلم على أيدي هؤلاء الصحابة ، ولكن الحافظ " ابن حجر " يضـعف هذه الرواية ، ويعلق عليها بقوله: " زعم أن النبي أنقـذ إليـه حذيفـة وأسامه وصهيباً يدعونه إلى الإسلام ، فأجاب وأسلم وقبل كتاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وقد قال الـذهبي فـي تجريـد أسـماء الصحابة ، إن هذه الرواية كذب واضح ".

أما الرواية **الثانية** فتذكر أن خمسة من الصحابة ـ رضـوان الله عليهم أجمعين ـ قد وصلوا إلى بلاد السند ، وإن اثنين منهم رجعا وبقي ثلاثة ، وتضيف أن النبي عليه الصلاة والسلام قد أرسل كتابـه إلى أهل السند مع هؤلاء الخمسة وأنهم لما جاءوا إلى هذه البلاد نزلوا في قلعة يقال لها " نيرون " ثم رجع اثنان بعد أن أظهر أهـل السـند الإسلام وبقي الثلاثة هناك يبينون لهم الأحكام حتى ماتوا بتلك البلاد.

والقواقع أن الكتاب الذى وردت فيه هذه الرسالة غير معروف وقد استبعدها تماما الإمام السيوطى.

ومن هنا لايمكن الاطمئنان إلى وصول صحابة يحملون دعوة الإسلام إلى شبه القارة الهندية زمن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم.

وعندما تولى الخلافة أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، أقر أبا العلاء الحضرمى على ولاية البحرين ، أحد مراكز التجارة العربية مع الهند والصين ، ولما آلت الخلافة إلى عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ جعل أبا هريرة والياً على هذه البلاد ، فلما كانت سنة ١٥ هجرية أسند منطقة البحرين إلى عثمان بن أبى العاص الثقفى ، وكان عثمان هذا قد أسلم فى السنة التاسعة من الهجرة وعندما وقف امام رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ مع وفد ثقيف الطائف ، لمس فيه النبى ما يتمتع به من مميزات فأقره حاكماً على الطائف وبقى كذلك حتى جاء عمر ــ رضى الله عنه ــ فنقله من ولايته وولاه عمان والبحرين سنة ١٥ هـ ، والثابت أنه أول من طرق الهند من ثلاث جهات.

أ ـ فى عهد الخلفاء الراشدين

قام عثمان بن أبى العاص الثقفى والى عمان والبحرين بإعداد ثلاث حملات بحرية ، وقد تولى بنفسه قيادة واحدة منها اتجهت إلـــى ناحية " تهامه " عاصمة احدى محافظات ولاية مهاشترا الجديدة الآن ، وتقع على بعد ٣٢ ميلاً من مدينة " بومباى " الحالية ، بينما توجهــت الثانية يقودها أخوه الحكم بن أبى العاص الثقفى نحو ميناء " بهروج " على الساحل الهندى شمال اقليم " سورت " ببلاد الهند الحاليـــة ، أمـــا الثالثة فقد تولى أمرها أخ ثالث أسمه " المغيرة بن أبى العاص الثقفى ، ويممت شطر " الدبيل " الذى يغلب على ظن المتخصصين أنها كانـــت ميناء ، موقعه قرب ميناء " كراتشى " الحالى فى جمهورية باكستان.

وكان الهدف من هذه الحملات الإعداد لفتح تلـــك المنـــاطق ، وتأديب قراصنة الهند والسند الذين كانوا يغيرون على السفن التجارية وينهبون ما تحمله من بضائع ، ويتخذون من موانيهم قواعد لمهاجمـــة بعض مناطق الدولة الإسلامية فى الخليج العربـــى ، بالإضـــافة إلـــى محاولة معرفة بلاد السند واختبار طاقة القوة العربية والتوصل إلى أى مدى يمكن الاعتماد عليها فى فتح هذه البلاد مســـتقبلا ، وأيضـــا أراد المسلمون تأديب ملك السند إنتقاماً لما حدث منه أثناء معركة القادسية سنة ١٦ هـــ = ٦٣٧م عندما زود ملك الفرس بالمال وبالسلاح وأعانه فى حربه مع المسلمين وتأديب بعض المرتدين ومن أيدهم من رجـــال

القبائل الدين هربوا إلى هده البلاد بعد فشل حركتهم زمن الصديق رصى الله عنه.

ويبدو أن هذه لم تكن حملات منظمة هدفها الاستقرار ، وإنما هى حملات أوليه أقرب إلى فرق استطلاعية هدفها الاستكشاف والتعرف وجمع المعلومات عن هذه البلاد ، وقد اعتمدت على المتطوعين من المسلمين ذوى الأصل الهندى خاصة ، ولعل من بينهم قبائل (الزط) المعروفين بالمهارة فى التجارة والزراعة ، والذين يقال أن على بن أبى طالب استخدمهم لحراسة أموال البصرة فى موقعة الجمل ، وشاركوا فى حماية ثغور الشام بعد ذلك زمن الأمويين ثم وطنهم الحجاج فى سهول العراق بهدف اصلاح بطائحها وزراعتها ، واستركوا بعد ذلك فى فتح البلاد وعلى كل حال فهذه الحملات لم تزد عن أن تكون مناوشات ، لم تصل إلى مستوى الحرب بمعناها المعروف ، ولعل هذا هو سر عودة هذه القوات إلى قواعد انطلاقها فى عمان بعد أن تمكنت من تحقيق مهمتها.

وبمجرد عودة قوات هذه الحملات ، ورجوع المجاهدين ، كتب الوالى إلى الخليفة يشرح له ما حدث وما تحقق من نتائج ، فلم يبد الخليفة – رضى الله عنه – ارتياحاً لهذا العمل ، لأنه لايتصور أن يقوم الوالى بكل ذلك دون إذن الخليفة وبغير تشاور مع السلطة المركزية فى المدينة المنورة ، ذلك أن الدولة الإسلامية لم تكن كونت قوة بحرية منظمة تستطيع التعامل مع الدول ذات القدم الراسخة فى

هذا المجال ، ثم إن القوات الإسلامية كانت مشـــغولة بالقتـــال علــــى جبهتى الفرس والروم فى ذلك الوقت ولم يكن من المصلحة فتح جبهة جديدة دون اتخاذ الأهمية والعدة لذلك ، خاصة إذا كانت الجبهة واسعة وبعيدة عن الجزيرة العربية مثل بلاد السند والهند ، إن هذا يمثل نوعاً من المغامرة وتعريض الجند الإسلامى للخطر بصورة لايرضى عنها أمير المؤمنين ولعل هذا هو السر وراء توعده للوالى نفسه عندما أبلغه ابناء هذه الحملات ، لقد قال له غاضباً " يا أخا ثقيف حملت دوداً على عود ، وانى احلف بالله لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم " .. وبرغم ذلك فإن احتكار السفن العربية بقيادة المغيرة مع البحرية الهندية قبالة " الديبل " كان له أثره فى ظهور ثم فى نمو البحرية الإســـلامية ، إن إنتصار المسلمين هنا أشبه بنصرهم فى حــوض البحـــر المتوســـط ، بموقعة ذات الصوارى وما تم فى عهد عمر كان غارات خاطفة تمهد لتطور كبير.

وكان لابد من مرور سنتين أذن الخليفة بعدهما بتجهيز قـــوات برية لابحرية لفتح اقليم مكران جنوب غرب بلوجستان ببلاد الســـند ، واقليم كرمان الفارسى الذى يقع على حدود فارس مع بـــلاد الســـند ، وكانت السند ــ وتتبعها مكران ــ امارة مستقلة يحكمها ملـــك بـــوذى اسمه " هرش " وقد جعل الخليفة قيادة الجيش الأول للحكم بن عمـــرو التغلبى ، وقيادة الجيش الثانى لسهيل بن عدى ، وقد أخذت هذه القوات تواصل استعدادها ويزودها الخليفة بما تحتاج إليه من جند وقادة بحيث

أتيح لها أن تبدأ مهمتها فى سنة ٢٢ هـ = ٦٤٢ م ، وقد نجحت فى الوصول إلى كرمان ببلاد العجم وتم فتحها.

وفى سنة ٢٣ هـ = ٦٤٣ م وصلت طلائع جيش الحكم بن عمروا التغلبى إلى اقليم مكران وزوده الخليفة رضى الله عنه بثلاثة قواد أخرين وبعد فتح مكران توغل الجميع فى بلاد السند إلى أن اقتربوا من نهر السند.

أما أهل مكران فقد عسكروا على شاطئ نهر السند حيث أمدهم ملك البلاد بقوات هائلة جعل القيادة عليها لحاكم من أبرز حكام الولايات عنده أسمه " راسل " ، وقد عبر هذا بقواته النهر والتقى مع جند المسلمين فى معركة حامية كانت نتيجتها إنتصار المسلمين ، وقد قُتل القائد السندى ومعظم قواده وتقهقرت قواته وتبعهم المسلمين حتى نهر السند أو نهر " مهران " فى اقليم السند وتولى أمر البلاد بعد هذه الهزيمة وزير الملك البرهمى ، واستمر يحكمها مدة أربعين سنة ، ولما هلك تولى شئون الحكم ابنه " داهر " أخر أمراء السند الذى هزمه المسلمون وتم لهم فتح بلاده بعد ذلك.

أما فى هذه المرحلة فقد صدر أمر الخليفة بأن تعود الجيوش الإسلامية إلى مكران فقد كان ــ رضى الله عنه ــ يخشى أن يستدرجوا أن توغلوا فى عمق بلاد لايعرفونها حق المعرفة ، لما يمثله ذلك من خطورة على المسلمين ، فكان أمره صريحاً بألا يعبر أحد إلى الضفة الشرقية من نهر السند ، وقال لقائديه:الحكم وسهيل " لايجوزن

مكران احد من جنودكما ، واقتصرا على ما دون النهر وامر ببيع الفيلة بأرض الاسلام ، وقسم أثمانها على من أفاءها الله عليه. فعادت الجيوش لتستقر فى مكران واستمر الحال هكذا فلم يحاول المسلمون التقدم أو فتح مناطق جديدة حتى نهاية عصر عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

وفى عهد الخليفة الثالث عثمان – رضوان الله عليه – ، يبدو أن قادة المسلمين ألحوا عليه وطالبوه بأن يأذن بالتوغل فى بلاد السند وفتحها ولكنه تردد ، لأنه لم يرد التغرير بالجند الإسلامى وتعريضه لمخاطر فى مناطق واسعة وبعيدة لم تكتمل للمسلمين معرفة طبيعتها بعد ، وقد رغب أن يحتاط للأمر ، فكتب لواليه على بلاد العراق عبدالله بن عامر وكانت بلاد فارس تتبعه ، أن يوجه إلى اقليم السند من يراه ويصفه للخليفة بعد معاينة ومباشرة " بحيث يعلم علمه وينصرف إليه بخبره " فعهد الوالى بهذه المهمة إلى " حكيم بن جبلة العبدى " الذى ذهب إلى هذه البلاد ودرس أحوالها وجمع معلومات عنها ، ورجع إلى والى العراق الذى أوفده إلى الخليفة فلخص له ما انتهى إليه بهذا الصدد فى الكلمات الآتية أثناء حواره مع عثمان بن عفان رضى الله عنه:

يأمير المؤمنين قد عرفتها وتنحرتها ، قال الخليفة: صفها لى قال: ماؤها وشل وثمرها دقل ولصها بطل ، إن قل الجيش فيها ضاعوا . وإن كثروا جاعوا ، فقال له الخليفة: أخبر أنت أم ساجع؟

قال بل جابر ، فاكتفى الخليفة ــ رضى الله عنه ــ بالبقاء فــى إقلــيم مكران ورفض عبور النهر والانطلاق إلى داخل البلاد.

وعندما تولى عبدالله عامر بن كرير القشيرى ولايــة العــراق سنة ٢٩ هــ عين عبدالله بن معمر التيمى حاكما على مكران ، فأثخن حتى بلغ نهر السند وظل يحكم اقليم مكران إلى أن استشــهد الخليفــة عثمان رضى الله عنه.

وفى خلافة الإمام على ــ كرم الله وجهــه ــ وبــرغم الفــتن والمشاكل الداخلية ، توجه الحارث بن مرة العبدى ســنة ٣٩ هـــ = ٦٥٨ ــ ٦٥٩م على رأس الف من خيرة المسلمين ومجموعــة مــن القادة إلى مكران حيث انضمت إليه قوات أخرى من أهــل الــبلاد ، وسار الجميع إلى منطقة القيقان (الكيكان) ــ وهى جزء مــن بــلاد السند يتصل بخراسان ، ويسمى الآن " قلات " ، وهناك قابلوا قــوات غفيرة لأعدائهم بلغت عدتها عشرين الفا ، ودخلوا معها فــى معركــة دامية ، وتمكنوا من تحقيق نصر مشرف عليها وأسروا الكثيرين مــن أفرادها.

ولكن الإمام على استشهد ــ للأسف ــ فى هــذه الظــروف ، وتلقى المسلمون خبر استشهاده فتأثرت معنوياتهم واضــطروا للعمــل على العودة مرة أخرى إلى مكران وقد شجع ذلك الأعــداء فتجمعــوا بأعداد غفيرة من جديد ، وكان على الحارث بن مرة أن يلقاهم مــرة أخرى فى نفس القيقان سنة ٤٢ هــ = ٦٦٢م ــ أوائل زمن معاويــة

ـــ رضى الله عنه ـــ وقد ابلى المسلمون بـلاء حسـنا وثبتـوا فـى أماكنـهم ، ولم يهنوا أو يضعفوا وواجهوا الجموع الكثيرة فى بسـالة منقطعة النظير حتى استشهد القائد نفسه ومعظم القادة والجند ، ومـن بقى منهم اضطر للعودة إلى ثغر السند ـــ مكران ـــ ذلك الاقليم الـذى بقى وحده بأيدى القوات الإسلامية ، يتبع اقليم العراق ، أحـد اقـاليم الدولة الإسلامية ، وكان الولاة يفدون منه إلى اقليم مكران السندى.

ب ـ زمن الدولة الأموية

استمر الاحتكاك العسكرى والمناوشات بين المسلمين وأهل مكران أيام معاوية ـ رضى الله عنه " الذى كانت بلاد الهند ترتعش فى أيامه ، فقد أتى المهلب بن أبى صفرة إلى ذلك الإقليم سنة ٤٤ هـ ، نائباً عن عبدالله بن عام والى العراق ، فوصل إلى " بنة " و" الأهوار " وبنه الآن هى بنوكوهات بباكستان ـ وهما بين الملتان وكابل ـ فلقيه العدو وقاتله هو ومن معه ، كما لقى المهلب ثمانية عشر فارساً من الترك ببلاد القيقان الحصينة ، فقاتلوه وقتلوا جميعاً.

وفى زمن معاوية أيضاً جاء عبدالله بن سوار همام العبدى على رأس أربعة آلاف مقاتل ، فغزا القيقان ـ واهلها من الترك ـ ثم وفد إلى معاوية وأهدى اليه خيلاً قيقانية ، ثم رجع إلى نفس المكان فقتله الترك وفى ذلك يقول الشاعر:

وابن سَوَار على عداتيه * موقد النار وقتال السُغب

أما زياد بن أبى سفيان فقد ولى سنان بن سلمة بن المحبق الهذلى على ذلك الإقليم ففتح ما بين مكران والقيقان عنوة ، ثم سار إلى منطقة البودهية المجاورة وأقام هناك وضبط البلاد ولكنه استشهد بعد حكم استمر سنتين وتوالى الولاة لايتجاوزون القيقان والبوقان وقصدار ، وهى من المدن الداخلية فى اقليم مكران ، وعندما بويع عبدالملك بن مروان خليفة على المسلمين سنة ٦٥ هـ = ٦٨٤م كان حال هذا الاقليم على ما كان عليه ، فقد شغل الخليفة عنه بما واجه من

حروب وفتن داخلية ، ومعنى ذلك أن المسلمين لم يتعدوا حدود مكران إلا زمن معاوية حيث استولوا على شرق اقليم بلوخستان وقلات ثم تقدموا نحو قندهار وكابل ووقفوا عند ذلك الحد أى فى المنطقة الممتدة بين كابل ومكران عند الشاطئ.

ثم تولى الحجاج بن يوسف الثقفى أمر العراق والولايات الشرقية سنة ٧٥ هـ = ٦٩٤م فقام بدوره بتولية سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابى على ثغرى مكران والبوقان ، وقد امكنه تنظيم البلاد اداريا وماليا واستطاع بمعاونة موظفين اكفاء جدد أن يضبط الإقليم وأن يحصل منه أموالاً كثيرة بفضل سياسته ودهائه ، ولكن خرج عليه جماعة من العرب العلافيين الوافدين على هذه البلاد زمن الفتنة والذين خضعوا لمكران [illegible] " وكان يتزعم هؤلاء معاوية بن الحارث العلافى ومحمد بن الحارث العلافى ، وقد غلبا على هذه البلاد ، وقتلا أميرها واستقلا بأمورها من سنة ٨٠ إلى سنة ٨٥ هـ = ٦٩٩ ـ ٧٠٤م ، وكان الحجاج قد أرسل والياً من قبله هو مجاعة بن سعر التميمى ، ففتح وتوغل إلى بلاد بنواحى " قندابيل " وحمل العلافيين على الفرار إلى داخل البلاد وأعاد مكران للسيادة الأموية ، ولما مات ذلك الوالى بعد سنة اختار الحجاج محمد بن هارون بن زراع النمرى ليحل محله. وقد نجح ابن هارون فى تنظيم ديوان مكران وقضى على زعماء الفتنة وتتبع القتلة من العلافيين على مدار خمس سنوات وقضى عليهم دون أن يظهر العداء لملك السند.

وقد ساعد استتباب الأمن فى بلاد العراق وانتظام أمر الخلافة الأموية واستقرار الأوضاع بها والقضاء نهائياً على ماكان هناك من فتن ، ساعد ذلك كله على توجيه القوات الإسلامية للجهاد ونشر راية الإسلام فى مناطق جديدة من العالم. وخاصة وقد أكسبتهم الغارات الثغرية دربة على القتال ومعرفة بأساليب العدو وفنونه وخبرة بالمحيط الهندى ومسالكه ، ثم تحولت الغارات الثغرية البحرية الى هجوم بحرى سافر على يد أمير البحر الوالى محمد بن هارون.

فى ظل هذه الظروف كان الوليد بن عبدالملك قد تولى الخلافة وورث ملكا مستقراً عن أبيه وقد دفعه ذلك إلى التفكير فى استئناف حركة الفتوحات الإسلامية على كل الجبهات.

أما بلاد السند فقد حدث فيها أمر ترتب عليه تغيير كامل فى السياسة التى كان " الحجاج " ومن سبقه يتبنونها ازاء اقليم مكران ، هذا الأمر دفع الحجاج إلى التفكير فى ارسال قوات لفتح بلاد السند ، عل نور الإسلام يشرق عليها جميعا ونتخلص نهائياً من مضايقات الأعداء القابعين هناك.

انما حادثة تتخلص فى أنه حوالى سنة ٩٠ هـ = ٧٠٨م أهدى ملك جزيرة الياقوت (سرنديب ــ سيلان) للحجاج بعض الهدايا القيمة ، وقد حملتها ثمانى عشرة سفينة عربية واتجهت نحو بلاد العراق ، وقد ضمت هذه السفن بعض النساء المسلمات اللاتى عمل اباؤهم بالتجارة وماتوا فى " سرنديب " وكان ملك هذه البلاد يبغى

بذلك التودد إلى أمير العراق ، وبينما كانت السفن قريبة من ميناء "الديبل" ببلاد السند ، هجم عليها جماعة من القراصنة ممن يسمون بالتكامرة ، واستولوا عليها بكل ما فيها ومن فيها من التجار والنساء المسلمات ومضوا بهم إلى داخل بلاد السند وعلم الحجاج بما جرى عن طريق تاجر تمكن من الهرب وأخبره.

وبرغم ضيق الحجاج من تصرفات القراصنة ومن حماية ملك السند لهم ، ومن مساندة العلافيين المتمردين على حكومة بنى أمية إلا أنه آثر اللجوء إلى الطرق السلمية أولا ، وذلك أنه من الحكمة الا يستخدم العنف فى مثل هذه الظروف ، خاصة وأورواح المسلمين والمسلمات الذين لاحول لهم ولاقوة فى أيدى هؤلاء المجرمين ، وقد يقومون بالقضاء عليهم فى لحظة غضب ، ومن هنا وجدنا الحجاج يؤثر ارسال رسالة إلى ملك السند يطالبه فيها بالتدخل وإرسال السفن وإطلاق سراح الأسرى ، ولكن " داهر " ملك البلاد اعتذر بأنه لاسلطان له على القراصنة اللصوص وليس فى استطاعته القبض عليهم أو عمل أى شيئ يساعد على حل القضية.

والواقع أن هؤلاء كانوا من أعوان ملك السند ، وكان يسبغ عليهم حمايته كما أثبتت الوقائع بعد ذلك ، ومن هنا غضب الحجاج ، فقد تأكد لديه سوء نية ذلك الملك ، ورأى أن الواجب يفرض عليه استخدام القوة لإنقاذ الأسرى وتأديب القراصنة ، ولم تكن أمامه حيلة

أخرى بعد أن أغلق " داهر " سبل السلام أمامه ، وفرض عليه اللجوء إلى القوة ما من ذلك بد.

وقد أعد الحجاج جيشاً بقيادة عبيد الله بـن نبهـان السـلمى ، ووجهه بحراً إلى ميناء الديبل (كراتشى الحالية) عن طريق عُمان ، ولكن ذلك الجيش فشل فى تحقيق مهمته ، ذلك أن الملك " داهر " كان ينتظر قدومه مستعداً لمواجهته ، وقد استشـهد عبيـد الله نفسـه فـى المعركة مع الكثيرين من جنده.

لم تدفع نتيجة المعركة الحجاج لليأس ولم يستسلم ، بـل أعـد جيشاً جديداً سنة ٩١ هـ = ٧٠٩م جعل القيادة عليه لبديل بن طهفـة البجلى ، وقد أتخذ ذلك الجيش طريق البر إلى عمان ومنها إلى إيران فمكران حيث أمده الوالى محمد ابن هرون بثلاثة آلاف من الجنـود ، أضيفوا إلى ثلاثة آلاف فارس كانوا معه ، وقد أعد لهم " داهر " جمعاً قوامه أربعة آلاف مزودين بالأسلحة ، تعاونهم عشرات الفيلة وجعـل عليها ابنه المسمى " جيسيه " وعند " الديبل " دارت معركة عنيفة بين الجانبين استمرت طوال اليوم. وقد ربط القائد " بديل " خلالها عينـى فرسه لأنها كانت تهاب الفيلة ، وقاتل بشجاعة نادرة وصرع ثمـانين من أعدائه ولكنه استشهد آخر الأمر وخسر جيشـه المعركـة ووقـع بعضه فى الأسر وانضم إلى الموجودين فى سجن الديبل.

وصل الخبر للحجاج فاستشاط غضباً وآلمه للغايـة أن يلقـى خيرة جنده هذا المصير على أيدى هؤلاء المجوس ، فأقسم ليفتحن هذه

البلاد وينشر الإسلام فى ربوعها ، وقرر القيام بحملة منظمة ، يعد لها جيدا وتعمل على فتح بلاد السند وتنتقم من ذلك الملك العنيد ، وكان على والى العراق والمناطق الشرقية أن يبعث للخليفة الوليد بن عبدالملك ينهى إلى ما حدث ويستأذنه فى اعداد الجيوش وإرسالها لتعمل ضد من يقفون فى سبيل تبليغ كلمة الله لكل السكان فى بلاد السند.

اما الخليفة فقد تردد أول الأمر ، لأنه كان لايزال يتهيب تلك البلاد ، فهى مناطق واسعة بعيدة عن مقر الخلافة فى دمشق ، فالمسافة بينها وبين العاصمة الأموية تصل إلى ٢٥٠٠ كيلو متر ، كما أن طبيعتها صعبة وجغرافيتها غير واضحة لدى المسلمين ، ففتحها والحالة هكذا قد يكلف المسلمين الكثير من النفقات والأرواح ، ولكن الحجاج عاود الكرة موضحاً ماعنده من خطط عسكرية محكمة تضمن النصر بإذن الله ، وتعهد أن يرد إلى خزينة الدولة ضعف ما ينفقه على فتح بلاد السند مما يدل على ثقه فى الفتح وفى وفرة ما سيحصله من مغانم من ذلك الفتح ، وقد وافق الخليفة الوليد آخر الأمر ، فكانت حملة محمد بن القاسم الثقفى.

وعندما قام ابن القاسم هذا بحملته كان المسلمون قد نجحوا فى فتح بعض المناطق بجنوب أفغانستان الحالية ، ثم اتجهوا نحو كرمان ومكران ــ غرب اقليم بلوخستان الآن ــ وكذلك فتحوا سستان ، ثم

كانت حملة ابن القاسم الذى أتم الله على يديه نعمة اشـــراف الإســـلام بكل منطق السند ودخول أهله فى دين الله أفواجا ، فلنحاول منذ الآن متابعة أحداثها.

محمد بن القاسم
يفتح بلاد السند والبنجاب
زمن الوليد بن عبدالملك

●●●

محمد بن القاسم الثقفى فاتح بلاد السند

أحداث الفتح

•••

فى سنة ٩٢ هـ = ٧١٠م اختار الحجاج صهره وابن أخيه عماد الدين محمد بن القاسم الثقفى ــ الذى كان والياً على الرى ببلاد فارس ــ وعينه قائداً على الجيش الإسلامى الذى تقرر توجيهه لفتح بلاد السند ، وذلك لما تميز به من أخلاق عالية وشجاعة وفروسية نادرة وإقدام ، رغم عمره الذى لم يكن تجاوز السبعة عشر ربيعاً ، وأيضا لأن تلك كانت رغبته ، ذلك أنه قال للحجاج" " إنى لا أطلب منصباً ولا أطالبك برزق وإنما أطلب منك أن تعيننى على موته فى سبيل الله ، فأعننى على الموت يهب لك الله الحياة " لقد سئم الحروب الأهلية وأراد توجيه همته لمجاهدة أعداء الإسلام ونشر ذلك الدين الحنيف.

وعلى كل حال لقد كان على ذلك الشاب أن يتجه نحو بلاد الهندي الغربية عليه ، وأن يقاتل عدواً انتصر على قائدين مسلمين من قبل بسهولة ، وقد كان ابن القاسم أهلاً للثقة به لحكمته ورزانته ومواجهته العدو دون خشية أو وجل ، ولم يكن ماقاله المنجمون عن حسن طالعه وحظه وراء اختيار الحجاج له كما يذكر بعض الباحثين.

وقد زوده الوالى بكل ما يحتاج إليه من أسلحة ودخائر وأموال ولم يبخل عليه بأقل الأشياء حتى الخيوط والمسال كما عمد الحجاج إلى القطن المحلوج فنقع فى الخل الحاذق ثم خفف فى الظل وقال: " إذا صرتم إلى السند فإن الخل بها ضيق فانقعوا هذا الخل فى الماء ثم اطبخوا واصطبغوا..." وجعل تحت امره القائد عددا من خيرة الفرسان والمشاة بلغ ستة آلاف ما بين فارس وراجل وحرص على توديعهم بنفسه على رأس أفراد الشعب.

وقد وصل محمد بن القاسم إلى شيراز من الرى والتحق بالجيش هناك ومكث بهذه المدينة ستة أشهر يرتب جنده ويدرب رجاله ويتعرف على البلاد وينظم جيشه ثم رسم خطة الفتح التى اعتمدت على إرسال بعض المجانيق والأسحلة على ظهر بعض السفن ، وقد عين عليها اثنين من القادة وأمرهما أن يسبقاه إلى ميناء الديبل وأن ينتظراه هناك ، وكانت السفن العربية فى عهد الوليد قد أصبحت تتخذ دور المبادأة بالهجهوم، فالعرب قد استفادوا من حملاتهم السابقة ومن احتكاكاتهم ببحرية الهند، ولايبعد أن يكون قد اعدوا سفنا يمكنها مواجهة اساطيل السند والسيطرة على المحيط الهندى أما ابن القاسم نفسه فقد سلك طريق البر ماراً باقليم مكران معه خمسة عشر الفاً من أهل الشام والعراق ومن الفرس والعرب، بالإضافة إلى ثلاثة آلاف من الجمال يحمل على نصفها الزاد والمؤونة والسلاح، ويتقارب أفراد

الجملة ركوب ١٥٠٠ منها بحيث خصص جمل واحد لكل أربعة أفراد.

وقد وصلت القوات إلى اقليم مكران فى نفس عام ٩٢هـ=٧١٠م وبقيت هناك أياما للراحة والاستعداد لدخول بلاد السند ، وقد تم غحتياز الحدود من مكان اسمه الآن " داربيتجى " Darbiji دون أن يصادف المسلمون أثراً لقوات " داهر " أما الحجاج فكان على اتصال دائم بالجيش وقائده لاتغيب عنه توجيهاته ونصحه.

وقد حرص ابن القاسم على أن يستقر الوضع ويستتب النظام فى البلاد الوقاعة غربى نهر السند قبل أن يعمل على الوصول الى الضفة الشرقية لذلك النهر حيث تقع عاصمة " داهر " ملك السند.

وقد تحرك الجيش المسلم ونجح فى.فتح بعض البلاد مثل "فنزبور" و "أرمابيل" قبل أن يصل إلى "الديبل" فى محرم سنة ٩٣هـ١١٧م ، كذلك وصلت القوات البحرية التى اتخذت طريق "شيراز". وانضم إلى جيش المسلمين عند "الديبل" كثير من رجال الميد والجات (الزط) وهى من القبائل السندية التى تركت مواطنها الأصلية بسبب سوء معاملة البراهمة لهم ، إذ كانوا يعتبرونهم من المنبوذين ويحرمون عليهم امتطاء الدواب ولبس الملابس الغالية ، ولم يكن يسمح لهم إلا بالعمل فى المهن الحقيرة ، وقد أفاد المسلمين من شجاعة هؤلاء ومعرفتهم بمسالك السند وأحوال أهلها.

بعد ذلك تم تقسيم أفراد الجيش إلى مقدمة ومؤخرة وقلب ، وبقى القائد فى القلب ومعه كبار العسكريين ، وحاصر مدينة " الديبل" لمنع الزاد والمدد عن سكانها ، وحفرت الخنادق وركزت الرماح حول حصن الديبل حيث يوجد أسرى المسلمين كما نظمت دوريات المراقبة والاستكشاف ، وأحاط الجند الإسلامى بالحصن من كافة نواحيه ، ووصلت رسائل من الحجاج تستحث الجند وتعمل على رفع معنوياتهم ، وجهزت المنجنيقات ، بينها منجنيق كبير عرف باسم " العروس " كان يحتاج إلى خمسمائة رجل لتشغيله ، وقد أمر محمد بن القاسم قائد هذا المنجنيق واسمه " جعوبة المسلمى" فصوب قذائفه نحو العلم المتدلى من أعلى قمة لمعبد بوذى كبير وكان ذلك عملاً بنصيحة بعض البراهمة ، فقد أخبره أحد هؤلاء أن أهل وسكان هذه المنطقة يعتقدون بأنه لن يتمكن أحد من فتح هذه البلاد مادام هذا العلم مرفوعاً " فهناك بد (صنم) عظيم ، عليه دقل دويل ، وعلى الدقل راية حمراء ، إذا هبت الريح اطافت بالمدينة وكانت تدور ".

وقد استغل المسلمون هذا الإيمان بتلك العقيدة بهدف التأثير على نفسية سكان البلاد وتحطيم معنوياتهم ، وهذا ما حدث بالفعل فقد أيقن أهل البلاد بالهزيمة وملأ الرعب قلوبهم عندما رأوا علمهم يهوى أمام أنظارهم ، عندئذ تمكن المسلمون من دخول المعبد وأخرجوا ٧٠٠ فتاة كن يعملن فى خدمة الأصنام ، ثم بدأوا هجوماً شاملاً على كافة جوانب الحصن فى وقت واحد ، ووضعوا سلالم تسلقوا عليها

إلى داخل الحصن ، ونجحوا فى فتح أبوابه وقتلوا من كان بداخلــه ، إلا من ثبت حسن معاملته لأسرى المسلمين ، ذلك أن من كان بالداخل كان مسلحاً ، ولأنهم كانوا مصرين على الحرب ، ثم لأنهم هم الــذين آذوا المسلمين والمسلمات اثناء أسرهم فى الحصن ، أضف لهــذا أن الحجاج أراد أن يكونوا عبرة لغيرهم ، أما حاكم " الديبل " فقد أمكنـــه القفز من فوق الحصن وهرب ليلاً ثم توجه نحو عاصمة " داهر " ملك السند.

بعد ذلك جاء رجل من البراهمة وأرشد محمد بن القاسم إلـــى موضع السجن الذى فيه أسرى المسلمين داخل الحصن فتوجه إلـــيهم وأطلق سراحهم.

وهكذا برهن تطور الحوادث على وجود المسلمين فى الســـجن الرسمى لملك السند وبداخل الحصن ، مما يؤكد أنه كان وراء القبض عليهم وأنه هو الذى دبر للاستيلاء على سفنهم وممتلكاتهم ، وأنه كان يكذب عندما زعم من قبل عندما اتصل به الحجاج أنه لاصلة له بهــذه العملية ، وأن ماجرى لهؤلاء إنما هو من فعل القراصنة واللصـــوص دون أن يكون له دخل فيه.

ولما تم لابن القاسم فتح الديبل ، مكث بها فترة ونظم أمورهـــا ووزع المغانم على مستحقيها وأرسل بالخمس إلى دار الخلافة ، ثـــم عين حاكماً للمدينة وترك لها مايلزمها من حماية عسكرية تمثلت فـــى أربعة الاف جندى. وقد اختار لهم مكاناً أسكنهم فيه وأسس لهم مسجداً

جامعاً ، وهذا هو شأن المسلمين عندما ييسر الله لهم فتح بلدٍ ما ، وقد انتهى ابن القاسم من ذلك كله فى رجب ٩٣هـ = ٧١١م. وفى نفس العام أتاه كتاب الحجاج يقول: أنت أمير ما افتتحت.

أما "داهر" فقد أغضبته نتيجة القتال وأرسل لابن القاسم رسالة تفيض تهديداً ووعيداً قال فيها: إن ما حدث فى " الديبل " ليس نجاحاً كبيراً ، فهذه المدينة لايقطنها رجال مستقرون ، ومن فيها ليسوا إلا تجاراً لايعرفون شيئاً عن أصول وفن الحرب ، ولايجدى إنتصارك على هؤلاء لقد سبقك جيشان إلى بلادى السند وقتل القائد فى كل منهما ، وإذا لم تنسحب من بلادنا فستلقى نفس المصير ، فلا تغتر بما رأيت فى " الديبل " فالشعب القوى يعمر أماكن أخرى فى السند ، إننا أمة شجاعة ورجالنا يحاربون إلى آخر رمق ولا يستسلمون أبداً ، وقد رد عليه ابن القاسم برسالة جاء فيها:

" إنك تفخر علينا بخيلك وفرسانك وجندك وما عندك من أسلحة ومعدات ، ولكننا نثق فى الله وفى دفاعه عنا وهو ـ سبحانه ـ قد ضمن لنا النصر والكرامة ، لقد ساعدت الإيرانيين ضدنا وكنت سبب ثورات قامت تعادينا فى بلوخستان ومكران بل أرسلت جندك هناك ، فعلت ذلك دون أن نسئ إليك بشئ ثم استولى اتباعك على سفننا وأسروا أطفالنا ونساءنا وقد وجدناهم فى سجنك ، مما يعنى أنك وراء القراصنة واللصوص ، فلماذا ذلك كله؟ وقد عرفه خليفة المسلمين كل ذلك وأمر بمعاقبتك وسنقاتلك حتى تفنى أرواحنا ".

ولم يؤثر هذا التهديد على محمد بن القاسم ، ومضـــى القائـــد الشاب يحمل الدعوة الإسلامية ويعمل على تبليغها للنـــاس ونشـــرها وأمكنه فتح العديد من المدن والانتصار على المحاربين المعاندين.

فتوجه نحو مدينة النيرون ــ قرب حيدر أباد السـند الحاليـة على مسافة ٧٥٠ ميلاً من مكران وتسمى أيضاً " نيرانكوت " ــ ونزل فى ضاحية من ضواحيها فى جمع من قادته ورجاله ، وكان الـوالى البوذى على تلك المدينة غائباً ، وما لبث أن عاد وبعث برسالة خاصة لابن القاسم تتضمن اتفاقاً سرياً جرى بينه وبين الحجـاج منـذ عـام يتضمن رضاه بحكم المسلمين ، وقد فتح أبواب المدينة أمـام القائـد المسلم وجاء اليه يحمل هداياه فخلع عليه ابن القاسم وأكرمه ، وبـذلك سلمت هذه البلدة دون إراقة نقطة دم واحدة.

وبعد استسلام النيرون كتب الحجاج لابن القاسم يقول:

" لقد استسلمت النيرون وعليك أن تعامل أهلهـا بالشـفقة وأن تستولى على قلوبهم ، وإذا استسلم من رفع السلاح عليك فـلا تـؤذه ولتعفو ولتصفح ولتحفظ عهدك حتى يثق فيك الناس ، وإذا رجعت مرة فى عهدك فإن ذلك يفقدك تقدير الناس ولن يأمنوا لك وأوصـاه فـى مناسبة أخرى فقال:

" إذا أردت أن تحتفظ بالبلاد فكن رحيماً بالناس ولتكن سـخياً فى معاملة من أحسنوا إليك ، وحاول أن تفهم عدوك ، وكن شفوقاً مع

من يعارضك ، وأفضل ما أوصيك به أن يعرف الناس شجاعتك وانك لاتخاف الحرب والقتال ".

وعجيب أن تصدر هذه الوصايا من الحجاج الذى اشتهر بالشدة والقسوة والعنف فى تعامله مع خصومه.

ومهما يكن من أمر فقد توجه ابن القاسم بعد فتح (النيرون) ناحية سيوستان (سيهوان وسيبى الآن) على بعد ١٣٠ كيلو متراً إلى الجنوب الغربى ــ ونزل المسلمون فى موضع يقال له " موج " أو "ماوج" ، وكان حاكم تلك المنطقة برهمياً ، فاجتمع به رعاياه من البوذيين وأخبروه أنهم مسالمون لايرغبون فى سفك الدماء وأنهم يثقون فى مسالمة المسلمين لمن سالمهم ، ولكن الحاكم رفض وجهة نظرهم ، فاضطر الجيش المسلم لمحاصرة المدينة ورميها بالمنجنيقات ، وضيق عليها الخناق مدة أسبوع كامل حتى يئس حماتها وتوقفوا عن القتال ، وفر حاكمها تحت جنح الظلام إلى منطقة " البودهية " ، عندئذ دخلها محمد بن القاسم واستولى عليها وغنم منها ، وأمن البوذيين ، لأنهم قبلوا الدخول فى طاعته سلفاً ولم يستول على ممتلكاتهم كما فعل مع البراهمة.

ومن أقليم " سيوستان " هذا أهل " جنة " وهم جماعة كبيرة من البوذيين أسلموا جميعاً زمن فتح السند على يدى محمد بن القاسم.

بعد ذلك توجه محمد بن القاسم نحو منطقة " البؤدهية " (البدهة) ونزل على شاطئ نهر يعرف بنهر كنبئ فى نفس المنطقة ،

وقد قُرر حاكم الإقليم ــ بعد تشاور مع رجاله وقواده ــ القيام بغارة ليلية على معسكر المسلمين ، ولكن الجيش ضل طريقه فى الصحراء ، واد يخبر حاكمه ، فتوجه ذلك الحاكم نحو محمد بن القاسم وأعلن استسلامه ، وعاونه بنفسه فى القضاء على المتمردين حيث دخل المسلمون العاصمة الاقليمية " سيسم " وقضوا على فلول المعاندين.

وكالعادة اهتم محمد بن القاسم بتنظيم الأمور فى منطقة البودهية وعين خراجها ، وساعد المسلمين على الاستيطان فيها وبنى بعض المساجد ، وعين عليها حكاماً ونصحهم بالاهتمام بالبلاد والحرص على راحة الشعب ورخائه.

من هذا العرض يبدو أن المحاربين ــ حتى الآن ــ كانوا من الهنادكة أو الهندوس أما طبقة التجار والحرفيين وغيرهم من المسالمين فكانوا بوذيين " وهناك من الشواهد ما يدل على مساندة البوذيين للمسلمين ، فراهب منهم هو الذى قدم لابن القاسم وأخبره بضرورة اسقاط العلم من أعلى المعبد لتسقط " الديبل " وواحد آخر منهم كان واسطة بين القائد المسلم وبين الأسرى من المسلمين ، ومدينة " النيرون " كانت تحت حكم حاكم بوذى له مراسلات مع المسلمين قبل أن تطأ قدم محمد بن القاسم أرض السند وقد توقف القتال لمجرد وصول الحاكم وعودته من سفره وأعتذر للمسلمين وسلمهم المدينة. كذلك نصح البوذيون حاكم " سيوستان " بعدم محاربة

المسلمين الذى لايخلفون وعدهم ، وعندما رفض ، أعلنوا بصـــراحه أنهم لن يقاتلوا معه ، ونفس الشئ حدث فى " كاكا " و " كوتاك " حيث لم يكتف الحاكم بعدم حرب المسلمين بل ذهب إلى معسكرهم وقدم لهم معلومات مفيدة ، وسنعرف أيضاً فيما بعد أن قادة البوذنيين هم الــذين أمدوا ابن القاسم بسفن يعبر بها إلى الضفة الشــرقية لنهــر الســند ، وهكذا تدل الشواهد على معاونة البوذنيين للمسلمين ومســاعدتهم لهــم على فتح السند ، بل أن المسلمين منحوهم ثقة لم يحــظ بهـــا بعــض مواطنيهم ، وهذا يسر مهمة الفاتحين.

وفى هذه الآونة تلقى ابن القاسم رسالة من الحجــاج تشــجعه وتشد أزره وتعطيه توجيهاً ببذل وعوده للزعماء فى مختلف الولايات حتى ينال مساعدتهم ، وأوضح له وســائل التوصــل إلـــى الســلطة وتتلخص فى أربع هى: المدارة وبذل المال والــرأى الصــائب فـــى محاربة الأعداء بعد دراسة أمزجتهم ومعرفة نــواحى قصـــورهم ثـــم ادخال الرعب والهيبة مع القوة والشهامه ، ثم طلب منه أن يعبر نهــر السند إلى ضفته الشرقية كى يدخل الفزع إلى قلــب العــدو ، أخيــراً أوضح له الحجاج أسلوب معاملة الرعية وفقاً للخيار الذى تميل إليـــه من اعتناق للإسلام أو قبول الطاعة للمسلمين ودفع الجزية أو التصميم على الحرب والقتال.

وقد اضطر ابن القاسم أن يعـــود إلـــى مدينــة " اشـــبهار " ـــ بالقرب من مدينة " نيرون " بناء على أوامر الحجاج ـــ وتمكن من

الإجهاز على حركة مناوئة قام بها بعض البوذيين وبعض رجال القبائل هناك ، ثم عاد يتقدم نحو نهر السند وقضى فى طريقه على كل مقاومة وظل يواصل مسيرته حتى وصل إلى الضفة الغربية لنهر السند ، فى موضع مقابل لجيور (جيبور) ولمدينة " راور " اللتين تقعان على الضفة الشرقية لنفس النهر.

وقد أرسل حاكم منطقة " بت " البوذى ، رسالة إلى القائد المسلم يعلن فيها ولاءه واستعداده للتعاون مع المسلمين ، على أن يتم ذلك بطريقة ترفع عنه الحرج أما الملك " داهر " الذى تربطه به صلة قرابة ، وقد تم بالفعل ترتيب طريقة سلم بها نفسه وجنده لابن القاسم ، وقد أكرمه الأخير ورحب به وجعله حاكماً على منطقة " بت " كما أهدى لمعاونيه من التكاكرة ثم طلب منه تجهيز السفن والمراكب اللازمة لعبور الجيش الإسلامى الى الضفة الشرقية لنهر السند.

وهكذا بدأ الناس يتعرفون على الإسلام ويدخلون فى دين الله أفواجاً ، ونجح ابن القاسم فى مسيرته المظفرة حتى أضحى على شاطئ نهر السند الذى تقع عاصمة " داهر " على ضفته الشرقية.

فى هذه المرحلة بعث ابن القاسم رسولاً إلى ملك السند كما فعل السابقون ممن فتحوا مناطق أخرى من العالم ، وقد عرض الرسول على " داهر " الإسلام أو تسليم البلاد صلحاً والرضى بحكم المسلمين ، فإن أبى فليس أمام المسلمين إلا قتاله حتى يحكم الله بينهم وبينه ، وهو خير الحاكمين ، وقد طلب الرسول من ملك السند — فى

حالة اصراره على الاختيار الأخير ــ أن يختار عبور النهر إلى حيث يوجد المسلمون على الضفة الغربية لنهر السند ، أو يسمح لهم بالعبور إلى الضفة الشرقية ، ليتيسر التقاء الفريقين فى ساحة القتال.

وقد عرض الملك الأمر على مستشاريه ، فنصحه وزيره بأن يترك المسلمين يعبرون إليه فى ناحيته الشرقية ، بذلك يكون النهر من خلفهم ، وجند السند أمامهم ، وتنقطع عنهم المؤن والامدادات العسكرية فيسهل القضاء عليهم.

ولكن محمد العلافى ــ أحد المتمردين على الدولة الأموية والذى يحظى بتأييد وحماية ومعاضدة " داهر " ــ رفض فكرة الوزير ورأى العكس يعنى أن المصلحة أن يجتاز جند البراهمة النهر إلى حيث يوجد المسلمون على الضفة الغربية ، وحجته أن المسلمين يجاهدون فى سبيل الله ، ويبحثون عن الشهادة طلباً للجنة ولن يرضيهم إلا الموت لرفع كلمة الله أو تحقيق الانتصار ، فهم صابرون فى القتال يستميتون فى جهادهم بروح عالية ، خاصة إذا رأوا أنفسهم قاب قوسين أو أدنى من العاصمة السندية ، وأضاف " العلافى " فى نصيحته للملك أنه ينبغى ارسال القراصنة واللصوص ليقوموا بالاستيلاء على المؤن والمواشى والعلف والقوت من خلف الجيش الإسلامى ، وبذلك يتعرض للجوع وتفتك به الأمراض ويتيسر القضاء عليه.

وقد احتار الملك ولم يعرف أى الرأيين يختار ، وأخيراً قـــرر ترك الأمر لمحمد ابن القاسم وفوض إليه اختيار ما يشاء ، فقرر القائد المسلم العبور الى الضفة الشرقية ، وبدأ يتصل بالمسلمين الجدد مـــن أهل البلاد ، ويطلب منهم التوجيه والنصح وإرشاده إلى أنسب مكـــان يتيسر عليه اجتياز النهر منه ، وفى نفس الوقت طلب الحجاج امـــداده بخريطة مفصلة للمنطقة بهدف دراستها وإبداء الـــرأى ، ثـــم اســـتقر الجميع بعد المشاورات على اختيار نقطة بعينها للعبور منها.

أما " داهر " فقد بنى خطته العسكرية على أســـاس الاحتفـــاظ بالقسم الأكبر من جيشه عند مدينة " راور " بالشاطئ الشـــرقى ، وأن تبقى السفن بالناحية الشرقية أيضاً فى مقابل " بـــت " علـــى الضـــفة الغربية حتى لايتمكن المسلمون من العبور من هذه المنطقـــة الســـهلة وحتى يجبروا على اجتياز النهر من مكان صعب ، ثـــم أمـــر أحـــد وزرائه أن يكون جيشاً وأن يقف على أهبة الاستعداد للهجـــوم علـــى المسلمين فور وصولهم الى الضفة الشرقية ، وكان فى الامكان جمـــع ٥٠ الف فارس وعدد ضخم من الفيلة ونقل امتعه ورجـــال ومعـــدات ضخمة من " برهمان اباد " إلى " روار ".

وبرغم كل الدراسات التى اسهمت فيها كل الأطـــراف ، فـــإن اجتياز نهر السند الى ناحيته الشرقية لم يكن أمراً سهلاً ، فقـــد واجـــه الجيش المسلم صعوبات عديدة ولكنه تمكن من تجاوزها.

فقد اضطر محمد بن القاسم أن يرجع مرة أخرى إلى "سيوسان" للقضاء على حركة تمرد معاوية ، لأنه لم يكن يرغب في اجتياز النهر وهو مشغول بأمر من خلفه ، فلابد من التأكد من فتح الطريق ووصول الامدادات والمؤمن اللازمة لأفراد الجيش ، وقد تحرك القائد المسلم الى منطقة " جهم " وتعطل بها قرابة شهرين بسبب هذه الاضطرابات وبسبب مرض أصاب الخيل ، وبسبب عجز في المواد الغذائية والمواشي والعلف. كذلك لم تكن حالة المناخ والرياح مناسبة ، الشئ الذى أثر على الحالة الصحية والمعنوية للجنود.

وقد انتهز " داهر " سوء الأحوال وأرسل يهدد " ابن القاسم " ويعرض عليه المساعدة الغذائية على أن ينسحب إلى الخلف ، ولكن ابن القاسم أكد لعدوه أنه لن يترك أرض السند قبل إرسال رأس " داهر " للحجاج.

أما والى العراق فقد سمع بما آل إليه حال الجيش المسلم ، فبادر بإرسال ألفين من الخيول العربية الأصيلة مع بعض المواد الغذائية والخل المجفف ، كذلك بعث بمرسوم عين بمقتضاه محمد بن القاسم نائباً عن الحجاج فى بلاد السند ، وفوض إليه التصرف في شئونها ، كما شجعه على عبور نهر السند إلى ضفته الشرقية مهما كانت التكاليف ، ونصحه أن يكون عبوره من منطقة " بت " حيث يقل الماء ويقل عرض النهر ، وأشار عليه ببناء كوبرى من القبوارب تيسيراً لعملية العبور.

وبالفعل وصل محمد بن القاسم إلى " ساكرة " فى منطقة جهـم (جيم) وبدأ فى تجهيز المراكب اللازمة للعبور ، وتزويـد الجـيش بالمواد الغذائية والأسلحة ، وأرسل بالوحدات الاستطلاعية إلى جهات متعددة من النهر ، كما بعث بفرق عسكرية إلى نواح مختلفة بهـدف العمل على منع وصول الإمدادات إلى جنـد " داهـر " مـع إعاقـة تحركاتها وقت عبور الجيش المسلم وحصرها فـى بقـاع معينـة ، والتعامل معها إذا لزم الأمر ، كما أمر بتوفير المزيـد مـن الغـذاء والعلف للقوات وأصبح بهذا كله مستعداً لاجتياز نهر السند إلى ضفته الشرقية.

أما " داهر " فقد تجاهل تحركات القائد المسلم واشتغل بالصيد ولعب الشطرنج استهانة بالمسلمين واطمئناناً لمـا أعـد مـن خطـط عسكرية.

وقد أمر محمد بن القاسم بأن يتقدم محمد بن مصـعب الثقفـى على رأس وحدة صغيرة لمراقبة الطريق ، تتلوه فرقة من ألف فارس يقودها " بنان بن حنظلة " لحماية المقدمة ، ثم سار هو نفسـه علـى رأس القواد المسلمين وكبار التكاكرة والزط مع الجيش الرئيسى حتى وصلوا إلى شاطئ النهر ، وهناك اختار موضعاً قليل العـرض ، ثـم أحضرت المراكب المحملة بالرمال والحجارة وألواح الخشب ، وأمـر القائد بتسمير الألواح على المراكب فى صورة جسر يمكـن العبـور عليه للجهة الأخرى. كما أمر الوحدات البحرية الانتحارية أن تتوجـه

بسفنها نحو الشاطئ الشرقى من مناطق متعددة لتحول بين قوات البحرية السندية وبين التقدم ولتحمى الجيش المسلم فى وسط النهر أثناء العبور. أما بقية الجيش الإسلامى فقد تلقى أمراً بصف المراكب على طول الشاطئ الغربى وربط بعضها ببعض على امتداد النهر وأن يحمل الجنود عليها ، أخيراً أمر محمد بن القاسم بفك رأس المركب الأول حتى يسير فى النهر متجهاً نحو الضفة الشرقية ، يتلوه الثانى ، وهكذا.

وبذلك نجح المسلمون فى بناء جسر من المراكب عبروا عليه فى شجاعة وحذر وبدون خسارة كما يذكر " ما جمدار الهندى ".

وقد اندفع المسلمون فى إصرار واستبسال داخل مناطق الناحية الشرقية للنهر ، وفاجأوا العدو بسهامهم ودخلوا معه فى قتال مرير انتصروا فيه فاندهش جند " داهر " لما حدث وأخذوا يولون الأدبار ويهربون فى عماية الظلام حتى وصلوا إلى ملكهم فى مقر حكمه وأخبروه بما حدث ، فانزعج وكاد يفقد وعيه ، بينما تمكن جيش المسلمين من إلحاق هزيمة مريرة بوحدات عسكرية قادها " محمد العلافى " المتمرد على سلطان الحكومة المركزية فى دمشق ، وأخرى قادها واحد من وزراء ملك السند ، وواصل مسيرته نحو العاصمة ، حيث استعد الملك " داهر " بأقصى ما يستطيع موقناً أنه يلقى المسلمين فى معركة مصيرية نتيجتها الموت أو البقاء ، ولذلك بذل كل جهد وسعه ، وحشد لها كل الامكانيات ، ووفر لها جميع ما يحتاج إليه ،

وخطط لها أعظم التخطيط وأعد أفضل الجند وأحسن السلاح ، ثم رأى أنه من الضرورى أن يتولى القيادة بنفسه ، هذا ما يمليه عليه الموقف شاء أم أبى ، بعد هزيمة " العلافى " وهزيمة الأمير " جيسيه " وعدم تمكنهما من الصمود أمام المسلمين.

أما ابن القاسم فقد استعد بأقصى طاقاته هو الآخر ، واستسلم له بعض الأمراء وعاهدوه على الولاء ، ثم توجه بكل قادته ورجاله إلى موضع يدعى " نارائى " بينما عسكر " داهر " فى مكان يقال له "قاجيجاق" وكانت هناك بحيرة تفصل بين الفريقين ، وقد واصل ابن القاسم تقدمه قليلاً نحو نهر " دهواة " فى منطقة " جيبور " حيث تقع قرى كثيرة تيسير عليه عملية الهجوم على جيش " داهر " من الأمام ومن الخلف ، وكان ذلك بناء على نصيحة أحد أمراء السند الذين أعلنوا ولاءهم للمسلمين ، ولما علم " داهر " بموضع الجيش الإسلامى الجديد ترك قلعة " راور " وتقدم نحو " جيبور " كذلك تقدم ابن القاسم واقترب الجمعان وأصبح الفاصل بينهما نصف فرسخ فقط.

وعلى امتداد سبعة أيام كانت تخرج فرقة مسلمة لمحاربة فرقة سندية فى الساحة الواسعة بين الجيشين ، وكان القتال يستمر أحياناً طوال اليوم ، والمحصلة النهائية كانت فى صالح المسلمين ومن هنا قرر ملك السند القيام بهجوم شامل ضد المسلمين وأن يتولى القيادة بنفسه ، فأعد خمسة الاف فارس من أبناء الأمراء ومائة فيل حربى وعشرة الاف فارس مزودين بالأسحلة وعشرات الآلاف من أبناء

القبائل ، ثم اختار فيلاً ضخماً ركبه ولبس درعه وأخذ سلاحه وقوسه وصحب غلامين يمدانه بالسهام ، وقرر دخول المعركة الفاصلة ، فكان هذا أول لقاء شامل بين العرب وبين مقاتلة الهندوس الذين تمرسوا على استخدام الفيلة والرمى بالنبال واستخدام النفط.

وفى التاسع من رمضان سنة ٩٣هـ=٧١١م بدأ القتال الشامل بين الطائفتين بعد أن نظم كل منهما قواته ووزع قياداته ورتب خططه وكان " العلوفى " يعمل مع ملك السند ويقاتل المسلمين وقد استمرت المعركة طول اليوم.

ومن الطبيعي فى معركة مصيرية كهذه أن يبذل الفريقان كل طاقاتهما ، ولهذا كانت نتيجة القتال فى هذا اليوم الأول سجالاً ، مرة يحمل المسلمون على العدو ويتقدمون ، ومرة أخرى يستخدم العدو فيلته فترد المسلمين إلى الوراء ، وجاءت معاناة المسلمين من الفيلة فى هذا اليوم الأول ، وفى اليوم التالى لمس المسلمون نقاط ضعف عدوهم وأدركوا من أين يأتونهم ، فأعادوا تنظيم جنودهم ، واستخدموا المنجنيقات والرماة ، وعملوا للقضاء على الفيلة وتشتيت مجموعات العدو بالنيران ، وألقى القائد فيهم كلمة ترفع من معنوياتهم وتحثهم على التزام المراكز وذكر الله دائماً ، وأن يحرصوا على أن تكون أعمالهم جهاداً فى سبيل الله ، فاستبسل المسلمون فى قتال العدو الذى كان قد غير خططه وتنظيماته ، كما كانت تعاونه آلاف من قبائل الزط الشرقية وغيرهم حتى بلغت عدة من معه ١٢٠ ألفاً ، ومع ذلك

نجح المسلمون فى دحر بعض فرقة فالتهب القتال وحمى وطيس المعركة ، وتداخلت القوات ، وانزعجت الفيلة وصمم المسلمون على نيل إحدى الحسنيين إما النصر وإما الشهادة ، والوصول إلى رضوان الله والجنة.

وأثناء اشتعال المعركة تقدمت مجموعة من قادة السند نحو محمد بن القاسم وطلبوا الأمان ، فمنحهم الأمان ، وأعلنوا إسلامهم بين يديه ، وعرضوا خطة عسكرية تنهى المعركة وتبرهن على ولائهم وصدق إيمانهم ، وتقوم على هجوم مباغت على مؤخرة الجيش السندى ، وبالفعل توالوا الهجوم من الخلف ، بينما قام ابن القاسم بالهجوم من الأمام ، وكان " داهر " يركب فيلاً ضخماً يقود بقية الفيلة ، وقد أقسم واحد من قادة المسلمين اسمه " الشجاع الحبشى " ألا يذوق الطعام حتى يقتله ، وربط عينى فرسه وبرَ بقسمه فتقدم حتى تمكن من جرح فيل القائد الضخم الذى كانت تتحرك بحركته كل الفيلة ، ولما هاج الفيل القائد أخذت باقى الأفيال تترنح وتصيح ، واختل توازن الجيش وازداد لهيب المعركة اشتعالاً ، ومالت الكفة فى أول الأمر لصالح جيش السند وأصيب الشجاع بسهم ، ولقى الله شهيداً ، وتأثر ابن القاسم نفسه من هول المعركة وطلب شربة ماء ، وما لبث المسلمون أن ثبتوا من جديد بعد أن سمعوا نداءات القائد وصيحته على جنده بالثبات ، وعلا التكبير الله أكبر الله أكبر يملأ الآفاق فهاجت الفيلة وسالت الدماء هنا وهناك وتكسرت الرماح

والسيوف من شدة الضربات ، وعادت الكفة تميل لصالح المسلمين ، واضطربت أحوال جيش السند ، ولم يصدق ملكهم ماتراه عينه ، حيث لم يبق معه إلا ألف فارس من أبناء القواد والأمراء من بين خمسة آلاف كانوا معه ، وقد واصل المسلمون قتالهم بصورة مستميته.

ولما آذنت شمس ذلك اليوم بالغروب أمر محمد بن القاسم قائد رماة النفط بأن يقذف هودج فيل داهر بسهام مزودة بمادة كيماوية مغموسة فى قطن تم لفه حول رءووس السهام ، وكانت هذه المادة تشتعل عند رمى السهم ، فاشتعلت النيران فى الهودج وشعر الفيل بعطش شديد من شدة الحرارة ، واضطر ملك السند أن يتجه به ناحية النهر ليسقيه ، وهناك طارده المسلمون وأمطروه بوابل من سهامهم واشتبكوا معه فى قتال شديد ، واضطر " داهر " أن ينزل من على فيله وأن يقاتل بضراوة إلى أن تمكن جندى مسلم اسمة " عمرو بن خالد الكلابى " من ضرب عنقه ، وقال فى ذلك شعراً:

الخيل تشهد يوم داهر والقنا	ومحمد بن القاسم بن محمد
انى فرجت الجمع غير مصرد	حتى علوت عظيمهم بمهند
فتركته تحت العجاج مجدلاً	متعفر الخدين غير موسد

وفى رواية الكلبى أنه قاتل ملك السند هو " القاسم بن ثعلبة بن عبدالله بن حصن الكائى ".

وعلى كل حال فقد أخفى أصحابه جثمانه فى خليج " راود " وتوقف القتال بحلول الظلام.

وفى اليوم التالى نادى ابن القاسم معلماً أصحابه بغياب " داهر " ومحذراً من حيلة أو من كمين قد يكون هناك ، ولكن واحداً من البراهمة أعلم المسلمين بمقتل " داهر " وأرشدهم إلى المكان الذى توجد فيه جثته فقطعوا رأسه وبعثوا به لابن القاسم الذى صلى شكراً لله عز وجل.

وقد أستولى المسلمون على كثير من المغانم والكنوز والأموال وعلى عدد من الاميرات وأرسل الجميع إلى دار الخلافة.

وبذلك أصبح الطريق ممهداً لفتح باقى البلاد.

وكان ولى عهد السند قد بقى متحصناً فى قلعة " راود " على رأس من بقى من الأمراء والقادة بعد سقوط العاصمة ، ثم أخذ برأى نصحه بمغادرة القلعة إلى مدينة " برهمان أباد " فهى مدينة حصينة وأهلها من المؤيدين له ، وبذلك لم يبقى فى قلعة " راور " إلا النساء وعدد من القادة والجند للدفاع عنها.

وفى رمضان سنة ٩٣ هـ = ٧١١ م توجه المسلمون لفتح القلعة وقذفوها بحجارة المنجنيقات بعد أن رفض من فيها الاستسلام ، كما رموها بالسهام والرماح والنيران ليلاً ونهاراً حتى تهدمت أبراجها واضطر بعض من فيها إلى حرق أنفسهم ، ودخلها ابن القاسم ليجد فيها ستة آلاف مسلحين ، فأمر بقتلهم لرفضهم الاستسلام ، أما النساء والشيوخ والأطفال فقد أصبحوا أسرى ، كما استولى المسلمون على مغانم كثيرة.

بعد ذلك كتب ابن القاسم إلى الحجاج ينهى إليه مقتل " داهر " ويشرح تفاصيل ما دار من قتال ، كما بعث إليه بوفد من القادة. ممن شهدوا المعركة وعاينوا أحداثها ، وكان مع هذا الوفد رساله توضح دور كل واحد من القادة وتشرح بطولاته ، وكان مع الوفد الأسرى والأموال تحميه مائتى فارس مسلح ، وسار الجميع من مكان المعركة إلى دمشق ، حيث قدم قاتل الملك " داهر " رأسه إلى الحجاج والى العراق والإمارات الشرقية.

وقد أثنى الحجاج على محمد بن القاسم وأشاد ببطولاته فى رسالة أرسلها إليه وطلب منه تكريم زعماء القبائل والقادة الذين أبلوا بلاءاً حسناً فى القتال ولم يضمنهم رسالته التى سبق وبعث بها إليه.

ويذكر " البلازى " عن منصور بن حاتم النحوى ـ الذى أقام بالسند بعد فتحها ـ أنه شاهد مصوراً ـ تمثالين ـ أحدهما للداهر والآخر لقاتله فى مدينة بروص (بهروج) ، كما شاهد مصوراً (تمثالاً) للقائد بديل بن طهفة فى مدينة " قند " وأنه زار قبره فى مدينة " الديبل " حيث أستشهد.

ويرجع نجاح المسلمين فى فتح تلك البلاد الواسعة إلى إيمانهم واطمئنانهم إلى ما أعد للمجاهدين عند ربهم وإلى نوعية القوات وكفاءة القيادة العسكرية والتفوق فى فن التكنيك العسكرى ، ثم إلى سياسة المصالحة التى تبناها محمد ابن القاسم إزاء كل من استسلم ، فكان الفتح الإسلامى حريصاً على رغبات السكان المشروعة أكثر منه

معارك عسكرية ، لقد رحب رجال الدين البـوذيين بالمسـلمين فـى "نيرون" وثار شعب " سيهوان " على حاكمـه الهنـدى وسـلم للقائـد المسـلم ، وهكذا ساعدت كراهيـة الشـعب لحكامـه علـى نجـاح المسـلمين ، فقطاع كبير من سكان السند والملتان كان بوذيا.

وفى سنة ٦٢٢ م كان قد اغتصب العرش وزير رهمى اسـمه شاش chach ولم تلق حركته استجابة لأى طائفة كبيرة من الشعب ، خاصة وأن هذا الملك عامل قبائل الزط والميد معاملة سيئة ، وحـرم عليهم حمل السلاح ولبس الحرير وركوب الخيل وفـرض علـيهم أن يمشوا حفاة وأن يرافقهم كلب ، وجاء من بعده ابنه داهر ٤٩ ـ ٩٤ / ٦٦٩ـ٧١٢هـ الذى لم يصل للحكم إلا قبل الفتح الإسـلامى بفتـرة وجيزة ـ واتبع نفس السياسـة ، فأصبحـت سيطرتـه على السـند ـ ومعظم سكانه من البوذيين ـ واهية ، ولم يلق استجابة من جانـب قطاعات كبيرة فى الشعب ، بل إن كثيراً من الضباط والجنود تحولوا بسرعة إلى المسلمين أثناء حربهم ضد هذا الملك كما كان دعم وتأييد قبائل الزط والميد من أكبر اسباب إنتصارات المسلمين ، وقد أخذ ابن القاسم فى تجنيدهم تحت قيادته.واعتمد عليهم فى التخفيف من شـعور العداء للمسلمين عند بعض الطوائف باعتبارهم عدواً أجنبيـاً ، وبهـم وصل إلى الانسجام الداخلى وحقق تقدماً لايقدر فى بلد شاسع يقطعـه العديد من الأنهار والقنوات والمستنقعات.

مواصلة الفتوحات:

علم الخليفة الأموى الوليد بن عبدالملك بتفصيلات معارك المسلمين فى بلاد السند ونجاحهم فى إزاحة عقبة كبرى كانت تقف حجراً عثرة تعوقهم عن أداء واجبهم فى تبليغ كلمة الله وتوصيلها لكل الشعوب ، فسر الخليفة بما تحقق من نتائج وخلع على ابن القاسم وعلى القادة وأمره أن يواصل فتوحاته فى باقى بلاد السند.

استجاب القائد لأمر الخليفة وأخذ يواصل فتوحاته فى بلاد السند فتسقط بين يديه المدن واحدة تلو الأخرى فقد توجه إلى مدينة "بهرور" على بعد فرسخ من " برهمان آباد " وكان يتحصن بها ــ كما قدمنا ــ نحو ١٥ ألف جندى ، وقد قام المسلمون بقذف المدينة بالأحجار والنيران حتى تهدمت أسوارها وقتل عدد كبير ممن فيها واستولت عليها القوات الإسلامية وعلى ما كان بها من أموال وسلاح.

بعد ذلك توجه ابن القاسم نحو مدينة صغيرة بجوار بهرور تسمى " دهليله " ، وكان يتحصن بها حوالى ١٦ ألفاً من الجنود ، فحاربها الجيش المسلم وضيق الخناق عليها حتى اضطر حاكمها ومعظم سكانها وتجارها إلى مغادرتها ليلاً فى اتجاه الهند فاستولى عليها المسلمون فى الصباح ، وعين ابن القاسم عليها والياً جعله مشرفاً على موانى سواحل تلك المنطقة من الضفة الشرقية لنهر السند.

بعد ذلك عمل القائد المسلم على فتح مدينة " برهمأن أباد " لكنه قبل ذلك اراد أن يوجه نداء عاما مصدره إلى ربه ــ عز وجل ــ

عل الناس يتقون ، فبعث برسائل إلى كل الحكام والأمراء فـي كافـة مناطق السند دعاهم فيها إلى الإسلام أو الطاعة للمسلمين ، وعـرض الأمان لمن رغب فيه ، فحضر عنده الـوزير " سيسـاكر " Sisakar وطلب تأمينه ، فأكرمه ابن القاسم وأهدى إليه وولاه وزارته ، واستفاد بكثير من آرائه وخبراته فى مسائل الدولة وفى العمليات العسـكرية ، وكان الوزير من ناحيته مخلصاً معجبـاً بالإسـلام ومبادئـه وقيمـه الاجتماعية والأخلاقية ، وقد تنبأ بأن كل السند والهند ستخضـع لـه قريباً وستنعم كل البلاد بعدله وسماحته ، وقد مات ذلك الـوزير بعـد سنتين من إسلامه.

أما ابن " داهر " " جيسيه " Jaisiya فقد وصل إلى برهمـان أباد ، وتحصن بحصنها الكبير ـــ وهى تبعد بفرسخ واحد فقـط عـن مدينة " دهليله " ـــ ومن موقع حصنه الجديد ، كتب ذلك الأبـن إلـى الأمراء والحكام يحثهم على معاونته وأن يسـتعدوا معـه لمحاربـة المسلمين ، فتمكن من جع ستة عشر ألفاً من المحاربين ، وعشـرات الاف الجنود من مناطق السند المختلفة ، وحصن المدينة تحصيناً قوياً وجعل على كل باب من أبوابها واحداً من كبار قادته.

أما ابن القاسم فسار إلى نفس المدينة ونزل على حافـة نهـر صغير بضواحيها اسمه نهر " حلوانى " ومن هناك أرسل لابن داهـر يدعوه إلى قبول الإسلام أو الطاعة ودفع الجزية وإلا فالحرب ، وقـد مال الزعيم السندى إلى الخيار الأخير ، عندئذ استعد محمد بن القاسم

وحفر الخنادق ووزع الوحدات العسكرية ، ثم بدأت المعركة ، فكانت تخرج فرقة من أربعين ألف جندى تقاتل المسلمين من الصباح إلى المساء ثم يعود من سلم منها إلى الحصن بعد أن تتعرض للهزيمة ، واستمر الحال هكذا مدة شهرين ، ثم توقف القتال فى ٣٠ ذى الحجة سنة ٩٣هـ = ٧١٢م.

ذلك أن حال الجيش المسلم كانت قد ساءت بسبب استمرار القتال وقلة المواد الغذائية ، وقد عمل محمد بن القاسم بنصيحة بعض الأمراء فطلب قوات إضافية أخرى وكون جيشاً من الفرسان جعل عليه الأمير " موكه بن بساية " حاكم منطقة " بت " الذى دخل قبلاً فى الإسلام ، كما كون فرقاً من المشاة فيها كثير من أفراد القبائل السندية وزحف بكل ذلك على مدينة " برهمان اباد ".

علم زعيم السند بوجهة واستعداد المسلمين ، فسار نحو "جيبور" بحيث يستطيع الهرب منها إلى حدود الهند ، بينما تركه " محمد العلافى " واتجه نحو بلاد كشمير خارج حدود السند.

عند ذلك طلب أعيان " برهمان اباد " وسكانها الأمان ، فعقد لهم ابن القاسم عهداً والتزموا بالطاعة وفرض عليهم الجزية ، ثم دخل المدينة ولم يقاتل إلا من رفض التسليم ، وأسر نحو عشرين ألفاً بينهم زوجة ثانية لداهر وابنتان ، واستولى على مغانم وزعها وبعث بالخّمس إلى بلاد العراق ، وفى اليوم التالى جاءه ألف من البراهمة

ممن اتخذوا مظاهر الحزن لهزيمتهم وقتل ملكهم البرهمى ، فأمنهم ابن القاسم بناءً على رغبتهم.

أكثر من هذا أصدر قائد المسلمين أمراً باحترام رجال الدين البراهمة ، وعهد إليهم بعدد من مناصب ووظائف الإدارة وجمع الخراج من المنطقة وقراها ، وعين حراساً على أبواب المدينة منهم وتعهد بمنحهم كافة التسهيلات اللازمة كى يعيشوا معيشة كريمة فى ظل قيم الإسلام ومبادئه ، وسمح لهم بترميم بيوت العبادة وإقامة طقوسهم البرهمية ، نصحهم بأن يتعاونوا مع المسلمين فى المسائل التجارية والإدارية ، وعين كلاً من " تميم ابن زيد القيسى " وحكم بن عوانة الكلبى لتنظيم المسائل التجارية والإدارية وديوان الخراج والجزية ، وعين للمدينة حاكماً عسكرياً مؤقتاً ، ثم كتب يخبر الحجاج بفتح تلك المدينة الحصينة والخطوات التى اتخذت لتنظيم إداراتها والتى يمثل سقوطها نهاية المعارضة الجادة والعداء للإسلام.

وقد أجابه الحجاج بقوله: ابن أخى محمد بن القاسم ، إن سلوكك العسكرى يستحق الثناء والإطراء ، والآن لا ينبغى أن تمكث فترة أطول فى تلك المدينة ، إن عمدة بلاد السند هى آلور Alor و Multan ، وينبغى أن تتأكد لك السيادة على كل الهند والسند ، وإذا رفض بعض الناس الخضوع للحكم الإسلامى فلتقتله ، لعل الله العظيم يقضى لك بالنصر ، فتخضع لك البلاد من الهند إلى تخوم الصين.

وهكذا نرى أنفسنا أمام مثال واضح على سماحة الإسلام ، وتعاون حكام المسلمين مع غير المسلمين فى المجتمع المسلم والاستعانة بهم فى المسائل الإدارية والمالية والاستفادة بما عندهم من خبرات والسماح لهم بممارسة شعائر دينهم حتى لو كانوا مجوساً دون شعور بحساسية ، " فقد أكرم القائد المسلم رؤساء الهنادكة من رجال الدين وأطلق للناس حرية العبادة على أن يوالوا المسلمين ويدفعوا الجزية عن طيب نفس ".

لقد كانت بلاد السند أول بلاد يتعامل فيها المسلمون مع أمة تعبد الأوثان بأكملها ، لكن ابن القاسم كان سمحاً منهم ، ومنحهم نفس الحقوق التى يقدمها الإسلام لليهود والنصارى من حيث حرية العقيدة والعبادة ونظر إليهم باعتبارهم بشراً وفتح بذلك قلوب العباد.

ويقول K. S. Lal أن أفراد الشعب توسلوا إلى " محمد ابن القاسم " بعد فتح " برهمان اباد " أن تضمن لهم حرية العبادة ، فرفع الأمر للحجاج وجاءه الرد منه يقول:

" ما داموا قد استسلموا ووافقوا على دفع الجزية للخليفة ، فإنه ليس لدينا ما نطالبهم به ، ولقد تعهدنا بحمايتهم ، ولا يمكننا بأى حال أن نستولى على حياتهم أو ممتلكاتهم ، فلتسمح لهم بعبادة آلهتهم ".

وقد تبنى غير المسلمين من التجار والصناع والفلاحين ورجال الدين الذين لم يكونوا مستعدين للاستسلام فقط ، بل وقدموا مساعداتهم للفاتح حيث منحوه كل المعلومات التى طلبها ، مما جعل مهمته سهلة.

إن كثيراً من التسامح كان فى الحقيقة رداً على عـدم المقاومـة مـن جانب الشعـب ، وحيثما وجدت المقاومة فى بعض المناطق ـ فـإن انتقام القاسم لم يكن يعرف الرحمة.

ولكن " اشوارى براساد " يزعم أن المسلمين لم يقوموا بـذلك بسبب احترامهم لعقائد الآخرين ، بل لأنهم اقتنعوا أنه من المسـتحيل القضاء على عقائد سكان البلاد المفتوحة ، ويواصل نفـس المؤلـف تحامله فيزعم أن القاضى كان يحكم بـين المسـلمين وغيـرهم مـن الهندوس بنفس القانون الذى يقضى به بين المسـلمين بعضـهم ضـد البعض الآخر ، وتعرض الهندوس لظلم كبير نتيجة لذلك ، ويقول أن اللصوص من بعض العناصر كانت تتعرض لعقوبة شديدة حيث كـان يصدر الحكم بحرق زوجة وأطفال السارق؟!! وأن الحكام المسـلمين فرضوا ضرائب عديدة على المحاصيل المختلفة ، كما فرضوا الجزية على غير المسلمين ، وفرضت مظاهر التمييز العنصرى على بعـض رجالات القبائل.

ولسنا ندرى من أين أتى المؤلف بذلك كله.

ومهما يكن من أمر فقد أراد محمد بن القاسم أن يخضع القبائل المختلفة التى تسكن اقليم " برهمان اباد " حتى يتأتى له التحرك نحـو عاصمة السند فى أمان ، وكان لابد له من معرفة طباعهم وأخلاقهـم قبل أن يتجه نحوهم وقد أخبره الوزير سياكر والأمير موكه حاكم بت ـ وكان ضمن من أسلم من قبل ـ أن بعض أفراد قبيلة الزط ومثلها

قبيلة السيابجة ، وكلاهما مجهول الأصل وتعمل الأولى بالرعى كما يعمل أسراها كجند مرتزقة فى جيش الفرس. ويعرف أفرادها بالوحشية والقسوة وبالطباع الشريرة ، ولديهم رغبة فى التمرد ، وممارسة أعمال القرصنة واللصوصية ومهاجمة القوافل والمسافرين ونهب امتعتهم وسرقة أموالهم ، وعلى هذا تعتمد حياتهم.

وهذا هو السبب فى أن ملوك الهند من البراهمة ، وضعوا قيوداً عليهم وأمروهم بلبس الملابس الخشنة ، وأن يمشوا حفاة حاسرى الرءووس ، وكانوا يلزمون بأن يصحبهم كلب حتى يتعرف الناس عليهم لم يكن يسمح لزعمائهم بركوب الخيل فى الغالب ، وكانوا يُسألون عن أية حوادث نهب أو سرقة تقع فى الطريق ، وإذا ثبتت السرقة قضى على المتلبس وعلى أفراد اسرته بالحرق ، وكان على قبيلة الزط هذه ارشاد المسافرين فى الصحارى وبين مدن السند وجمع مايلزم المطابخ الملكية من أحطاب.

ولم يكن أمام " محمد بن القاسم " بدَ من معاملتهم بنفس الطريقة ، لتستقر الأوضاع فى البلاد ، ومع ذلك فقد أراد تهذيب أخلاقهم فعهد إليهم بالكثير من الخدمات ، وتأثر بعضهم بسلوك المسلمين وقيم الدين فدخلوا فى الإسلام ، فألحق ابن القاسم العديدين منهم فى الجيش الاسلامى وحتى من لم يصبحوا مسلمين تهذب سلوكهم بسبب معاشرتهم للمسلمين ولم يبق على أصله من التوْحش إلا من عاشوا منعزلين فى مواطنهم القبلية.

أما قبيلتا السمه والسهنة Sammas and Sahnas فكانتا على العكس من بعض أفراد قبيلة الزط Jats ، فقد استقبلت الأولى محمد بن القاسم بالطبل والمزامير والرقصات القبلية تعبيراً عن قبولهم حكم المسلمين وترحيبهم به ، فحمد القائد المسلم موقفهم ، وعين أحد ساسة العرب ودهاتهم وهو " خريم بن عمرو المدنى " حاكماً عليهم ، فمنحهم عشرين ديناراً ذهبية هدية لهم ، ورضى أولئك حكم المسلمين وفعلت قبيلة سهنه نفس الشئ ، فقد احتفى زعماؤها بالمسلمين ورحبوا بهم ، وقابلوهم مكشوفى الرءووس حفاة الأقدام ، فرضى ابن القاسم منهم بذلك وأمنهم وحدد الخراج على أراضيهم ، فقد كانوا مشتغلين بالزراعة ، كما استعان بمرشدين منهم ليدلوا المسلمين على الطرق فى المناطق الصحراوية من برهمان اباد إلى العاصمة " أرور " وقد أسلم كثير من أفراد هذه القبيلة وحسن إسلامهم.

بعد ذلك بقى محمد بن القاسم فترة فى برهمان آباد ، ينظم أمورها ويعين على كل منطقة حاكم يناسبها من حيث الخبرة والمعرفة بأحوالها ، وترك المسائل المالية بيد أربعة من كبار الاعيان وتجار البلاد الأصليين ، وأجرى بعض التنقلات بين القواد ونوابهم فى مناطق السند لدواع إجتماعية وسياسية ، كذلك وزع أفراد القبائل العربية وأسكنهم فى مناطق عدة ودخلت الآلاف المؤلفة دين الله عن رضى واختيار.

كل هذه الجهود علم بها الحجاج من خلال تقرير مفصل جاء من ابن القاسم ، وقد أثنى الحجاج عليه ، وأمره بالسير نحو مدينتى أرور ثم الملتان ، لأن كلا منهما تمثل قاعدة قوية لملوك السندويه وحصون عسكرية هامة وخزائن وكنوز مدفونة فوق مالهما من أهمية استراتجية.

وفى محرم سنة ٩٤ هـ تحرك ابن القاسم وفتح مدينتين قريبتين من العاصمة فى الطريق إليها ـــ هما منهل وهراور ، وكان فتحهما عن طريق الصلح ، كما فتح مدينتين صغيرتين هما " بسمة " و " ساوندرى " ، وفرضت الجزية على السكان من البوذيين بعد منحهم الأمان ، واشترط عليهم ضيافة المسلمين عندما يمرون بمناطقهم ، وقد دخل هؤلاء السكان فى الإسلام بعد ذلك ، وتنعموا بعدل وحماية الولاة المسلمين.

بعد هذا اتجه محمد بن القاسم نحو آلور (أرور) عاصمة بلاد السند .

وعسكر على بعد ميل من قلعتها الحصينة ، وأقام شهراً للراحة والاستعداد ، وكان يحكم العاصمة أحد أبناء " داهر " الملك القتيل ، وقد اهتم بتحصين المدينة بقوة ورغب فى المقاومة ، وأوهم الناس بأن أباه قد اختفى وأنه سيرجع عما قريب بجند وسلاح كثير ، وبالفعل بدأت الحرب واستمرت أياماً ، ولكن ابن القاسم فطن إلى حيلة وفى إرسال أرملة داهر التى كان قد أسرها من قبل وبنى بها ، ومعها

بعض الزعماء الآخرين ، وقد أبانت عن هويتها ، وبينت لأعداء المسلمين أن زوجها قد قتل ، وأن قادته قد استسلموا ، وأنه يحسن بهم الاستسلام كذلك ، والأولى بهم أن يعيشوا مع المسلمين في أمان.

وقد رفض الناس تصديق المرأة أول الأمر ، ولكنهم تأكدوا من صدق روايتها بعد فترة ، واطمأنوا إلى عدل وسماحة المسلمين ، ولذلك قرروا تسليم المدينة بينما تمكن حاكمهم أو ملكهم من الهرب في جنح الظلام واتجه ناحية مدينة " جيبور " قرب الحدود الهندية مثلما فعل أخوه وغيره من قبل ، وقد فتحت أبواب المدينة ودخلها المسلمون دون قتال.

وقد شاهد ابن القاسم " بيت الصنم " بالعاصمة ، وهو معبد بوذي كبير ، يضم تمثالاً رخامياً مكللاً بالياقوت والجواهر ، يقوم على خدمته كبار رجال الدين فلم يعرض له بأذى ولم يسمع سدنته كلمة نابية ، مع يقينه بأنه لايزيد عن أن يكون صنماً لايضر ولاينفع.

وكالعادة نظم ابن القاسم أمور المدينة وعين حاكماً عليها ، وبنى بها مسجداً جامعاً ، وأسند أمور القضاء والخطابة فيها للشيخ موسى بن يعقوب الثقفي ، أحد كبار علماء الإسلام ، ووضع عليها الخراج ، وطلب من سكانها أن يتعاونوا جميعاً على مافيه خيرهم ورفاهيتهم ، وقد تأثر سكانها من البوذيين خاصة بما رأوه من حسن معاملة المسلمين فدخلوا دين الله.

بعد هذا توجه محمد بن القاسم نحو مدينة " باتية " القيمة على الشاطئ الجنوبى لنهر " بياس " وكانت تحت حكم ابن عم للملك "داهر" اسمه ككسا Kaksa وكان قد اشترك معه فى معركته الأخيرة ، ثم عاد إلى مقر حكمه بعد هزيمة الملك ، ولما علم بمقدم ابن القاسم أرسل له هدايا ورهائن وعرض طاعته ، فقبل القائد المسلم عرضه ، وزاد فعينه مستشاراً له ، وفوض إليه كل الأمور المالية ومنحه خاتم خزينة المنطقة ، وقدمه على غيره من القادة ، وأما الرجل فقد أخلص النصح لمحمد بن القاسم فاعتمد عليه الأخير كثيراً فى تنفيذ مشروعاته فيما بعد ، وأعتنق الرجل الإسلام وحمل لقب " المستشار المبارك ".

وكان على محمد بن القاسم أن يفتح مدينة اسكلنده (اسكندراه) قبل فتح الملتان ، وكانت مدينة حصينة للغاية ومهيأة للقتال ، وبالفعل خرج أهلها لحرب المسلمين واشتدت المعركة بين الطرفين ، ثم اضطر أهل " اسكلنده " إلى الاعتصام داخل قلعتهم ، فقذفهم المسلمون بنيران المنجنيقات ورموهم بالسهام النارية واستمر الحال هكذا لمدة أيام سبعة اضطر بعدها حاكم المدينة للهرب واحتمى فى حصن اسمه " حصن سكة " على الشاطئ الجنوبى لنهر " راوى " بالقرب من الملتان ، وأتيح لابن القاسم أن يدخل المدينة ، وأن تدور معركة بينه وبين جنود السند قتل فيها الكثيرون ، ووقع عدد كبير فى أسر المسلمين ، واستشهد من المسلمين ٢٥ كما استشهد من جنودهم مائتان وخمسون ، ثم منح ابن القاسم أماناً للتجار والصناع والزراع وعامة

الناس وولى حاكما على المدينة. استشهد فيـه عشـرون مـن قـادة المسلمين ، ومائتان وخمسة عشر فارساً من أهل الشام الشئ الذى آلم ابن القاسم وجعله يقسم ليهدمن القلعة على من فيهـا ، وقـد هـرب زعيمها السندى ، وعبر نهر " راوى " نحو الضفة الشمالة وانضم إلى حاكم الملتان ، فتقدم ابن القاسم نحو القلعة واسـتولى عليهـا وعلـى سكانها من الجنود وأمر بهدمها ، وقتل المقاتلين بها ، وجدير بالـذكر أن هذه هى المرة الأولى والأخيرة التى حدث فيها هذا الأمر أو اتخـذ فيها ذلك الإجراء.

فتح الملتان:

الآن أصبح الطريق ممهداً أمام القوات الإسلامية لفتح مدينـة الملتان ونواحيها فى إقليم البنجاب الذى كان يكون جزءاً مـن مملكـة " داهر ".

زحف جيش المسلمين فى اعداد غفيره وصلت إلى خمسين ألفاً من الجنود والفرسان عشرهم فقط مـن الجـيش الأصـلى الفـاتح ، ومعظمهم ممن انضم إلى المسلمين بعد نجاحهم فى المعارك السابقة ، وقد اتجه الجميع نحو مدينة " الملتان " عاصمة البنجاب ، وهناك حدث قتال بينهم وبين حاكمها ومن فر إليه من زعماء السند وأمـرائهم راح الكثيرون ضحية له ، ثم استخدم المسلمون المنجنيقات والقذائف النارية لمدة شهرين على فترات متقطعة ، وواجهوا مشـكلة نقـص المـواد الغذائية واضطروا لأكل الميتة التى ارتفعت أثمانها ، ومع ذلـك فقـد

خشى زعيم وقائد الجيش الملتانى من العواقب ، فعبرا الحدود السندية ووصلا إلى منطقة كشمير ، ولم تكن قد فتحت بعد.

وأخيراً تمكن المسلمون من هدم أسوار المدينة بعد رميها بالقذائف والمنجنيقات ودخلوها وقاتلوا جندها ، فقتلوا منهم ٦٠٠٠ جندى وأسروا الكثيرين ومنح ابن القاسم الأمان للتجار والصناع والزراع على أساس أنهم لم يشتركوا فى القتال ، وفرض على السكان جزءاً من خسائر ونفقات فتح المدينة بلغت قيمته ستين ألف درهم غير ما فرض عليهم من الجزية والخراج ، وتلك هى المرة الأولى التى يكلف فيها السكان الأصليون بتحمل قسم من نفقات.

وهناك رواية أخرى تتعلق باستسلام أهل الملتان تقول إن هؤلاء قاتلوا المسلمين بضراوة ، ولكن المسلمين حاصروا المدينة أياماً شديدة لاقوا خلالها الأهوال حتى نفد زادهم واضطروا لأكل الحمير ، ثم جاء رجل مستأمن فدلهم على مدخل الماء الذى يشرب منه أهل المدينة وكان ذلك الماء يأتى من نهر أسمه " بسمه " فيصير فى مجتمع له يشبه البركة أو الحوض داخل المدينة ، عندئذ أمر ابن القاسم بتغوير (بتعميق) مجرى ذلك الماء وإقامة خزان يتجمع فيه كيلا يصل إلى سكان المدينة فعطش المحاصرون بشدة ونزلوا ـ لهذا ـ على حكم ابن القاسم فقتل من رفضوا الاستسلام من حملة السلاح ، وحصل المسلمون على ذهب ومغانم كثيرة جمعت فى بيت حجمه

عشرةُ أذرع فى ثمانية يلقى إليه من كوة فى وسطه وهذا هـو السـر وراء تسمية الملتان باسم " بيت أو ثغر الذهب ".

ومن طريف ما يروى أن رجلاً برهمياً أتى محمد بن القاسـم وذكر له أن أحد حكام الملتان فى القديم بنى حوضاً شـرقى المدينـة مساحته مائة متر ، وبنى فى وسطه بيتاً لصنم يعبد ، مسـاحة ذلـك البيت خمسين متراً مربعاً ، والصنم نفسه عبارة عن تمثال من الذهب الخالص يمثل رجلاً له عينان من الياقوت الأحمر ، وأضاف الرجـل أن هناك حجراً عند موضع الصنم تحته كنز ، فدخل ابن القاسم المكان وأمر برفع التمثال فوجد تحته ثلاثة عشر ألف ومـائتين منـاً مـن الذهب ، أضيف إلى ماحصل عليه المسلمون من أموال ومجوهرات.

وتذكر بعض المصادر العربية أن صنم الملتان هذا كانت تقدم له النذور ، وكان طائفة البراهمة فى السند والهند يقصـدونه للحـج ، فيطوفون به ويحلقون لحاهم ورؤوسهم عنده ويزعمون أن ذلك الصنم هو النبى أيوب وكان على صورة إنسان كبير متربع طولـه مائـة ذراع ، يلبس جلداً أحمر لايظهر منه إلا عينين عبارة عن جـوهرتين وعلى رأسه تاج أو اكليل ذهب مرتفع على كرسى تحيط بيـده قبـة عظمي وحوله بيوت سدنته البالغين ستة آلاف.

وكان الصنم نفسه بعد فتح الملتان ورقة رابحـه فـى أيـدى المسلمين من الناحية السياسية ، فكان كلما رغب ملـك هنـدى فـى الهجوم على هذه المنطقة ، هدده المسلمون بكسر ذلك الصنم ، فيرجع

من حيث أتى إجلالاً لهذا التمثال المقدس الذى لايقيم العسكر فى بلـده لما له من قداسه. فالملتان كما رأينا لم تكن مدينة عادية ، بـل كانـت عاصمة كبرى يحج الناس إليها ، ولهذا فقد فتحت عنوه لأن المقاومـة فيها كانت مقاومة البوذيه المتمسكة بتقاليدها وأمجادها.

ومهما يكن من أمر فقد اتبع ابن القاسم فى هذه المدينة ما اتبعه فى المدن الأخرى من حيث التنظيمات المالية والإدارية والعسـكرية ، فعين الحكام على كورها المختلفة ، وترك بها حامية من الجنود وبنى بها مسجداً جامعاً ، وأخذ العهود والمواثيق على أعيان المدينـة بـأن يعملوا على أمر وأستقرار ورفاهية شعبها ، ثم أرسل ما حصل عليـه من مغانم وأموال على متن سفن فى حراسة مسلحة إلى الحجاج عـن طريق ميناء الديبل ، مع رسالة تفصيلية تشرح ماتم من فتح الملتـان وتنظيم أمورها.

وكان والى العراق والإمارات الشرقية قد كتب لابـن القاسـم وهو بمدينة الملتان يقول:

" إنى قد كتبت إلى أمير المؤمنين الوليد أضمن له رد ضـعف نظير ما أنفقت من بيت المال ، فأخرجتى من ضمانى ".

وكانت نفقات جيش فتح السند والملتان قد وصلت إلى ٦٠ الف ألف (٦٠ مليون) درهم ، ولما أحصى الحجاج ما وصل إليـه مـن القائد الفاتح وجده ١٢٠ ألف ألف (١٢٠ مليون) درهم ، فقال: شفينا غيظنا ، وأدركنا ثأرنا ، وزدنا ستين ألف ألف (٦٠ مليـون) ورأس

داهر " كل ذلك دون أن يغرم الأهالى شيئاً أو تفرض عليهم ضـــرائب جديدة.

يعلق بعض الباحثين على ذلك فيقول:

إنه ليس مستغرباً أن يحرص الحجاج على جمع الثـــروة مـــا أمكنه ، مثله فى ذلك مثل أى فاتح آخر ، وفى هذه الحالة خاصة فـــإن والى العراق كان عليه أن يحترم وعده للخليفة ، برد نفقات هذه الحملة لخزينة الدولة ، وكان ما منحه من حرية العبادة كفيلاً بجلب الجزيـــة والضرائب الأخرى ، ولهذا فإن الحياة الدينية فى الهند بقيـــت علـــى نهجها القديم تقريباً ، بل إن معابد البراهمة أعيد بناؤهـــا ، وأضـــحت العادات القديمة مسموحاً بها ، وقد وثق المسلمون فى الكثيـــرين مـــن غير المسلمين ، وعهدوا إليهم بالأعمال الإدارية ، وأصدر إليهم ابـــن القاسم تعليماته بأن يتعاملوا مع الشعب فى احترام وأمانة وأن يكونـــوا صلة طيبة بينه وبين الحاكم ، وعليهم تحديد مقدار الجزية وفقاً لمقدرة الشخص ، ولتكن من الغنى ٤٨ درهماً ومـــن متوســـطى الحـــال ٢٤ درهماً ، و ١٢ درهماً من الطبقات الدنيا ، أما النظـــام الإدارى فقـــد استمر معمولاً به دون تغيير. كما سيأتى.

وكان في نية ابن القاسم أن يواصل مسيرته نحو بلاد " كشمير" موطن البقية الباقية من أمراء السند وأعوانهم من المتمردين ، وبـــؤرة الخطر بالنسبة للبلاد حديثة العهد بالإسلام ، وربما رغب فـــى نشـــر الدعوة الإسلامية فى الهند أيضاً ، لولا خبر وصله ، وكان سبباً فـــى

قلب مخططاته كلها ، ألا وهو خبر وفاة الحجاج سنة ٩٥ هـ. الشئ الذى جعله يرجع إلى العاصمة " أرور " لمتابعة الأحداث فى ظل الظروف الجديدة من هناك ، خاصة وقد تلقى أمراً من الخليفة الوليد بن الوليد الملك بأن يوقف تقدمه ، لأن الخليفة كان يعتمد فى هذا الجانب على الحجاج وما كان يقوم به من متابعة واعية.

ومع ذلك فإن الأوضاع الجديدة لم تمنع ابن القاسم من العناية بالمناطق المفتوحة والنظر فيما يصلحها ، ولم تحل وفاة الحجاج بينه وبين أداء مهمته ، فبعد أيام قضاها فى الراحة واستقبال وفود العزاء ، أرسل واحداً من قواده لإخضاع مدينة " البيلمان " وهى من المدن الصغيرة التابعة لإقليم "أرور" فاستسلمت بدون قتال ثم أرسل آخر إلى مدينة صغيرة بنفس المنطقة أسمها "سرست" حيث يقيم قبائل "الميد" المعروفين بقطع الطرق البرية ونهب السفن ، فتعهد هؤلاء بالطاعة والعمل على سلامة الطرق البرية ، وقبل المسلمون ذلك منهم.

فتح الكرج :

ثم قام ابن القاسم بحملة على الكيرج (الكورج) على الحدود السندية الهندية. وكان يحكمها " داهر " أحد أقرباً الملك " داهر " وقد خرج على رأس جيش كثيف لمقاتلة المسلمين ، ولكنه قتل وأنهزم جيشه ، وأمر ابن القاسم بقتل المسلحين وضرب الرق على الباقين ، وقال على الباقين ، وقال أحد الشعراء فى قتل " دوهر ":

نحن قتلنا داهراً ودوهرا * والخيل تردى مَنسرًا فمنسرا

وكان الأمير " جيسيه " قد فر إلى الكرج آخر الأمر ، ثم لجأ إلى كشمير بعد أن دب الخلاف بينه وبين حاكمها " دوهر " ، وبقى هناك يتحين الفرص ، وقد تمكن من العودة إلى السند واستولى على اقليم " برهمناباد " وحكمه عدة سنوات بعد مقتل محمد بن القاسم ، وظل يتولى أمر ذلك الإقليم إلى أن تم إخراجه منه والقضاء عليه سنة ١١١ هـ = ٧٢٩م.

وبفتح المسلمين لإقليم الكيرج ، أصبحت لهم السيادة على المناطق الواسعة بين الملتان وبلاد كشمير ، وقد توجه ابن القاسم إلى كشمير وعين عليها حاكماً وترك بها حامية عسكرية ورغب في مطاردة الأمير جيسيه ومحمد العلافى وبعض أمراء السند الذين لجأوا إلى هذه البلاد ، وكونوا بها جبهة قوية تعادى الدولة والإسلامية ، ولكنه قرر صرف النظر عن منطقة كشمير مؤقتاً حتى يتم له فتح اقليم "قنوج" الذى يتبع السند سياسياً ويقع على حودها مع بلاد كشمير.

فتح قنوج:

ذلك أنه عندما كان قائد المسلمين فى مدينة الكيرج أرسل من هناك جيشاً من عشرة آلاف فارس يقوده أبا حكيم الشيبانى إلى مدينة قنوج Kanyj فى أقصى حدود الملتان ـ لفتحها ودعوة أميرها إلى قبول الإسلام أو الدخول فى طاعة المسلمين ودفع الجزية ، ولما وصل الجيش الإسلامى إلى موضع يقال له "أودهاير" بالقرب من العاصمة أرسل قائده مبعوثاً إلى الأمير يبلغه مضمون رسالة ابن

القاسم إليه ويبلغه بأن كل بلاد السند وحكامها قد خضعوا للحكم الإسلامى ، وأن بعضهم قد أسلم وبعضهم وافق على دفع الجزية ، ولكن حاكم " قنوج " أبى الاستسلام بزعم أن أباءه وأجداده يحكمون هذه البلاد منذ حوالى ألف وستمائة سنة وأن علاقاته بجيرانه قوية وأنه يرفض الخضوع للغير ، إزاء هذا الموقف لم يكن بدَ من القتال.

وقد تحرك محمد بن القاسم بنفسه إلى الكبرج ووصل إلى "أودهاپر" وعزم على فتحها وأستعد لدخولها ، وبينما هو على أتم الإستعداد لذلك كخطوة أولى نحو الوصول إلى كشمير واتمام فتح كل السند والهند ، وصله أمر الخليفة الجديد سليمان بن عبدالملك بعزله عن بلاد السند شخصية ، بل والقاء القبض عليه وارساله مصفداً إلى بلاد العراق فلم يتمكن بسبب ذلك من فتح " قنوج " لذلك لم يذكر " البلازرى " لذلك عنها شيئاً ، واعتبر أن " الكرج " هى آخر مدينة فتحها ابن القاسم على الحدود السندية الهندية. وقد وصل الإسلام إلى " قنوج " بعد ذلك ، يشير إلى ذلك المسعودى – الذى زار الهند فى مطلع القرن الرابع الهجرى – حين يقول: "وليس من ملوك السند والهند من يعز المسلمين فى ملكه مثل البلهرى (أمير قنوج) فالإسلام فى ملكه عزيز مصون وله مساجد مبنية وجوامع معمورة للصلوات الخمس، ويملك الملك منهم الأربعين سنة والخمسين فصاعداً، وأهل مملكته يزعمون أنه إنما طالت أعمار ملوكهم لسنة العدل"وإكرام المسلمين.

نهاية ابن القاسم :

ونعود مرة أخرى لنتابع تطور الأحداث ونتعرف على ماجرى لابن القاسم.

أشرنا إلى أن الحجاج مات سنة ٩٥ هـ = ٧١٣م بعد أن حكم العراق والولايات الشرقية باسم الدولة الأموية حوالى عشرين عاماً ، وبعد وفاته بستة أشهر توفى الخليفة الوليد بن عبدالملك سنة ٩٦ هـ = ٧١٤م وتولى الأمر من بعده أخوه سليمان ، فولى على العراق والأمارات الشرقية واحداً من أشد أعداء الحجاج وهو صالح بن عبدالرحمن ، وكل هذا كان كارثة بالنسبة لمحمد بن القاسم أثرت على جهوده فى شبه القارة الهندية مثلما كان الحال بالنسبة لأخرين فى مناطق الفتح الإسلامى الأخرى.

ولنوجز هنا مبررات ماحدث:

أراد الوليد بن عبدالملك أثناء خلافته نقل ولاية ما لعهد من أخيه سليمان ابن عبدالملك إلى ابنه ، وقد أيد الحجاج فكرة الخليفة عن عزل سليمان وحرمانه ، واستطاع أن يحصل على موافقة الولاة والقواد فى المناطق الشرقية التابعة له ، وابن القاسم واحد منهم ، ولم يكن فى وسعه إلا الموافقة ، لأنه لم يزد عن أن يكون تابعاً وأحد رجالات الحجاج ، وما كان يعنيه بالدرجة الأولى هو أن يتفرغ لمهمته ويتمكن من تبليغ رسالة الإسلام للسكان فى منطقة شبه القارة الهندية ، وقد شاءت إرادة الله أن يموت الحجاج والخليفة الوليد قبل أن يتم لهما

ما أرادا من نقل ولاية العهد إلى ابن الخليفة وحجبها عن أخيه سليمان ، وقد تولى سليمان رسمياً أمر الدولة ، وكان أول شئ فعله هو عزل الولاة والقواد الذين عينهم الوليد والحجاج ، وتسليط والى العراق الجديد ضد من يمتون إلى الحجاج بصلة بصفة خاصة لقد كان عليه أن يلقى بهم فى غياهب السجون ويعذبهم أشد العذاب برغم ما قدموه للدولة من خدمات.

ينقل الطبرى – فى نفس حوادث سنة ٩١٦ هـ – عن الهلواث الكلبى قال: كنا بالهند مع محمد بن القاسم فقتل الله " داهراً " وجاءنا كتاب من الحجاج أن اخلعوا سليمان ، فلما ولى سليمان جاءنا كتاب سليمان أن ازرعوا وأحرثوا فلا شأم ، فلم نزل بتلك البلاد حتى قام عمر بن عبدالعزيز فأقفلنا.

لقد كان الوالى الجديد موتوراً من الحجاج ، لأنه قتل أخاه آدم ابن عبدالرحمن بسبب إيمانه بمبادئ وآراء الخوارج ، فأراد صالح بن عبدالرحمن الإنتقام من الحجاج فى شخص قادته وأتباعه خاصة صهره وابن أخيه محمد بن القاسم ، وقد ولى على بلاد السند يزيد بن أبى كبشة السكسى ، فقام هذا بالقاء القبض على ابن القاسم بناءً على أمر الخليفة وواليه ، وصفده فى الأغلال وبعث به ليسجنه صالح بن عبدالرحمن فى مدينة واسط ، فتمثل ابن القاسم بقول القائل:

أضاعونى وأى فتى أضاعوا * ليوم كريهة وسداد

وكان ابن القاسم قد استولى على قلوب الناس فى شبه القـــارة مسلمين وغير مسلمين ، لما تميز به من خلق قويم وسلوك ممتـــاز ، وقد نصحه البعض بالاّ يرحل إلى بلاد العراق ، ولكنه أبـــى ، لأنـــه لايستطيع مخالفة أمر الخليفة الواجبة طاعته ، وقد يشفع له عنده مـــا قدمه من خدمات جليلة للدولة الأموية ولدين الله ، ولكن والى العـــراق غدر به وألقاه فى غياهب السجن المظلم الرطب مكبلاً بالحديد ، فتألم ابن القاسم وأثر فى نفسه أن يلقى جزاء " سنمار " وقد عبر عن ذلـــك فى شعر قاله أثناء وجوده بالسجن منه قوله:

فلئن ثويت بواسط وبأرضها * رهن الحديد مكبلاً مغلولا
فلرب قينة فارس قد رعتها * ولرب قرن قد تركت فتيلا

ومنه:

لوكنت أجمـــعت الفـــرار لوطئت * إناث أعدت للوغى وذكور
وما دخلت خيل السكاسك أرضنا * ولا كان من عك على أمير
ولا كنت للعـــبد المزونـــى تابعاً * فيالك دهر بالـــكرام عثور

وقد واصل الوالى تعذيبه ، ضمن رجال من آل أبى عقيـــل ، إلى أن قتله تحت وطأة التعذيب الشنيع ، ثم بعث برأسه إلى دمشق.

وكما ودعته جموع أهل السند ، شـــاعرة بالأســـف الشـــديد ، لمغادرته بلادهم عائداً إلى العراق ، فإن دموعهم تســـاقطت بغـــزارة عندما وصل إليهم خبر مقتله ، وبكوا فيه الرجولة والشهامة والخلـــق

الإسلامى الأصيل والشباب المتألق ، وتخليداً لذكراه أقاموا له تمثالاً فى مدينة الكابرج ، لما قدمه من خدمات جليلة لهذا البلد.

وإن المرء ليعجب ما ينقضى له عجب ، كيف تنتهى حياة ذلك الشاب بهذه الصورة المريرة ، وهو الذى فتح كل بلاد السند ، ونشر الإسلام فى كافة أرجائها فى فترة قياسية لم تتجاوز السنوات الثلاث؟ كيف يواجه محمد بن القاسم هذا المصير المؤلم ويجزى ذلك الجزاء المهين؟!!!

لقد تضاءلت أمام أعماله الحربية والسياسة عظمة الاسكندر وشهرته ، إذ بينما عجز الاسكندر قبل الف عام عن الإستيلاء على قسم ضئيل من الهند ، كان سكانه أقل من ربع السكان زمن ابن القاسم ، استطاع هذا الفتى أن يخضعها ويلحقها بالامبراطورية الإسلامية من غير كبير عناء وقد قال مؤرخ انجليزى " لو أراد ابن القاسم أن يستمر بفتوحاته حتى الصين لما عاقه عائق " " ولم يتجاوز أحد من الغزاة فتوحاته إلى أيام القزنويين " لقد كان واحداً من عظماء الرجال فى كل العصور.

إن رجلاً قدم عشر معشار ما قدم ابن القاسم لابد وأن يكرم ويمنح خلع التشريف والإكبار ويرتفع إلى أعلى عليين ، ولكن المؤلم حقاً أن يسجن ويعذب لدرجة إزهاق الروح وهو الذى مهد السبيل أمام الدعوة الإسلامية ، وحملها فى إخلاص وتفان إلى الناس فى شبه القارة الهندية ، تماماً مثلما حدث مع من عرف القارة الأوروبية

بالإسلام ونشره فى نواحى الأندلس ، أعنى القائد المسلم موسى بن نصير بل يقال إن ابن القاسم وضع فى رأديم بقرة ، ثم خيط عليه الأديم وحمل إلى دمشق ، وأن روحه فاضت فى الطريق.

إن نهاية الأبطال ما كان ينبغى أن تكون هكذا دون جريرة أو ذنب اللهم إلا حب الإسلام والإخلاص له والتفانى فى سبيله ، والولاء لأصحاب السلطان الشرعى من خلفاء بنى أمية.

ومهما يكن من أمر فقد توقفت الفتوحات فى جبهة السند بمجرد مغادرة ابن القاسم للبلاد ، وانكمش المسلمون فى المناطق التى تم فتحها من قبل وتركت الأوضاع السياسية السيئة فى عاصمة الخلافة تأثيرها على الاستقرار والأمن فى شبه القارة الهندية فقامت الثورات والفتن فى بعض المناطق التى خضعت للمسلمين ، وحاول بعض أمراء السند الذين كانوا قد فروا إلى كشمير وغيرها العودة إلى البلاد ، ونجح بعضهم فى استعادة سلطانه ونفوذه ، مستفيداً من الاضطرابات الداخلية فى العالم الإسلامى ، فتمكن جيسيه ابن داهر مثلاً من العودة إلى برهمان آباد حسبما يرى البعض.

بل إنه بعد موت ابن القاسم ، لم يبق تحت سيطرة المسلمين إلا المنطقة من ديبال بور DEBALPUR إلى بحر السلت " الملح " Saltsea.

وهذا سمح لباحث مثل " إشوارى براضاد " أن يقول:

أنه كان من المستحيل أن يجد المسلمون حكماً مستقراً في الهند ، ذلك أن الملوك كانوا لايزالون يسيطرون على ممالك هامة في الشمال والشرق ولم يكن هؤلاء مستعدين لترك بوصة واحدة من الأرض لأى أجنبى يحاول غزو أراضيهم ، ولهذا فإن المحافظات المختلفة بدأت تترك الإسلام تدريجياً ، وكانت محافظة السند تنقسم إلى عدة دول تعتبر مستقلة من الناحية العملية.

كذلك ساعد بروز العصبية القبلية ، وانشغال العرب في الخلاف فيما بينهم على ، توقف حركة الفتح الإسلامى بتلك المناطق ، مثلما حدث من خلاف وعصبية فى مناطق الدول الإسلامية الأخرى.

كذلك دخل العرب البلاد من اتجاه خاطئ ، فالسند لم تمنحهم المصادر اللازمة لفتح بقية بلاد الهند أضف إلى ذلك أن ولايات السند كانت مجدبة وضعيفة الخراج نسبياً إذا قورنت بغيرها ، وكانت لاتزال تحيط بها من الشمال والشرق إمارات قوية يحكمها الهنادكة ، كذلك تمكن رجال الفرق الإسلامية من خوارج وشيعة وقرامطة وإسماعيلية من الوصول إلى تلك البلاد ــ فيما بعد ــ لهذا كله انكمشت أملاك المسلمين، ولم يبق لهم إلا الملتان والمنصورة... ولابد من الإشارة إلى أن الفتح العربى للسند لم يكن عسكرياً فحسب، بل ــ كما حدث فى الجبهات الأخرى ــ تنقلت العشائر العربية إلى هناك ، وحمل العرب الى البلاد نفس أسلوبهم فى الحياة ونفس نزاعهم القبلى

التقليدى ، كما انتشرت الثقافة العربية من المدن التى ستؤسس فيما بعد ــ مما ساعد على نشر العربية والإسلام ــ بل هاجرت الى الهند نفس الصور الفكرية التى طبعت العالم الإسلامى فى القرن الأول الهجــرى كما انتقلت إليها فرق ودعايات الخوارج والشيعة كما أشرنا آنفاً.

والآن نحاول التعرف على الولاة الذين وفدوا إلى هذه المنطقة فى عهد الدولة الأموية.

الفصل الثالث

إنتشار الإسلام فى شبة القارة الهندية
وبلاد السند وبلاد البنجاب

إنتشار الإسلام فى شبه القارة الهندية
(بلاد الهند وبلاد السند)

تذكر لنا كتب التاريخ أن الإسلام حين أخذ ينتشر فـى شـبه القاره الهندية بدأ فى الإنتشار بعد ظهوره مباشرة فى سواحل جنـوب بلاد الهند على أيدى التجار العرب والجاليات العربية المقيمة هنـاك ، بينما تأخر انتشار الإسلام فى سواحل بـلاد السـند ، وأمـا الـدعوة المنظمة إلى الإسلام بلاد السند فقد بدأت بعد الفتح العربى لهـا فـى أواخر القرن الأول للهجرة.

(أ) إنتشار الإسلام فى السواحل الجنوبية لبلاد الهند:

كانت العلاقات التجارية قائمة بين العـرب وسـكان سـواحل جنوب الهند منذ آلاف السنين قبل الإسلام ، كانت الأسـر والجاليـات العربية تقيم فى هذه السواحل ، وكان العرب يقومون بالتجارة ما بـين البلاد العربية وبلاد الهند وغيرها عن طريق البحر والبر.

ولما سمع العرب هناك عن ظهور الإسلام فى شبه الجزيـرة العربية دخلوا فيه بعـد سنوات قليلة مـن بعـثة الرسـول الأعظـم محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم أخذت الجاليات العربية فى بلاد الهند تلعب دورها كمراكز تبليغ للإسلام بطريقة غير مباشرة ، فقد كان الإسلام قد أثـر على الحياة الاجتماعية للعرب بشكل ملحوظ مما حمـل سـكان تلـك المناطق إلى أن يلاحظوا ذلك التغيير على العرب وكـانوا يتعجبـون ويتساءلون عن السبب فى ذلك ، حتى سمعوا من العرب عن ظهـور

دين جديد فى الجزيرة العربية ، وهو الإسلام ، وكانوا يتناقشون المسائل الإنسانية من خلال تعاليمه السامية العادلة ، كما كان بعض العرب أنفسهم يتلهفون على تبليغ الإسلام منتهزين الفرص بقصد الدعوة أو بقصد الإخبار ، وذلك لفرحتهم الكبيرة بهذا الدين الحنيف الذى أخرجهم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور المعرفة والحق.

فى الوقت الذى كانت الخلافات المذهبية قد بلغت أشدها فى جنوب بلاد الهند بل فى شبه القارة الهندية كلها بين أصحاب المذاهب البرهمية والبوذية والجينية ، وكانت البرهمية تحارب البوذية والجينية اللتين ثارتا عليها بسبب تطبيقها لنظام الطبقات غير العادل فى المجتمع ، مما اضطر معه البوذيون والجينيون بالانتقال إلى المناطق الشمالية لبلاد الهند ولا سيما إلى بلاد السند ، وكان أصحاب الديانة البرهمية بجانب اشتراكهم فى المناظرات والمباحثات الدينية لإيجاد حجج بل حيل لقمع أصحاب المذاهب الأخرى ، كانوا يستغلون سلطتهم السياسية أيضاً فى القضاء على المذهبين الآخرين ، ويقومون بالقتل الجماعى والتعذيب الوحشى لأتباعهما بتأييد الحكام أنفسهم ، ولاشك فى أن سكان بلاد الهند وبلاد السند ما عدا البراهمة كانوا يعيشون فى هذا الوقت فى الفوضى المذهبية والفكرية والقلق النفسى وعدم الشعور بالاستقرار الاجتماعى بل الخوف المستمر على الأرواح والأملاك ، وكانوا لذلك يفكرون فى الخلاص منها والبحث عن مذهب أو دين جديد عادل يضمن لهم الحرية الروحية والسعادة الاجتماعية.

دور التجار والجاليات العربية فى الدعوة إلى الإسلام:

وكان للتجار العرب نفوذ كبير فى سواحل بلاد الهند وكانوا قد حصلوا على الإذن للانتقال ببضائعهم التجارية من المدن الساحلية إلى المدن الداخلية الأخرى ، كما كانوا ينتقلون من ميناء إلى ميناء بسفنهم التجارية ، وكان البراهمة لا يرون خطراً للإسلام والمسلمين سياسياً لقلة عدد العرب ، وبالتالى لم يكونوا يهتمون بالتجار العرب أو قيامهم بالتبليغ للإسلام بقدر اهتمامهم الشديد بالبوذيين ومحاربتهم سياسياً ومذهبياً لأن التجار العرب بجانب كونهم من الأقلية كانوا يساهمون بقسط كبير فى النشاط التجارى وفى زيادة الدخل القومى لبلاد الهند مع عدم تدخلهم فى الأمور السياسية فيها ، ولذلك كان الحكام والعوام يعاملونهم معاملة طيبة وباحترام بالغ ، وكانوا يهتمون بأقوالهم وأفعالهم أيضاً ، بذلك كان العرب فى مأمن من الضغط المذهبى والسياسى وبعيدين عن شر البراهمة ولذلك عاشوا فى استقرار وطمأنينة ، قائمين بشعائرهم الدينية ومبلغين للإسلام فى كل ناحية وفى كل مناسبة بطريقة عادية غير منتظمة.

ويبدو أن نفوذ هؤلاء التجار العرب أو تلك الجاليات العربية قد ازداد بعد دخول العرب فى الإسلام ، فقد ذكرت الكتب التاريخية عن قيام جاليات عربية جديدة فى المدن الساحلية ببلاد الهند ابتداء من أوائل القرن الأول للهجرة إلى القرن الرابع الهجرى كما ظهر التقدم بوضوح فى جميع مجالات الحياة عند هؤلاء العرب بعد مجئ

الإســـلام ، وبالتالى أثر فى الحالة التجارية وساعد على توسع ميدانها ولا سيما بعد استيلاء العرب على غرب آسيا وشـــمال أفريقيـــا بعـــد الفتوحات الإسلامية فيها ، وبذلك اتسعت دائرة التجارة العربية حيـــث كانت السفن التجارية تتحرك من موانى البحر الأبيض المتوسط وتسير إلى موانى بلاد السند وبلاد الهند وخليج البنغال (بنكلاديش) ثم إلـــى بلاد الصين وكان لذلك التقدم الشامل فى حياة العرب أثر كبيـــر فـــى زيادة نفوذ العرب بتلك السواحل الهندية وبالتالى فى زيـــادة انتشـــار الإسلام بها.

ولا شك فى أن العرب بعد أن دخلوا الإسلام وتغيرت حـــالتهم الفكرية والاجتماعية والاقتصادية بدأوا يهتمون بالناحية الدينية اهتماماً كبيراً ، وكانوا يرون تأدية الصلاة بالجماعة شعاراً اجتماعيـــاً مهمـــاً لدينهم ، فلم يكونوا يهملون أداء تلك الفـــرائض مراعـــاة للظـــروف الاجتماعية أو خوفاً من غضب أفراد المذاهب الأخرى وذلك لتأكـــدهم من صحة هذا الدين ولإيمانهم بحمايـــة الله لهـــم: " إن تنصـــروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم " فكان من أثر إصرارهم على المضـــى فـــى طريق الحق بتمسكهم بدينهم وإخلاصهم له أن اعترفـــت الحكومـــات الهندية المحلية أيضاً بحرية العرب فـــى الشـــئون المذهبيـــة وحـــق التصرف فى المعاملات الاجتماعية والاقتصادية حسب أحكام الشريعة الإسلامية ومنذ أواخر القرن الأول الهجرى أخذت الجاليات العربيـــة تزداد توسعاً بمرور الزمن حتى ارتفعت نسبة الســـكان العـــرب فـــى

بعض المناطق بالسواحل الهندية الجنوبية إلى عشرين فـــى المائـــة ، وهذه النسبة الكبيرة للعرب لم تكن نتيجة لقدوم العـــرب الجـــدد مـــن الخارج فحسب بل كانت أيضاً بسبب زواج العرب من نساء تلك البلاد وكثرة الإنجاب وكان أولادهم منهن يعاملون أيضاً كمعاملـــة العـــرب الأجانب وبالتالى كان يزيد عدد المسلمين ويزداد انتشار الإسلام.

وعلى العموم فإن التبليغ للإسلام فى القرن الأول الهجرى فى السواحل الجنوبية لبلاد الهند ، كان على أيدى هؤلاء التجار العـــرب والجاليات العربية المقيمة هناك ، ثم لما كثر كبار علماء الإســـلام ولا سيما فى القرن الخامس الهجرى بدأ هؤلاء العلماء فى تثقيف المسلمين وإدخال الكثيرين من غير المسلمين فى دائرة الإسلام ، وبذلك تعتبـــر الخدمة التى قدمها هؤلاء العرب التجار والجاليات العربية حتى القرن الخامس الهجرى ببلاد الهند أكبر خدمة للإسلام وأعظم هدية لهـــؤلاء الذين تشرفوا بدخولهم فى نور الإسلام.

(ب) انتشار الإسلام فى بلاد السند والبنجاب (باكستان الحاضرة):

علمنا مما سبق أن الجاليات العربية التـــى كانـــت تقـــيم فـــى السواحل الجنوبية لبلاد الهند قد دخلت الإسلام منذ بداية القـــرن الأول للهجرة ، وكانت تعيش وتعمل فى رعاية الحكومات الهنديـــة وتتمتـــع بالحرية الدينية والاحترام والرفاهية ، ولكن التاريخ لا يذكر لنا بـــأن مثل تلك الحالة كانت موجودة فى السواحل السندية أيضاً قبـــل الفـــتح

العربى لبلاد السند والبنجاب كلها فى أواخر القرن الأول الهجرى ، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن الحكام المحليين فى هذه المناطق السندية لم يكونوا يرحبون بالعرب مراعاة لمصالحهم المختلفة ، لأن الدولة العربية الإسلامية كانت قد اتسعت كثيراً فى منتصف القرن الأول للهجرة حتى أخذت تقترب من حدود بلاد السند وكادت تحيطها من كل جانب ، ولذلك كان حكام بلاد السند يخشون سياسياً على مصالحهم الشخصية والوطنية ، وبالتالى لم يكونوا يشجعون على الاقامة على السواحل السندية حتى لا يصبح أثر أو نفوذ على تلك المناطق ، وكذلك العرب أنفسهم كانوا يفضلون مجرد المرور بموانيها مثل ميناء الديبل وميناء تيز ولا يميلون للإقامة فى تلك السواحل السندية لوجود القراصنة من أهل السند وعدم سيطرة الحكام عليهم ، وأيضاً لوجود الأخطار فى الطرق التجارية فى داخل بلاد السند والبنجاب بسبب اقامة بعض القبائل السندية الخطيرة مثل قبيلة الزط وقبيلة الميد على مقربة منها بقصد القيام بالهجوم على القوافل التجارية ونهب أموالها وقتل من يعترض طريقها ، هذا بالإضافة إلى رداءه المناخ الصحراوى وقلة المياه وكثرة الهضاب فى بلاد السند ، فتلك الأسباب لم تكن تشجع العرب على ركوب المخاطر والمغامرات وإلقاء الأرواح إلى التهلكة فى سبيل التجارة ، ولذلك لم تكن للعرب جاليات فى تلك السواحل أو الولايات السندية قبل الفتح العربى.

العرب فى إقليم مكران بالسند ودورهم فى نشر الإسلام:

ولكن لا ننسى بأن هناك منطقة واحدة من مناطق بلاد السند الواسعة وهى (منطقة مكران) التى اعتبرها كثير من الجغرافيين العرب وغيرهم إقليماً مهماً من أقاليم تلك البلاد فى ذلك العهد ، وباباً للدخول إلى بلاد السند ، فهذه المنطقة كانت فى أيدى العرب منذ أوائل القرن الأول للهجرة وكان الوالى الأموى يحكمها بصفة رسمية من قبل الخلافة الأموية ، ولذلك يمكن لنا القول بأن كثيراً من التجار العرب وأفراد الجاليات العربية كانوا يقيمون فى ولاية مكران قبل فتح العرب لبلاد السند ، وذلك منذ خلافة معاوية إلى سنة ٩٢ هـ التى تم فيها فتح جميع أقاليم بلاد السند ، وبالتالى نستطيع أن نقول بأن العرب قد أثروا فى سكان مكران من الناحية المذهبية والفكرية فى تلك الفترة التاريخية المبكرة ولاسيما فى البونيين الذين كانت لهم صلة قوية بالسكان فى داخل بلاد السند ، وعن طريقهم كانت أخبار العرب وأخبار دينهم الإسلام تصل إلى جميع سكان بلاد السند.

فلم يكن من السهل أن يتغلغل العرب المسلمون إلى داخل بلاد السند فى أوائل القرن الأول للهجرة وقبل الفتح العربى لأسباب جغرافية واجتماعية وسياسية كما أشرنا إليها ، ولكن هذا كله لم يمنع أهل السند من الاختلاط بالعرب قبل الفتح العربى ، بأهل السند لم يكونوا خائفين من السفر فى البحار بعكس ما كان عليه بعض الهنود فى جنوب الهند ، فقد كان يشاهد بعض المسافرين من أهل السند

عل السفن العربية بل كان كثير من السند يقيمون فى البلاد العربية نفسها ، فمثلاً فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب حين فتح العرب بلاد فارس إنضم عدد كبير من أفراد قبيلة الزظ السندية إلى الجيش العربى وأعلنوا إسلامهم بعد أن قرروا الانفصال عن الجيش الإيرانى ، ونقلوا جميعاً إلى العراق وسكنوا بعض المناطق والبطاح الواقعة بين مدينة البصرة ومدينة واسط ، وأخذ عددهم فى الازدياد حتى بلغ فى عهد الخليفة المعتصم العباسى سبعة وعشرين ألف سندى وقاموا بفتن واضطرابات ضد الدولة العباسية وكان الخليفة على بن أبى طالب قد عين بعضاً من السند على مصارف البصرة لمهارتهم فى الأعمال المصرفية والحسابات وكذلك كان حراس الخليفة عثمان بن عقان من أفراد قبيلة الزط السندية وقد دافعوا عنه يوم شهادته حتى قتلوا جميعاً على بابه قبل أن يستشهد هو رضى الله عنه وهكذا نجد فى التاريخ أمثلة كثيرة عن اتصالات السند بالعرب قبل الفتح الإسلامى لبلاد السند ، وعن دخولهم فى الإسلام ، ولا شك فى أن هؤلاء كانو يسافرون بين حين وآخر إلى بلادهم ويخبرون ذويهم وأقرباءهم وأحبابهم عن الإسلام وتعاليمه السامية وسماحته الكبيرة ، ولذلك يمكن لنا القول بأنه إن لم يكن جماعات من أهل السند قد دخلت الإسلام فى داخل بلاد السند خوفاً من حكامهم ولا سيما من البراهمة فى أوائل القرن الأول للهجرة قبل الفتح الإسلامى لبلاد السند ، فإن النفوس كانت قد استعدت لقبول الإسلام بعد أن مهد لها الطرق بواسطة السند

الرحالين والمقيمين فى البلاد العربية ، ولا سيما البوذيين منهم الـذين كان بعض تعاليم مذهبهم يدعو إلى نشر الخيـر والعـدل والمسـاواة والمحبة بين أفراد المجتمع ، ولكنهم كانوا محرومين من هذه الحقـوق فى بلادهم بسبب نظام الطبقات فى المذهب البرهمى المسيطر علـى الدولة والشعب فى بلاد السند.

على أن أهم الأسباب لعدم اهتمام العرب أو رغبتهم فى الإقامة والتجارة فى سواحل السند كان هو وجود القراصنة الأقويـاء الـذين كانوا يهابون سلطة الدولة ويهاجمون السفن التجارية العربية المـارة بميناء الديبل ببلاد السند فى طريقها من الموانى العربية إلى المـوانى الهندية ثم موانى البنغال وموانى الصين ، وكانـت هـذه الهجمـات للقراصنة كثيراً مما تتكرر ، ولذلك كانت السفن العربية التجارية قلما تقف عند ميناء الديبل ، وكانت الدولة الأموية تشكو دائماً عن ذلك إلى الحكومة السندية ولكن بلا جدوى ، حتى أن استولى هؤلاء القراصـنة على السفن العربية الثمانية المحملة بالبضائع والهدايا والتحف الثمينة ، التى أهداها ملك سيلان إلى الخليفة الأمـوى الوليـد بـن عبـدالملك والحجاج والى العراق ، وكانت فى تلك السفن بعض النسوة العربيات فى طريقهن إلى الحج ، وقد نهب القراصنة كل البضائع والتحف بـل خطفوا النساء والتجار العرب أيضاً إلى داخل مدينة الديبل ، واعتـذر داهر ملك بلاد السند عن عدم استطاعته فـى إعـادة تلـك النسـوة والعـرب ، ونفد صبر الحجاج فأرسل حملتين لإنقـاذ تلـك النسـاء

وهؤلاء العرب التجار وفشلت الحملتان واستشهد القائدان العربيان وأسر أفراد جيشهما العربى ، وعندئذ قرر الحجاج فتح بلاد السند بقيادة القائد الشاب محمد بن القاسم الثقفى فى سنة ٩٢ هـ.

وبفتح بلاد السند والبنجاب فتح باب جديد هام فى تاريخ الإسلام ، كما فتح باب مشرق فى تاريخ بلاد السند والبنجاب خاصة وتاريخ شبه القارة الهندية عامة ، وقد كان ذلك إنقلاباً عظيماً فى تاريخ حياة شعوب تلك المنطقة فى العالم وسبباً هاماً لإنتشار الإسلام فى بلاد السند والبنجاب ، وبذلك تحول مركز التبليغ للإسلام من السواحل الجنوبية ببلاد الهند إلى بلاد السند رغم وجود العرب التجار والجاليات العربية بالكثرة الهائلة فى تلك السواحل الهندية ، وبذلك قل نشاط العرب المسلمين بالسواحل الهندية فى ميادين التجارة ونشر الإسلام هناك بالمقارنة مع الحالة الجديدة بعد الفتح العربى لبلاد السند التى صارت مركزاً هاماً للتبليغ للإسلام فى شبه القارة الهندية ، وذلك أن كثيراً من التجار العرب فى سواحل بلاد الهند قد هاجروا إلى بلاد السند بعد قيام الدولة العربية فيها ليعيشوا تحت رعاية حكومتهم العربية الإسلامية التى فتحت أسواقاً تجارية جديدة بعد القضاء على أخطار القراصنة والقبائل السندية فى البحر والبر ، وملت على سهولة المواصلات وربط بلاد السند ببلاد فارس لقربها من البلاد العربية ، ثم ظهرت بعد ذلك حركات الدعوة إلى الإسلام فى بلاد السند بواسطة الحكومة العربية بها.

٧ - دعوة محمد بن القاسم الثقفى إلى الإسلام:

بعد أن انتهى القائد محمد بن القاسم من فتح عاصمة بلاد السند سنة ٩٢ هـ وجه الدعوة إلى الأمراء والحكام والوزراء والأعيان بل إلى عامة الشعب للدخول فى الإسلام وقد نجح إلى حد بعيد فى إدخال كثير من الزعماء وجماعات كبيرة من أهالى بلاد السند ولا سيما البوذيين منهم فى الإسلام ، وكان النجاح بفضل تعاليم الإسلام السمحة العادلة التى سمع عنها هؤلاء القوم ثم بفضل الصفات الإنسانية التى كان يتحلى بها ذلك القائد الشاب الذى رفع الله شأنه رغم صغر سنه لخير الإسلام.

يرى بعض المؤرخين الأجانب أن دخول بعض من هؤلاء السند فى الإسلام كان انتهازاً للفرص ولأغراض شخصية ، ولكننى أرى أنه من المؤكد أن الغالبية منهم قبلوا الإسلام عن دراسة واسعة وعن عقيدة راسخة فى القلوب ، لأنهم وجدوا فى الإسلام وفى أعمال العرب أنفسهم صفات طيبة ، وأحبوا أن يعتنقوا هذا الدين الحنيف ليعيشوا مثل العرب أحراراً فى دينهم ومعززين فى حياتهم ، وكذلك قارن هؤلاء القوم تعاليم الإسلام بتعاليم دينهم القديم فى النواحى الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية ، فوجدوا فى الإسلام معانى سامية وأحكاماً عادلة لخير البشرية فضلاً عن دعوة الإسلام إلى عبادة الله الواحد القهار ، فكل هذا شجعهم على قبول الإسلام من تلقاء أنفسهم كما حدث مثل ذلك من قبل فى بلاد أخرى.

ونذكر هنا بعض الأمثلة لمن دخل الإسلام على يد القائد محمد بن القاسم فى أيام الفتوحات ، من الأفراد والجماعات ، ومن القبائـــل والجيوش ، ومن العلماء والزعماء ، ففى مدينة الديبل بعد فتح العرب قلعتها التى كان بها الأسرى العرب فكان معهم رجل ســـندى يســـمى (قبله بن مهترائج) ويعمل مديراً للسجن الذى كان فيه التجار العـــرب والنساء العربيات وجنود القائد الشهيد بديل ، ويبدو أنـــه تـــأثر مـــن الناحية الفكرية لاختلاطه بهم نحو سنتين أو أكثر ، ولذلك كان يرعاهم رعاية طيبة ، وكان الحجاج قد أمر بقتل كل من يحمل الســـلاح فـــى داخل القلعة انتقاماً لهؤلاء الجنود الشهداء وقوادهم الذين ذهبوا ضحية فى سبيل إنقاذ التجار والنساء ، ونفذ محمد بن القاسم أمـــر الحجـــاج فـــيهم ، ولما جاء دور هذا الرجل السندى ، قال لمحمد بن القاسم أنه كان يرعى العرب المسجونين رعاية كريمة وكان يصـــبرهم فلـــذلك يرجو العفو ، ولما تأكد محمد بن القاسم من صدق قوله عفا عنه ، بل فرض إليه مهمة الإشراف على الأمور الاقتصادية بمدينة الديبل وتأثر بمعاملة محمد بن القاسم هذا فأعلن إسلامه لديه ، وكان صـــادقا فـــى إسلامه ومخلصاً له ، ولذلك قربه القائد محمد بن القاسم الثقفـــى إليـــه أكثر وعينه مترجماً لرئيس الوفد العربى المعروف بالشامى وأرسلهما إلى داهر ملك السند لتوجيه الإنذار إليه وكان الملك يعرف هذا الرجل ونفهم من بيان مؤلف كتاب ججنامه أنه كان يعرف اللغة العربية أيضاً ولذلك كلف بهذه المهمة الخطيرة ، ويبدو أنه تعلم العربية من العـــرب

المسجونين بمدينة الديبل حين كان مديراً للسجن ويعتبر هذا الرجل هو أول سندى دخل الإسلام فى أيام الفتوحات وكـان برهمـى المـذهب وعلى ذلك فإن أول من دخل الإسلام ببلاد السند لم يكن بوذياً بل كان برهمياً ، بالرغم من أن البوذيين كانوا متفاهمين مع المسلمين أكثر من البرهميين.

وفى سيوستان من أقليم بلاد السند ، بعد أن فتحها العرب جاء وفد من قوم " جنه " المقيمين فى منطقة تابعة لإقليم سوستان وعرضوا الطاعة للعرب وبعد أيام دخل هؤلاء القوم بجملتهم فى الإسلام وكانوا يعتنقون المذهب البوذى ، وبذلك يعتبر هؤلاء أول جماعة كبيرة مـن أهل السند البوذيين يدخلون فى الإسلام أيام الفتوحـات عـن رغبـة وعقيدة بعد دراسة تعاليم الإسلام وصفات العرب الحميدة.

وكان والى مدينة النيرون البوذى ورجاله الخواص متصـلين بالحجاج مبايعين له بالطاعة ، لا بعد الفتح العربى لبلاد السند بل قبل الفتح بعام تقريباً ، وحين دخل القائد محمد بن القاسم مدينـة النيـرون رحب به الوالى وفتح له باب المدينـة ، وصـار مسـاعداً عسـكرياً وسياسياً له وساعده فى كثير من مراحل فتوحاته لاسيما فى سيوستان بأخذ البيعة من أتباعه الكثيرين من البوذية هناك ، فهذه البيعة المبكرة وهذا الولاء وهذه المساعدة الكبيرة تدل كلها على ميل الوالى وقـواده وخواصه بل شعبه إلى الإسلام ، ولا توجد بيانـات واضـحة عـن دخولهم فى الإسلام فى أيام الفتوحات ولكن الأحداث التاريخيـة فيمـا

بعد تشير إلى ذلك لعدم ذكر البوذية فى هذه المنطقـة فـى السـنوات القادمة بل القرون التالية لعهد الفتوحات الإسلامية ، فهم فى الغالـب دخلوا فى الإسلام من أنفسهم بعد إندماجهم فى صفوف العـرب فـى الحكومة والجيش ببلاد السند.

وفى يوم القتال الرهيب والحرب المصيرية بـين محمـد بـن القاسم وبين داهر ملك السند ، توجه بعض من القواد السند مع فرقهم من الجيش أثناء المعركة إلى محمد بن القاسـم ، وأعلنـوا إسـلامهم لديـه ، ثم عرضوا عليه خطة عسكرية وهى أن يأذن لهم بأن يقوموا بمهاجمة مؤخرة جيش داهر على غفلة فى حين يقوم الجيش العربـى بهجوم شامل على الجيش السندى من الأمام ، فوافق محمد ابن القاسم على الخطة وجعل مروان بن أشجم اليمنى وتميم بـن زيـد القيسـى قائدين عليهم ، ففاجأوا العدو بالهجوم من الخلف ، فى الوقت الذى قام الجيش العربى بحملة عنيفة من الأمام ، فدخل الرعب فـى القلـوب وتذبذب الجيش السندى واضطرب اضطراباً شديداً وقتل الكثيرون من أفراده وهذه هى المجموعة الثانية الكبيرة من أهل السـند والجماعـة الأولى من البرهميين تدخل الإسلام على يد محمد بن القاسم نفسه أيام الفتوحات لا بالقوة وإنما بالرغبة وعن إيمان ويقين بعظمة الإسـلام ، مع أن الحرب كانت لاتزال دائرة وكان الملك العظيم لا يـزال علـى أشد قوته حياً يحارب بعزم وصلابة ولم يكن من السهل معرفة نتيجـة هذه المعركة المصيرية ، وكان عدد أفراد الجيش العربى لا يزيد على

اثنى عشر ألفاً ، بينما كان عدد أفراد الجيش السندى يزيد على مائة ألف مقاتل وتسعين من الفيلة المقاتلة ، بالإضافة إلى كثرة الأسلحة لدى السند ووفرة المواد الغذائية فضلاً عن معرفة أهل السند بخبايا بلادهم ، وهذه الواقعة تدل على أن الذين كانوا يدخلوان الإسلام أو يعلنون الطاعة للعرب من الزعماء والحكام والقواد قبل مقتل داهر مثل حاكم النيرون البوذى وحاكم منطقة بت البوذى الأمير كاكه بن بسايه وإخوته ووالدهم ، وكبار القواد فى الديبل والنيرون وسيوستان ثم بعض الوزراء مثل سياكر وزير داهر وكذلك بعد مقتل داهر دخل فى الإسلام كثير من حكام وأمراء المناطق الأخرى مثل الأمير كاكه بن جندر وهو ابن عم الملك وحاكم منطقة البانية الواسعة تدل على أن ذلك كان حسب رغبتهم فى الوقت الذى كانوا لايزالون أقوياء ، وكان قبولهم الدخول فى الدين الإسلامى لعلمهم بسماحة الإسلام وعدالته ولا سيما الصفات الإسلامية الإنسانية التى كان يتحلى بها القائد محمد بن القاسم ، فلم يكن إسلام هذا العدد الكبير من القواد والحكام والآلاف من أفراد القبائل والجيوش والعوام من أهل السند وقبولهم الطاعة أيام الفتوحات بالقوة والإكراه كما يدعى ذلك أعداء الإسلام وأعداء الأمة السندية المسلمة من المؤرخين الأجانب وغيرهم.

وكانت أغلبية الشعب السندى تسكن المدن والأقاليم الواسعة مثل الديبل والنيرون وسوستان وراور وغيرها ، وقد رأينا كيف دخلت الأفراد والجماعات والقبائل الكثيرة بتلك المناطق فى الإسلام

فى عهد محمد بن القاسم والبقية منهم قد قبلوا الطاعة للعـرب ، ولـم نسمع بعد ذلك أنهم قاموا بالحركات المعادية ضـد العـرب إلا فـى حالات قليلة ، ولعل الكثيرين من هؤلاء أيضاً دخلوا الإسلام فى عهـد محمد بن القاسم ثم فى عهد من جاء بعده من الولاة العرب ، وخاصة أصحاب المذهب البوذى منهم الذين لم نسمع أخبارهم بعد ذلك ، وفى الغالب دخل البوذيون المقيمون بتلك المناطق الهامة فـى الإسـلام ، ويدل على ذلك ترحيبهم الحار للعرب ، ومساعدتهم لهم فى القضـاء على سلطة البراهمة ، ودخول جماعات كبيرة عديدة منهم فى الإسلام أيام الفتوحات نفسها ، وبما أن الأكثرية من الشعب السندى كانوا مـن البوذية رغم كون الحكومة من البراهمة فى أيام الفتح العربى يمكن لنا القول بأن أغلبية الشعب السندى قد دخلوا الإسلام فى عهـد العـرب الذى استمر أكثر من ثلاثة قرون من الزمن ، وقد وقعت مثـل هـذه الواقعة من قبل حين تقرب البوذيون من العرب المسلمين ببلاد فارس وتركستان وأفغانستان ودخلوا الإسلام فى سنوات قليلة بعد فتح تلـك البلاد مباشرة ، ولابد أن البوذية فى بلاد السند قـد سـمعوا أخبـار البوذيين الذين تشرفوا بقبول الإسلام قبلهم فى الـبلاد الآخـرى ومـا وصلوا إليه من مكانة إجتماعية وسياسية فى تلك البلاد بعد إسـلامهم وبفضل معاملة العرب الطيبة لهم ، مما شجع ذلك سكان بلاد السـند البوذيين فى قبول الإسلام والاندماج فى العـرب بسـرعة وبرغبـة شـديدة ، وكذلك يمكن لنا القول بأنه لولا كون البوذية أغلبية الشـعب

السندى لكان من الصعب استمرار العرب فى الحكم لقرون عديدة فى تلك البلاد الواسعة بسبب ظروف كثيرة سياسية وقبلية واجتماعية.

ومن ناحية أخرى يبدو أن الديانة البوذية فى عهد العرب ببلاد السند كانت تمر بمرحلة دقيقة جداً لدرجة أن علماءها أيضاً لم يكونوا ينظرون إلى دينهم بعقيدة راسخة ، ولعل أهم سبب فى ذلك كان يرجع إلى العوامل السياسية والنفسية والاجتماعية ، وكانت الديانة فى المناطق التى كانت فى أيدى الحكام البراهمة قد أخذت تضمحل بالتدرج نتيجة للاضطهاد المذهبى الوحشى من جانب البراهمة فى الوقت الذى كانت الديانة البرهمية تأخذ طريقها من جديد لوصول إلى مكانتها المذهبية والسياسية القوية السابقة ، وأما الأغلبية من البوذيين الذين كانوا يقيمون فى المناطق التى يحكمها الحكام العرب قد دخلوا الإسلام كما قلنا حين وجدوا فى تعاليمه كل معانى الخير من عدالة اجتماعية وحرية دينية ولا سيما طريقاً للخلاص من مظالم البراهمة.

الدعوة الثانية إلى الإسلام:

كانت الدعوة الثانية المنظمة الكبيرة إلى الإسلام ، هى دعوة الخليفة الصالح عمر بن عبدالعزيز الأموى ، وإجابة لهذه الدعوة المباركة دخل فى الإسلام عدد كبير من الأمراء والحكام فى بلاد السند وخارجها ، وكان معظمهم من البوذية والأقليمة من البرهمية ، من بينهم الأمير جيسيه بن داهر ولى عهد بلاد السند وشقيقه الأمير صصه بن داهر ، وكان جيسيه فى هذا الوقت يحكم منطقة برهمناباد

التى خرجت من أيدى العرب منذ الاضطرابات السياسية التى قامت بعد مقتل القائد محمد بن القاسم بالعراق سنة ٩٦ هـ ولاشك في أن الحاكم إذا دخل الإسلام لابد أن تتبعه أغلبية شعبه ولا سيما معظم قواده ورجال حكومته ، وعلى ذلك دخلت جماعات كبيرة من البرهميين فى الإسلام فى عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز العادل رحمه الله.

الدعوة الثالثة إلى الإسلام:

كانت الدعوة الثالثة المنظمة الكبيرة من طرف الخليفة المهدى العباسى فى سنة ١٥٨هـ ، فبعد توليه الخلافة اهتم بالتبليغ والدعوة للإسلام ، فكتب رسائل رقيقه فى هذا الموضوع إلى كثير من حكام وملوك وأمراء العالم وبعث إليهم وفوده من العلماء ليدعوهم إلى الإسلام وكان معظم هؤلاء الحكام من الذين يخضعون لسلطان الخليفة العباسى السياسى ، فقد كان من ثمرة هذه الدعوة المقدسة أن دخل فى الإسلام خمسة عشر ملكاً وأميراً وكانوا يحكمون مناطق مختلفة من بلاد السند وعلى حدود مع بلاد الهند.

وهكذا أخذ الإسلام ينتشر يوماً بعد يوم وتتسع دائرة انتشاره ، بفضل تلك الدعوات شبه الرسمية إلى الإسلام والعلاقات الطبية بين العرب المسلمين وأهالى السند غير المسلمين ، وكذلك بسبب صلات القرابة والنسب بين العرب وأهل السند المسلمين فى تلك المنطقة من العالم.

وذكر البلاذرى أن ملكاً هندياً وهو ملك ولاية عسيفان قد دخل الإسلام ، وكانت عسيفان فى ذلك الوقت تقع فى إقليم البنجاب على الحدود مع بلاد الهند ، ولكنها لم تكن تتبع حكومة العرب فى الملتان وكان سبب دخوله فى الإسلام هو عدم شعوره بالارتياح والاطمئنان فى مذهبه وكان فى الغالب برهمى المذهب.

وكذلك فى عهد الأمير عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز الهبارى أمير الدولة العربية الهبارية ببلاد السند فى سنة ٢٧٠ هـ ، طلب منه ملك لمنطقة سندية مجاورة لمدينة المنصورة عاصمة تلك الدولة العربية ، أن يبعث إليه بتعاليم الإسلام لرغبته الشديه فى معرفتها ، فألف شاعر عربى قصيدة باللغة السندية عن تعاليم الإسلام فأرسلها أمير المنصورة إليه ، بأعجب الملك بها كثيراً وطلب حضور الشاعر العالم نفسه الذى ظل معه ثلاث سنوات يفسر له القرآن الكريم كله ثم ترجمه فى النهاية إلى اللغة السندية حتى أعلن الملك إسلامه لدى هذا العالم العربى وهناك أمثله كثيرة عن دخول عظماء بلاد السند والملتان والأمراء والقواد فى الدين الإسلامى برغبتهم بعد دراسة دقيقة لحقائق الإسلام ومبادئه الاجتماعية العادلة.

زيادة انتشار الإسلام بسبب عملية المزج بين الأمم:

نلاحظ أن فتح العرب للبلاد الآخرى تسبب فى عملية مزج واسعة قوية بين العرب الفاتحين والأمم المفتوحة ، مزج فى الدم ومزج فى النظم الاجتماعية ومزج الآراء العقلية ، وكان من أهم

أسباب هذا المزج تعاليم الإسلام فى الفتح ، ودخول كثير من أهل البلاد المفتوحة فى الإسلام ، والاختلاط بين العرب وغيرهم فى السكن والعمل فى البلاد.

وتقضى تعاليم الإسلام فى الفتح بأنه أراد المسلمون غزو بلد وجب عليهم أولاً أن يدعوا أهله دخول الإسلام فإن أسلموا كانوا هم وسائر المسلمين سواء فى الحقوق والواجبات ، وإن لم يدخلوا الإسلام دعوهم إلى تسليم بلادهم للمسلمين يحكمونها ويبقون هم على دينهم إذا أرادوا ذلك ويدفعون الجزية للعرب فإن قبلوا ذلك كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ، ويكونون فى ذمة المسلمين يحمونهم ويدافعون عنهم ومن أجل هذا يسمون " أهل الذمة " وإن لم يقبلوا الإسلام ولا الدخول تحت حكم المسلمين ولا دفع الجزية أعلنت عليهم الحرب وقوتلوا وفى أثناء القتال يحل للمسلمين أن يقتلوا المحاربين ومن يعينهم على الحرب ، فأما المرأة والطفل والشيخ الفانى والأعمى ونحوهم فلا يجوز قتلهم فى الإسلام ، مالم يكن أحدهم ذا رأى فى الحرب يؤلب الكفار على المسلمين ، وبعد الحرب يمكن للمسلمين أن يأخذوا الأسرى عبيداً وجوارى ثم بعد ذلك لهم الحق فى أن يطلقوا سراح الأسرى مناً وكرماً أو فى مقابل فدية ، ويدل على ذلك قوله تعالى : (حتى إذا أثخنتموهم فى الحرب فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء) أما أهل البلد المفتوح غير المحاربين فيدفعون الجزية.

وكان كثير من أهل البلاد المفتوحة يقعون فى الأسر فى أيدى العرب الفاتحين أثناء الحرب أو القتال ويصبح كثير منهم عبيداً وجوارى للعرب ، وكان لهؤلاء العبيد والجوارى أثر كبير فى عملية المزج بينهم وبين العرب من نواح عديدة ، وكان العرب يطلقون سراح العبيد والجوارى بعد مدة من الزمن ويردون لهم حريتهم إذا دخلوا الإسلام أو أحسنوا الخدمة أو بلغوا درجة من العلم والكمال ، وكان للعرب الحق فى الاستمتاع بالاماء وإذا ولدت الأمة ولداً من سيدها تسمى " أم ولد " وتبقى فى ذمته ولا يحق له أن يبيعها لأحد بل وجب عليه رعايتها طول العمر وإذا مات هو صارت حرة ، فالأولاد الذين كانوا يأتون إلى الوجود عن طريق الإماء كانوا كثيرين فى العدد وكانوا يتبعون الآباء فى الدين وبذلك كان أيضاً يزيد عدد المسلمين ويزيادة عددهم يزداد انتشار الإسلام بين الآخرين بالتأثر الفكرى والاجتماعى ، وقد انتج هؤلاء الأرقاء والموالى والإماء الذين دخلوا الإسلام ، أنتجوا فى الجيل الثانى لعهد الفتح عدداً كبيراً من خير المسلمين وكان منهم من حمل لواء العلم والمعرفة فى تلك البلاد.

ومن عوامل الامتزاج وإنتشار الإسلام أيضاً دخول شعوب البلاد المفتوحة فى الإسلام ، فقد دخل الإسلام كثير من أهل البلاد المفتوحة وامتزجوا بالعرب كأنهم منهم بعد الفتح وخدموا الإسلام بإخلاص فى تلك المناطق من العالم.

وكذلك الاختلاط فى السكنى والعمل يعتبر من عوامل الامتزاج وانتشار الإسلام ، فقد صارت البلاد المفتحة مسكونة بالفاتحين العرب والمفتوحين من أهل البلاد واشتركوا جميعاً فى الحركة الاجتماعية والاقتصادية ، وبالتالى تأثر أهل البلاد المفتوحة بأفكار الفاتحين من الناحية المذهبية والفكرية ، مما أدى ذلك أيضاً إلى إنتشار الإسلام بين الطبقات المختلفة.

وكان لهذه العوامل التى ذكرناها أثرها فى الامتزاج بين العرب وأهل البلاد المفتوحة ، وبالإجمال فإن كل مرافق الحياة والنظم السياسية والاجتماعية والفكرية تأثرت تأثراً كبيراً بهذا الامتزاج الذى ساعد كثيراً على إنتشار الإسلام فى تلك البلاد الواسعة.

دور المساجد فى نشر الإسلام وخدمة العلم:

مما هو جدير بالذكر والتقدير هنا أن محمد بن القاسم الثقفى – رغم صغر سنه وكونه قائداً عسكرياً ورغم ما كان ينتظره من المشاق والجهود والحروب والمخاطر منذ اليوم الأول الذى وضع فيه قدمه على أرض بلاد السند فى سنة ٩٢ هـ اهتم بالأمور الدينية والإسلامية اهتماماً عظيماً وفكر فى وضع الخطة السليمة لتبليغ الإسلام التى عرف حالياً باسم دولة باكستان ، والتى حكمها العرب حكماً إسلامياً حتى سنة ٤١٦ هـ.

ففى أيام الحروب والفتوحات وذلك فى خلال ثلاث سنوات متوالية ، قبل أن يتفرغ تماماً من فتح كل أجزاء بلاد السند ، بل حتى

قبل حربه المصيريةمع داهر ملك السند وقبل سقوط العاصمة السندية وقبل الاستيلاء على الأقاليم الشرقية ذات الحصنون المنيعة والقلاع العظيمة التى كانت مدججة بآلاف من الجنود وأنواع الأسلحة الخطيرة ، وقبل إخضاع المدن الكبيرة التى يحكمها أمراء عظام ، فإنه حين بدأ بالفتح فى المناطق الغربية لبلاد السند ، كان يقيم المساجد فى كل مدينة كبيرة يفتحها ويسكنها عدداً كبيراً من العرب ويعَين الأئمة والعلماء والقضاء لأداء الشعائر والفرائض الدينية وإدارة الشئون المذهبية والتعليمية ، فهذا التصرف من جانب ذلك القائد يدل على شيئين مهمين: أولهما هو اعتماده القوى على الله ، وإيمانه الكامل بأن الله سينصره فى كل خطوة من خطواته ما دام قد أخلص النية لله وفى سبيل الله ولإعلاء كلمة الحق والدين ، رغم قلة العدد وقلة العُدد ، ورغم المصاعب والمشاكل التى تحيط به من كل جهة ، مثل سوء المناخ وقلة المواد الغذائية ومخاطر القبائل السندية كالزط والميد ، وثانيهما هو اهتمامه الشديد بالأمور الدينية والسعى للدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة أيماناً منه بأن الدين هو دستور الحياة ، لقد اهتم بالأمور الدينية رغم الظروف القاسية وذلك بالعمل على تطبيق تعاليم الإسلام على العرب المقيمين فى تلك المناطق ونشر هذه التعاليم بين أهل بلاد السند الذين يرغبون فى معرفة حقيقة الإسلام أو الدخول فى هذا الدين الحنيف.

ولا شك فى أن تلك المساجد بجانب إقامة الصلوات الخمس والشعائر المذهبية وتدريس العلوم الإسلامية فيها ، قد جذبت انتباه أهل السند وأوجدت عندهم حب الاستطلاع والمعرفة عن الإسلام ، مما أدى ذلك إلى السعى لدراسة تعاليم الدين الإسلامى وبالتالى أدى إلى قبول الكثيرين منهم للإسلام عن رغبة صادقة وعقيدة راسخة فى القلوب على أيدى هؤلاء الأئمة والعلماء والقضاء والقائمين بمهمة التبليغ بجانب أداء واجباتهم الدينية ، نحو العرب المسلمين.

فمن المساجد التى بناها محمد بن القاسم فى أثناء فتوحاته فى المناطق الغربية ببلاد السند قبل حربه المصيرية مع داهر ملك بلاد السند مثل المسجد الذى بناه بمدينة الديبل فى سنة ٩٢ هـ والمسجد الذى أقامه فى مدينة النيرون فى سنة ٩٢ هـ أيضاً ثم من المساجد التى شيدها بعد انتهائه من ظهر علماء أجلاء من أهل السند أنفسهم فى المنصورة والديبل والملتان بصفة خاصة وفى المدن الأخرى بصفة عامة ، وكان لهؤلاء العلماء العرب بالاشتراك مع العلماء السند أثر كبير فى إنتشار الإسلام على مساحات كبيرة فى هذه البلاد ، وتعميم تدريس العلوم الإسلامية كالفقه والحديث والتفسير وكذلك اللغة العربية فى مختلف المناطق بين مختلف الطبقات.

وكذلك حين توسع الولاة العباسيون فى ميدان الفتح وفتحوا بعض المدن الهندية المجاورة لحدود بلاد السند أقاموا فيها بعض المساجد ، وإن لم يستمر حكمهم فيها سوى سنوات فى كل مرة ومنها:

المساجد التى أقامها الجنيد ابن عبدالرحمن المرى والى السند فى خارج بلاد السند على الحدود باقليم الكجرات الشمالية ببلاد الهند حين فتحها سنة ١١٣هـ تقريباً والمسجد الكبير الذى بناه هشام بن عمرو التغلبى والى بلاد السند بمدينة القندهار (كندهار) بعد فتحه لاقليم الكجرات ببلاد الهند فى سنة ١٥١هـ وكذلك المساجد التى بناها الفضل بن ماهان وولداه فى مدينة سندان وما حولها من المدن فى سنة ٢١٧هـ وما بعدها حين أقام هؤلاء الثلاثة دولة مستقلة لهم فى تلك المنطقة لفترة قصيرة من الزمن،

وكذلك بنى العرب مساجد أخرى كثيرة فى المدن السندية المختلفة أثناء حكمهم الذى استمر إلى سنة ٤١٦هـ ، فى بلاد السند ، ولا شك فى أنه كان لتلك المساجد دور كبير فى ميدان التبليغ للإسلام لكونها مراكز دينية إسلامية ، كما كان للأئمة والعلماء والقضاة القائمين بمهمة الدعوة إلى الإسلام وبتدريس العلوم الإسلامية واللغة العربية ، والعمل على نشرها بشتى الطرق خدمة لدين الحق ، دين التوحيد ، دين العدالة الاجتماعية ، دين الإنسانية ، حتى إذا ماوصلنا إلى أواخر القرن الرابع الهجرى والسنين الأخيرة من حكم العرب ببلاد السند والملتان وجدنا هذه المدن المشهورة وضواحيها إسلامية أو شبه إسلامية ، بمعنى أن معظم السكان فيها صاروا من المسلمين ولا سيما فى مدينة المنصورة وضواحيها ، ومدينة الملتان ونواحيها ، وفى المدن الأخرى الكبيرة نحو نصف السكان كانوا من المسلمين العرب

والسند ، ذلك بفضل هذه المساجد العامرة التى صارت أكبـر معاهـد للدرس والعلم ، كما أشتهرت تلك المدن الكبيرة وخاصة المنصـورة والملتان والديبل بجهود علمائها العظام وأصبحت مـن أهـم مراكـز الثقافة الإسلامية ، لا فى بلاد السند والملتان وحدها بل فى شبه القارة الهندية كلها ، وخرجت من هذه المساجد والمعاهد المئات من العلمـاء السند الذين شاركوا إخوتهم العلماء العرب فى نشر العلوم الإسلامية لا فى داخل بلاد السند بل حتى فى البلاد العربية ودار الخلافة العباسـية نفسها ، وقد وصل عدد كبير من هؤلاء العلماء السند إلـى مناصـب عالية فى الدولة بفضل الإسلام.

وهكذا رأينا كيف كان دور العرب التجار والجاليات العربيـة فى نشر الإسلام فى السواحل الجنوبية لبلاد الهند منذ فجر الإسـلام ، ثم كيف كان دور الحكومة العربية فى رفع راية الإسلام عالية خفاقـة فى بلاد السند والبنجاب منذ فتحها سنة ٩٢هـ إلى سـنة ٤١٦هـ ، وكان من نتيجة ذلك أننا نرى اليوم الباكستان دولة إسـلامية عظيمـة ونرى بنغلاديش أيضاً دولة إسلامية كبيرة وكـذلك نـرى عشـرات الملايين من الإخوة المسلمين فى بلاد الهند ، وبعبارة أخـرى نسـمع صوت الإسلام عالياً فى جميع أنحاء شبه القارة الهندية.

الفصل الرابع

الهند والسند والبنجاب فـــى العصــر الأمــوى

أ ــ ولاة السند والبنجاب فى عهد الدولة الأموية:

جاء والياً على هذه البلاد التى كانت لإقليم العراق فى عهد بنى أمية كل من:

عبدالرحمن بن سمرة سنة ٤٢ هـ = ٦٦٢م.

عبدالله بن سوار العبدى سنة ٤٣ هـ = ٦٦٣م.

سنان بن سلمة الهزلى ــ فاتح مكران ــ سنة ٤٨ هـ=٦٦٨م.

راشد بن عمر الجديدى الأزدى سنة ٤٩هـ=٦٦٩م.

أبو الأشعث المنذر بن الجارود العبدى سنة ٥١هـ=٦٧١م.

ابن حرى الباهلى سنة ٦١هـ=٦٨٠م.

سعيد بن اسلم بن زرعة الكلابى سنة ٧٥هـ=٦٩٤م.

عبيد الله بن أبى بكرة سنة ٧٩هـ=٦٩٨م.

محمد بن القاسم الثقفى ٨٩ (أو ٩٢هـ) = ٧١٠م.

يزيد السكسكى ٩٦هـ=٧١٤م.

حبيب بن المهلب بن أبى صفرة ٩٦هـ=٧١٤م.

ونود أن نخص كل من وفدوا بعد محمد بن القاسم بكلمة موجزة. فى عهد الخليفة **سليمان بن عبدالملك** ــ تولى كل من:

ــ يزيد السكسكى ، عهد اليه بالإمارة سنة ٩٦هـ=٧١٤م ، ولم يلبث فى عمله إلا ثمانية عشر يوماً توفى بعدها.

ــ حبيب بن المهلب بن أبى صفرة وهو أخ ليزيد بن المهلب والى العراق وخراسان ، وقد حاول القضاء على الفتن والاضطرابات

ونجح فى إعادة الاستقرار على كثير من البلاد ، بيد أنه لم يتمكن من التوجه إلى برهمان أباد ، وقد عزله الخليفة عمر بن عبدالعزيز بعد سنتين من امارته يعنى سنة ٩٩هـ ، وكان السبب اتهامه مع أخيه بالأشتراك فى مؤامرة ضد الخلافة.

وفى عهد خلافة عمر بن عبدالعزيز ، تولى على السند والبنجاب عمرو بن مسلم الباهلى أخو قتيبة ٩٩ـ١٠١هـ= ٧١٧ ـ ٧١٩م ، وقد تمكن من القضاء على الفتن ونشر الأمن والاستقرار فى أرجاء البلاد.

ومعروف عن خامس الخلفاء الراشدين ، اشتهاره بالعدل والإنصاف ، وقد كتب سنة ١٠٠هـ=٧١٨م رسائل إلى الأمراء والأعيان والقادة فى السند ، يدعوهم إلى الإسلام ، على أن يقرهم فى مناصبهم الحكومية ويكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وكانت سيرة الخليفة الحسنة قد بلغت هؤلاء واقتدى به وإليه ، فنجحت هذه السياسة ودخل كثير من الأمراء والزعماء فى الإسلام وتسموا بأسماء إسلامية ، وكان بين هؤلاء الأمير " جيسيه بن داهر " الذى حكم برهمان آباد ، كما قبل البعض الآخر الأعتراف بسلطة الدولة الإسلامية مع الاحتفاظ بديانته ودفع الخراج والجزية ، وهكذا عم الاستقرار وساد الأمن بفضل سياسة وحكمة الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز ، وكياسة وحسن معاملة واليه عمرو بن مسلم الباهلى.

ولما آلت الخلافة إلى يزيد بن عبدالملك ، عين والياً على السند:

- هلال بن أحوز التميمي ١٠١ـ١٠٦هـ-٧١٩ـ٧١٤م

وفى بداية عهده تمكن يزيد بن المهاب ، أحد زعماء اليمانية من الهروب من السجن واستطاع الوصول إلى المناطق الشرقية التابعة للخلافة الأموية ، وأخضعها لسيطرته ، وأرسل واحداً من كبار اتباعه.وهو وادع بن حميد الأزدى إلى مكران فى بلاد السند ، ومنها اجتاز إلى مدينة " قندابيل " واتخذها حصناً يلجأ إليه آل المهلب إذا حملتهم الظروف على ذلك ، لكن يزيد بن المهلب قتل ، وانهزم أعوانه فى حروبه ضد الخلافة ، وفر ابنه معاوية إلى " قندابيل " حيث أقام هناك ، ولهذا كانت الأوامر صريحة للوالى هلال بأن يعمل للقضاء على خطر آل المهلب ، وقد كون جيشاً تمكن به من الانتصار على أعدائه ، وأزال خطرهم من بلاد السند ، وبقى يمارس مهام الولاية إلى أن عزله الخليفة هشام بن عبدالملك.

وقد عين الخليفة الجديد هشام على بلاد السند :

الجنيد بن عبدالرحمن المرى ١٠٧ـ١١١هـ-٧٢٥ـ٧٢٩م.

فسار على رأس جيش وصل إلى تلك البلاد ، ونزل فى ميدنة " الديبل " وقرر أن يتفقد أخبار ذلك الاقليم بنفسه فسار على شاطئ نهر السند إلى أن وصل مدينة " برهمان آباد " وكان الخليفة عُمر بن عبدالعزيز قد أقر عليها الأمير " جيسيه بن داهر " بعد إسلامه ،

فرفضُ لذلك دخول الوالى الجديد للمدينة قائلاً: " إنـــى قـــد أســـلمت وولانى الرجل الصالح عمر بن عبدالعزيز بلادى ، ولست آمنك ".

وكان الجنيد داهية فطناً فلم يبد غضبه ، وحاول حل المشـــكلة بالوسائل السلمية ، خاصة وهذا القائد يتبعه حكام وقواد فـــى منـــاطق السند المختلفة وفى منطقة حدودها مع الهند ، ومن هنـــا طلـــب مـــن الأمير رهناً مكتفياً بذلك وبأن يتعهد ذلك الأمير بأداء ما على ولايتـــه من الخراج والجزية.

وبقى كل منهما يراقب الآخر ويستعد له ولايطمـــئن أو يـــأمن جانبه ، بل أخذ كل منهما يجهـــز الاســـلحة والمراكـــب الحربيـــة ، وتطورت الأحداث بصورة أدت إلى نشـــوب معركـــة بحريـــة بـــين الطرفين فى منطقة " بطيحة الشرقية " أسر فيها الأميـــر " جيســـية " Jaisiuha ثم قام الجنيد بقتله في الحال.

ويذكر " البلازرى " أن كفقر " جيسيه " وردته كان وراء قتل الجنيد له ، ونص عبارته " كفر جيسيه بن داهر أغضب الجنيد ، وقيل إنه لم يحارب ، ولكن الجنيد تجنى عليه " ، ويبـــدوا أن ذلـــك غيـــر صحيح ، فلم ترد هذه الإشارة إلا عند البلازى ، وقد رغب أخ للأمير اسمه " صصه بن داهر " فى الذهاب إلى دار الخلافة لتقديم شـــكوى للخليفة ، ولبيان أن أخاه كان مسلماً وأنه قتل ظلماً ، فسبب القتل ليس دينياً ولكنه سبب سياسى ، مرجعه ما يمثله " ابن داهر " من خطـــورة

على امن واستقرار السند ، وما قد يقوم به من فتن خاصة وأنه كانت له علاقات بقواد أخرين وبامارات مجاورة لبلاد الهند.

بعد ذلك قام الجنيد بفتح مدينة " الكيرج " التى عصى أهلها وثاروا بعد أن فتحها محمد بن القاسم عندما غادر الأخير البلاد ، وقد جمع حاكمها جيشاً وخرج لمحاربة الجنيد ، ولكن الحاكم انهزم وفر إلى داخل المدينة ، فاستخدم المسلمون النيران والحجارة والمنجنيقات وقذفوا المدينة ، كما استخدمت آلة جديدة تُسمى " كباش " فى دك سور المدينة حتى تمكن المسلمون من دخولها وقاتلوا أهلها ودارت معركة ضاربة انتصر فيها المسلمون وإن تمكن حاكم المدينة من الهرب.

ويبدوا أن سمعة الجنيد قد انتشرت فى أرجاء البلاد بعد سيطرته على المدينتين المذكورتين ، فساد الهدوء والأمن كل الأرجاء ، ولذلك نرى الجنيد يترك الاهتمام بداخل السند ، ويتجه ناحية حدود السند الجنوبية الشرقية المتصلة باقليم الكجرات فى بلاد الهند.

وكان هذا الاقليم مصدر مشاكل كثيرة ، وكانت بمثابة مصدر للأسلحة والقوات والمساعدات العسكرية أثناء فتن الأمير " جيسيه " ضد الوالى الأموى ، فكان لابد من القضاء على بؤرة المشاكل والأخطار.

وقد جهز الجنيد جيشاً ضخماً وزحف به نحو مدينة الكِيْرج من الطريق الصحراوى وتمكن من فتح مرمد (ما رواد) ثم من فتح

مدينة المدل (ماندل) بعد قتال ثم مدينة دهنج (وهنج) ثم استولى على مدينة " بنجاسر " عاصمة الكجرات الشمالية ثم توجه إلى مدينة بهروج (بروص) وفتحها ثم مدينة الماكية وهى اقليم مالوه الشرقية الغربية ثم حارب أهل مدينة ارنين (أجين) عندما عرف أنهم يستعدون للقتال وفتحها ومنها اتجه جيشه ناحية " بهرمد " وأشعل النيران فى ضواحيها وقضى على المعاندين بها.

فى هذه الآونة سمع الجنيد بوجود فتن فى سرست والبيلمان والجزر من بلاد السند فعاد إلى هذه البلاد وقاتل أهلها ونشر الأمن فى ربوعها وأعاد الاستقرار إليها ، ثم رجع إلى عاصمة الحكومة الإسلامية برهمناباد ويمكن القول إذن انه انتصر خارج السند فى " راجبوتانا " Rajputana وكاثى وار " Kathiawar وشمال جوخارات Gujarat وأرسل حملات أبعد من ذلك عند "أوجاين " Ujain ومالو Malwa ، وقد بلغ من صدى انتصاراته أن خشيه ملك " كشمير " Kashmir وطلب نجدة امبراطور الصين ووضع نفسه تحت حمايته.

وكان الجنيد موفقاً فى كل فتوحاته ، أعاد إلى الذاكرة أعمال محمد بن القاسم ، وكان من الممكن أن يحقق نجاحاً اكبر لولا الفتن والاضطرابات ، وقد جمع العديد من المغانم وترك فى خزينة الدولة

أربعين ألف ألف (مليون) درهم ومنح الكثير من العطايا حتى أثنى جرير عليه وامتدح جوده في قوله:

أصبح زوار الجنيد وصحبة * يحيون صلت الوجه جماً مواهبه

كما تمكن خلال السنوات التي قضاها في السند من تنظيم أمور تلك البلاد سياسياً واقتصادياً وإدارياً. لقد كان صنو ابن القاسم وامتدت فتوحاته إلى بعض الأقاليم والمدن الهندية وفي بحر سنتين استولى على شمال غرب الهند بكامله ، ولعله لوب قي في ولايته لفتح الهند كلها..

وقد ذكر واحد من المؤرخين الهنود أن هناك إشارات في لوحات " توازاري " المؤرخة سنة ١٢١هـ=٧٣٨م تدل على أن العرب – المسلمين – قد قاموا بحملات استطاعوا خلالها هزيمة بعض ملوك الهند المشهورين ، ويغلب على الظن أن المقصود بهذه الحملات قوات الجنيد أو قواده الذين توجهوا ناحية هذه المناطق.

وكان نجاح الجنيد سبباً في نقله إلى منطقة أخرى تحتاج لجهوده وكانت قد كثرت فيها الحركات المعادية للدولة الأموية وانتشر بها دعاة بني العباس وهي منطقة الولايات الشرقية وخراسان بصفة خاصة ، وكان هذا مبرر نقل الجنيد إلى بلاد خراسان ، وقد بقي الجنيد بخراسان حتى مات سنة ١١٦هـ=٧٣٤م.

تميم بن زيد العتبي (١١١–١١٢هـ) = ٧٢٩–٧٣٠م.

تولى على بلاد السند عمر خالد بن عبدالله القسرى – والـــى العراق – ولم يكن له كفاءه ولا مقدرة الجنيد ولم يستطيع استغلال ما خلفه الوالى السابق من ازدهار واستقرار ، ولم يحظ بـــاحترام القـــادة والأعوان ، وتفاقمت الخلافات القبلية لوقوف الوالى مع اليمانية ضـــد النزارية (المصرية) ولما كثر اعداؤه اضطر للهرب من مكان إلـــى اخر ، ورفع اعداء المسلمين رءوسهم بالثورات واضطربت الأمـــور فى بعض مناطق السند ، وساعد الوضع الجديد علـــى قيـــام أهـــل الكجرات بثورات عنيفه اضطرت المسلمين للانسحاب وتـــرك هـــذا الاقليم الهام.

إزاء هذا السوء وكثرة المشاحنات والاضطرابات والمنازعات، اضطر الوالى إلى ترك البلاد ومغادرتها إلـــى العراق ، وقد مات عند الديبل فى طريقه إلى العاصمة واسرع الخليفة فولى على بلاد السند.

الحكم بن عوانة الكلبى (١١٣-١٢١هـ)=٧٣٠م – ٧٣٨م.

وهو من الشبان الذين صحبوا ابن القاسم أثناء فتوحاته فى بلاد السند وكانت تربطه صداقة بقواد الفتح والجهاد فيها وقد عزله الخليفة هشام عن خراسان سنة ١١١هـــ٧٢٩م بسبب فشـــل سياســـته وعـــدم تمكنه من القضاء على اعداء الدولة الأموية مـــن دعـــاة العباســـيين وغيرهم.

وعندما وصل على السند ، تذكر فشله فى خراسان ، وتـــذكر الفوضى التى خلفها النزاع القبلى مع تذكر سياسة الجنيد بتلك الـــبلاد ،

وقد أراد أن يستغل مكانة محمد بن القاسم واستيلاءه على قلوب الناس فى هذا الاقليم ، فعهد الى ابنه عمرو بن محمد بن القاسم بالأمور الإدارية وحل المشكلات المعضلة والنزاع بين القبائل ، وقد ساعد على قبول التعيين أن نائب الوالى حجازى بينما الوالى نفسه من اليمنيين ، وبذلك رضى أطراف النزاع.

وكان على الوالى الجديد أن يعمل على انقاذ القوات العربية التى تجاصرها تجمعات الأعداء ، لجأ على أمرهام حين قرر القيام ببناء مدينة فى مكان حصين تكون موطناً للمسلمين ومقراً لقيادتهم العسكرية ، ويمكن أن تكوين موئلاً للمسلمين فى أوقات الفتن والأزمات وقد انتهى من تشييد هذه المدينة على الشاطئ الشرقى لنهر السند بالقرب من مدينة " برهمان اباد " على بعد ٤٠ ميلاً إلى الجنوب الشرقى من حيدر اباد الحديثة وأسماها " المحفوظة " لكتون فى حفظ الله ، وقد نزلها الجيش الإسلامى فيها كما جعل المسلمين يقيمون بها وبنى بها مسجداً واهتم بعمارتها واتخذها عاصمة السند الإسلامية بدلاً من مدينة " برهمناباد " التى غلب عليها سكنى غير المسلمين.

وقد اهتم أيضاً بالجيش تدريباً واعداداً وتسليحاً ، وكلف عمرو بن محمد ابن القاسم أن تيوجه إلى مناطق الفتن ، وأن يقضى على ثورات بعض المدن ويعيدها للحكم الإسلامى ، وقد نجح نائب الوالى فى اداء مهمته بمقدرة وبراعة أعادت إلى الأذهان ما قام به ابوه من

قبل ، وكان نجاح السياسة الجديدة باعثاً على دهشة وتعجب والى العراق خالد بن عبدالله القسرى الذى قال:

واعجباً وليت فتى العرب فرفض (يعنى تميماً) ووليت أبخل الناس فرضى به (يعنى الحكم).

وقد استمر الحكم والياً لمده ثمانى سنوات ثم عزله والى العراق لأسباب لها علاقة بالنزاع القبلى ، وما لبث خالد والى العراق أن قتل نفسه بأمر الخليفة هشام ن الشئ الذى احنق اليمانية ، وجعلهم ينضمون لعداء بنى أمية ، مما عجل بسقوط دولتهم ، وهكذا أضعفت العصبية القبلية بنى أميه فى الأمصار وأهلكت الجيش وأذنت بزوال سلطانهم ولا غرو فقد كان ذلك العصر محزناً ملأ قلوب الصالحين من المسلمين تشاؤماً بالمستقبل ".

وكما هو معروف فإن الاضطرابات فى موطن الخلافة ، تترك أثارها على الأقاليم ومنها بلاد السند ، فقد انتهز بعض الزعماء الفرصة وقاموا بفتن وحركات معادية للدولة فقرر الوالى الحكم بن عوانه أن يخرج بنفسه وتوغل فى البلاد حتى وصل إلى القيقان وقندابيل ، وحارب الثائرين هناك قائلاً " اما فتح يرضى عنه يوسف الثقفى والى العراق ـ بعد خالد بن عبدالله القسرى ـ وأما شهادة استريح بها منه " وقد أمكنه القضاء على كل الحركات الثائرة فى المناطق المجاورة لبلاد الهند ، واستشهد فى المعركة الأخيرة سنة ١٢١ هـ برغم انتصار جيشه ، وتولى على بلاد السند من بعده.

عمرو بن محمد بن القاسم الثقفي (١٢١ـ١٢٥)=٧٣٨ـ٧٤٢م.

كتب يوسف الثقفى والى العراق إلى هشام بن عبدالملك ، يستشيره فيمن يتولى أمر السند بعد مقتل واليها الحكم بن عوانه ، فجاء رده يقول:

" إن كان عمرو بن محمد بن القاسم الثقفى قد اكتهل قوله " فتمت توليته وكان قدب لغ من العمر ٢٦ عاماً ، وعندما تولى كانت الخلافات القبلية على أشدها فى السند وفى غيرها من بلاد الدولة الأموية ، وكان خطر ثورات سكان البلاد قائماً ، وهذا هو السبب وراء تفكير الوالى فى إقامة مدينة حصينة أخرى تكون ملجأ للعرب والمسلمين إذا استقلت الأمور ، فبنى مدينة جديدة فى الجهة المقابلة "للمحفوظة " على جانب بحيرة تقع شرقى نهر السند ، وجعلها مركزاً للحكم بسبب موقعها الجعرافى الهام وقربها من مدينة المحفوظة حيث كانت على بعد كيلو مترات قليلة إلى الشمال الشرقى من برهمان آباد واطلق على المدينة الجديدة اسم " المنصورة " وموقعها الآن مشارف حيدر آباد السند ، وكان ذلك سنة ١٢١هـ وقد استمرت هذه المدينة عاصمة على امتداد فترة الحكم العربى أى على مدى حوالى ثلاثة قرون تقريباً. وقد جاء بناء هذه المدينة ـ كغيرها ـ متفقاً مع النهج الذى سارت عليه الحكومة فى كل الأمصار الإسلامية من اختطاط المدن لتكون معسكراً وأساساً لتجمع العنصر العربى المقاتل ، فى هذا الإقليم كما فى غيره.

وقد تكالب زعماء السند على عمرو بن محمد بن القاسم وولوا على انفسهم ملكاً وزحفوا جميعاً نحو مدينة المنصورة وحاصروا المسلمين بها ، وقد كتب الوالى يطلب النجدة من العراق فجاءه جيش قوامه أربعة آلاف مقاتل ، فاضطر ملك السند الجديد إلى رفع الحصار.

وقد لفت هذا الأمر نظر محمد بن القاسم إلى ضرورة تكوين جيش قوى يحمى العاصمة وتيمركز فيها ، وجيش آخر للقضاء على المناوئين ، وإعادة المناطق التى أضاعها العرب بسبب خلافاتهم القبلية ، وجعل معن بن زائدة الشيبانى ـ حاكم سجستان فيما بعد ـ قائداً على ذلك الجيش الأخير ، فقام بغرة ليلية على معسكر ملك السند الجديد وقتل عدداً كبيراً من جنوده واضطره نفسه للهرب وسلم أهل السند خشية من عواقب عدائهم للعرب ، وربما كان الملك المذكور من منطقة " راجبوتانه " الواقعة على الحدود الهندية ، فقد كان لقبائل هذه المنطقة صلة بالقبائل المقيمة فى بلاد السند.

لكن النزاع القبلى لايترك الأمور تمضى فى طريقها ، ذلك أن مروان بن يزيد بن المهلب ـ وهو من اليمانية ـ انتهز فرصة انشغال عمرو بن محمد بن القاسم بالقضاء على الفتنة فى مكان ما ، وقام بحملة على معسكره وآل بيته واستولى على بعض الأسلحة والداوب ، وعلم بذلك عمرو فعاد إلى المنصورة معه كبار قادته لمحاربة خصمه ، وتمكن من الحاق الهزيمة بقواته واضطر مروان

إلى الهرب ، فأعلن عمرو " أن الناس كلهم آمنون إلا ابن المهلب " يعني عفا عن اليمانية حسما للفتنة ، وقرر فقط القضاء على راس المعاندين ، وقد أمكنه الفاء القبض عليه وقتله ، وبذلك انتهت حركة التمرد هذه.

وبقي عمرو في ولاية السند إلى أن مات الخليفة هشام بن عبدالملك سنة ١٢٥ هـ وقد كان صورة أبيه حزماً وعزماً وحكمة وسياسة ، وقد نهج سيرة ابيه في التسامح والعدل وإطلاق حرية العبادة وتولى الأمر بعد هشام اخوه.

يزيد بن عبدالملك:

اتبع الخليفة الجديد سياسة تعارض سياسة سلفه وتبني اليمانية وعزل جميع من ولاهم " هشام " على الولايات وبينهم عمرو بن محمد بن القاسم حيث عزله من بلاد السند ، وولى عليها والياً من أشد خصوم عمرو بن محمد بن القاسم الألداء ، وهو " يزيد بن عرار الكلبي " وكان عمرو قد ألقى القبض عليه قبل فترة وأرسل به إلى بلاد العراق حيث سجن هناك ، وقد وصل الوالي الجديد إلى المنصورة وقام بالقاء القبض على عمرو بن محمد وسجنه ، وخشي الأخير بشاعة التعذيب فتخلص من حياته بنفسه وكان ذلك سنة ١٢٥هـ.

يزيد بن عرار الكلبي (١٢٥ـ١٢٧) هـ - ٧٤٢ـ٧٤٤م.

قام الخليفة يزيد بن عبدلملك فور تولية الخلافة بترك جميع الولاة ما عدا يوسف الثقفي مسئول العراق والإمارات الشرقية ، فقد

ثبت عنده انهم كانوا جميعاً باستثناء يوسف ــ يؤيدون عزله من ولاية العهد ، ومال الخليفة الجديد إلى اليمانية فى نزاعهم مع المضــرية أو النزارية ، لأن الأولين ايدوا فكرة هشام الخاصة بعزل يزيد عن ولاية العهد ، ولذلك نرى أن اليمانية تولوا المناصب العالية وكانوا أصحاب الحظوه والنفوذ عند الخليفة.

وقد عين منصور بن جمهور الكلبى ــ زعيم اليمانية ــ واليــاً على بلاد العراق ، وجعل هذا قريبه يزيد بن عرار الكلبى والياً علــى بلاد السند.

ولم تطل فترة الخليفة يزيد أكثر من سنتين ، وتولى الخلافــة من بعده.

مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية (١٢٧ــ١٣٢هــ)-٧٤٤ــ٧٤٩م.

وفى عهده كثر نشاط دعاة العباسيين وقويت حركتهم وامتلأت البلاد بالفتن بصورة قضت على الدولة الأموية كلها وقدتولى على بلاد السند فى عهد مروان بن محمد.

منصور بن جمهور الكلبى (١٢٩ــ١٣٢هــ)-٧٤٦ــ٧٤٩م.

وهو من زعماء اليمانية ، اشترك في مؤامرة قتل الخليفة يزيد سنة ١٢٦ رغم أنه ولاه على بلاد العراق وساند قومه ، كما اشــترك فى مؤامرة سليمان بن هشام الذى رغب فى الوصول إلى الحكم وهزم وفر إلى بلاد السند ، وقد بقى منصور هذا مختفياً فى بــلاد العــراق ينتظر الفرصة المواتية وقد عمل مع الخوارج سراً سنة ١٢٩ هــ كما

عمل مع عبدالله بن معاوية عندما قام هذا بالثورة فـــى بـــلاد فـــارس وانضم إليه وأصبح واحداً من قادته ، وقد تمكن الخليفة الأموى مـــن القضاء على جيش عبدالله وأسره وقتله ، عندئذ خشى منصـــور بـــن جمهور من العواقب ففر بنفسه إلى بلاد السند على أمـــل أن يحظـــى برعاية قريبه والى هذه البلاد يزيد بن عرار الكلبى ، خاصـــة وإليـــه يرجع فضل تعيينه فى منصبه ، ولكن حدث العكس يعنـــى أن يزيـــد خشى أن يستولى الوافد الجديد على أعنة الحكم أو يكون ســـبباً فـــى عضب الخليفة الأموى عيه وطرده ، ولهذا حاول يزيد القبض علـــى منصور ، ولكنه سار بحذاء الضفة الغربية لنهر السندبينما كان يزيـــد على الضفة الشرقية ، واستطاع منصور أن يستولى على " سوستان " حيث قام بتجهيز المراكب وألقى بها فى نهر السند بعد حملهـــا علـــى ظهور الإبل ، أما يزيد فقد ترك المنصورة على رأس جيش متوجهـــاً نحو نهر السند ، ودخل الفريقان فى معركة حارب منصور فيها حرب اليائس وقاتل بشجاعة حتى هزم قوات يزيد وطارده إلى المنصـــورة وحاصرة بها ، وضيق منصور على يزيد حتى طلب الأمان ، فوافـــق منصور وسلم المنصورة إليه وقبل حكمه فأمر القائد المنتصـــر ببنـــاء اسطوانه عليه وهو حى ليطفئ نار غيظه ثم استولى على مقاليد الحكم فى تلك البلاد وأقام بالمصورة وأرسل اخاه منظور بن جمهور الكلبى على رأس جيش أخضع الجهات الغربية ببلاد السند من مدينة "الـــديبل إلى مدينة قندابيل " وجعله نائباً عنه فى حكمها وتولى تنظيم النـــواحى

الشرقية بالإضافة إلى داخل بلاد السند ، واستمر هناك مستقلاً عن الخلافة الأموية التى ثار عليها.

وبعد قيام الخلافة العباسية ١٣٢هـ-٧٤٩م أرسل أبو مسلم الخرسانى عبدالرحمن بن أبى مسلم العبدى والياً على بلاد السند ، بيد أنه فشل فى طرد الوالى منصور منها ، بل لقى حتفه على يديه ، فأرسل الخليفة العباسى موسى ابن كعب التميمى ، ليكون أول ولاة بنى العباسى ـ بعد قيام الخلافة العباسية ـ على مناطق السند والبنجاب ، وقد تمكن الوالى الجديد من قتل منصور بن جمهور الكلبى ١٣٤هـ=٧٥١م ودخلت البلاد فى طور جديد من أطوار التاريخ.

الفصل الخامس

بلاد الهند والسند والبنجاب فـــى العصــــر العباسى الأول

ب ـ ولاة السند والبنجاب فى عهد الدولة العباسية.

منصور بن جمهور الكلبى (آخر عمال بنى أمية).

عبدالرحمن بن مسلم العبدى ١٣٤هـ.

المسيب بن زهير ١٣٤هـ.

موسى بن كعب التميمى ١٣٤ـ١٤١.

أبو جعفر عم بن حفص بن عثمان الهلبى ١٤١ـ١٤٢.

عمرو بن حفص العتكى ١٤٢ـ١٥١.

هشام بن عمرو التغلبى ١٥١ـ١٥٧.

روح بن حاتم ١٥٩.

بسطام بن عمرو التغلبى ١٥٩ـ١٦٠.

روح بن حاتم ـ للمرة الثانية ١٦١هـ.

نصر بن محمد بن الأشعث الخزاعى ١٦١هـ.

محمد بن سليمان الهاشمى وعبدالملك المسمعى ١٦١هـ.

زبير بن عباس ١٦٢هـ.

مصبح بن عمرو التغلبى ١٦٢.

نصر بن محمد الخزاعى للمرة الثانية ١٦٢ـ١٦٤هـ.

سطيح بن عمرو التغلبى ١٦٤.

الليث بن طريف ١٦٤ـ١٧٠.

سالم التونسى ١٧١ـ ١٧٤.

اسحاق بن سليمان الهاشمى ١٧٤.

طيفور بن عبدالله الحميرى ١٧٤ـ١٧٤.

جابر بن الأشعث الطائى ١٧٥ـ١٧٦.

كثير بن مسلم بن قتيبه ١٦٧-١٧٩.

محمد بن عدى التغلبى ١٧٩ـ١٨١هـ.

ولاية عبدالرحمن ١٨١ـ١٨٢ه.

ايوب بن جعفر ١٨٢ـ١٨٤هـ.

المغيرة بن يزيد المهلبى ١٨٤ـ١٨٥هـ.

داود بن يزيد المهلبة ١٨٥ـ٢٠٥هـ.

بشر بن داود المهلبى ٢٠٥ـ٢١٢هـ.

حاجب بن صالح ٢١٣هـ.

غسان بن عباد المهلبى ٢١٣ـ٢١٦هـ.

موسى بن يحى البرمكى ٢١٦ـ٢٢١هـ.

عمران بن موسى البرمكى ٢٢١ـ٢٢٦هـ.

عنبه بن إسحاق الضبى ٢٢٦ـ٢٣٥هـ.

هارون بن خالد المروزى ٢٣٥ـ٢٤٠هـ.

عمر بن عبدالعزيز الهبارى ٢٧٠هـ.

الدولة الهبارية العربية فى المنصورة بالسند:

عبدالله بن عمر الهبارى ٢٧٠ ــ ٣٠١.

عمر بن عبدالله بن عمر الهبارى ٣٠٢ ــ ٣٣٠.

دولة الشيعة فى المنصورة ٤٠٢ ــ ٤١٦هـ.

حملة السلطان محمود الغزنوى على السند٤١٦هـ.

الولاة فى الملتان باقليم البنجاب ٩٤ــ٣٧٥.

حكومة الشيعة فى الملتان ٣٧٥ــ ٤٠١هـ.

ويقتضى الموقف إيجاز القول عن هذه الفترة.

عندما قامت الدولة العباسية سنة ١٣٢هـ=٧٤٩م عين الخليفة العباسى الأول أبو العباس السفاح ــ أبا مسلم الخراسانى ــ والياً على خراسان والمناطق الشرقية بما فيها بلاد السند ، وبذلك أصبحت الولايات الشرقية تابعة لخراسان بعد أن كانت تتبع بلاد العراق ، وقد أرسل الوالى الجديد جيشاً يقوده مفلس العبدى إلى بلاد السند لإخضاعها للحكم العباسى ، وكان منصور بن جمهور الكلبى الثائر على الأمويين لايزال يسيطر على هذه المناطق وقد وصل مفلس العبدى إلى"الديبل"عن طريق طخارستان وقاتل جنداً يقوده منظور بن جمهور ، شقيق منصور بن جمهور ، وكان النصر لمفلس الذى واصل تقدمه نحو مدينة المنصورة العاصمة ، وقد تألم الوالى منصور لمقتل أخيه ، وجهز جيشاً كبيراً خرج به من العاصمة ووقع قتال

عنيف بين الطرفين ، أنهزم فيه الجيش العباسى ، وأسر قائده مفلس فأمر الوالى منصور بقتله فى الحال.

اختار أبو مسلم الخراسانى موسى بن كعب التميمى وولاة قيادة جيش كبير بلغ عشرين ألفاً وفرض لثلاثة رجال من العرب والموالى ولالف من بنى تميم خاصة وجعله والياً على بلاد السند ، وكان الوالى الجديد رئيساً للشرطة وله خبرة إدارية وعسكرية ، ولذلك نراه لايتوجه مباشرة إلى العاصمة المنصورة ، بل يتجه نحو مدينة "قندابيل" المحصنة البعيدة عن العاصمة ، ويبقى بها مدة يجمع المعلومات عن عدوه وعن أحوال البلاد ويعمل على تقوية جنده ، ويتصل بالقارة والزعماء فى المنصورة ليجعل ولاءهم له ، وقد نجح فى مهمته وأقنع هؤلاء بأنه لاجدوى من معارضه الخليفة العباسى وجيوشه الجرارة.

بعد ذلك عبر نهر السند إلى ناحيته الشرقية ، والتقى مع جيش منصور ابن جمهور فى معركة حامية ، انهزم فيها منصور وحاول الفرار إلى الهند ، ولكنه ضل طريقه فى الصحراء ووقع فى الأسر وقتل سنة ١٣٤هـ=٧٥١م وقيل مات عطشاً فى الرمال.

دخل موسى بن كعب العاصمة منتصراً وأسس بها أول حكومة عباسية ، ووسع مسجدها الجامع الذى بناه عمرو بن محمد بن القاسم ونظم الأمور الإدارية والسياسية فى إقليم السند وأخذ البيعة للعباسيين ، وأرسل وفداً إلى دار الخلافة سنة ١٣٦هـ=٧٥٣م

يشرحُ أحوال السند وأوضاعها السياسية والمذهبية والفكرية وبقى هناك حتى سنة ١٤٠هـ=٧٥٧م وقد نجح خلال فترة ولايته فى محو كل أثار الأمويين ، وثبت دعائم الحكم العباسى ، ثم مات فى بغداد ودفن بها سنة ١٤١هـ=٧٥٨م.

وتولى **أبو جعفر المنصور** الخلافة من ١٣٦ ــ ١٥٨ هـ = ٧٥٣ ــ ٧٧٥م وفى عهده خفف الصراع القبلى وبدت بشائر النهضة العلمية والاستفادة بمنجزات الحضارات الأخرى ، وكان لابد أن يترك ذلك تأثيره على بلاد السند.

وقد عين والياً على السند فى زمنه كل من:

عيينة بن موسى بن كعب التميمى ١٤١ـ١٤٢=٧٥٨ـ٧٦٩م.

كان نائباً عن والده فى بلاد السند ، وقد أصبح والياً بعد وفاة أبيه ، فتجدد الصراع القبلى فى زمنه وانحاز هو للنزاريين أو الحجازيين وقتل كثيراً من اليمنيين ، ولهذا أمر الخليفة المنصور بعزله وولى على بلاد السند.

عمر بن حفص بن عثمان بن قبيصة بن أبى صفرة العتيكى ١٤٢ ـ ١٥٢ هـ - ٧٥٩ ـ ٧٦٩م.

وقد توجه لبلاد السند على رأس جيش كبير ، ولما وصل إلى المنصورة رفض عيينه بن موسى السماح له بدخولها وفشل فى فتح العاصمة ، واضطر إلى العودة نحو مدينة " الديبل " ليعد خطة تضمن له فتح المدينة ، وهناك انضم إليه القادة والزعماء ممن ضايقتهم

سياسة عيينة ونزعته القبلية من بين هؤلاء الذين كان يظن عيينه أنهم أصدقاؤه ، وإزاء تخلى الأصحاب عنه لم ير بداً من طلـــب الصـــلح وسلم العاصمة لعمر بن حفص الذى القى القبض عليه وبعث به إلـــى بغداد ، وفى طريقه إلى مركز الخلافة غافل حراسه وحاول الهرب ، ولكن واحداً من اليمانية تمكن من قتله وأرسل رأسه للخليفة المنصور سنة ١٤٢ هـــ = ٧٥٩م.

وقد استقرت أمور السند وتحسنت أحـــوال الدولـــة واختفـــت العصبية القبلية على مدار سنوات تسع حكم خلالها الوالى عمـــر بـــن حفص ، لكن الخليفة المنصور عزله ونقله إلى أفريقيا بســـبب بـــروز النشاط السياسى الشيعى وتأييد ذلك الوالي للعلويين.

ظهور التشيع فى بلاد السند :

ظهرة حركة محمد بن عبدالله بن الحسن الملقب بالنفس الزكية اثناء ولاية عمر بن حفص بن عثمان بن أبـــى صـــفرة وقـــد بايعـــه بالخلافة سراً ، وأرسل النفس الزكية ابنه عبدالله بن الأشتر الحســـنى ليدعو له فى البصرة ثم فى بلاد السند ، وقد اشترى من البصرة خيلاً وسار حتى وصل بلاد السند وقابل ابن حفص على أنه تاجر خيـــل ، ثم كشف عن شخصيته فرحب به الوالى وبايعه وأخفاه عنده ، ودعـــا أهل بيته وخواصه لمبايعته وجهز علماً أبيض وثياباً بيضـــاء ، وفـــى اليوم المحدد للمبايعه جاء الخبر بمقتل محمد الـــنفس الزكيـــة وأخيـــه إبراهيم ، فتوجه ابن حفص لعبدالله بن الاشتر وقدم له التعزية وهـــدأ

نفسه اليائسة ، وبعث به إلي ملك من ملوك السند وأخذ عليه العهد بالا يتعــرض لأذى ، وقد أكرمه ذلك الملك واستقبل نحو اربعمائــة مــن شيعته ، وعلم بذلك كله الخليفه المنصور فغضب وكتــب إلــى ابــن حفص رسالة شديدة اللهجة ، ثم زعم أحد أقرباء الوالى أنــه مســئول عما حدث من ظهور للشيعة فى بلاد السند ، وحمــل إلــى الخليفــة فضرب عنقه ، وعزل عمر بن حفص عن اقليم السند وولــى مكانــه

هشام بن عمرو التغلبى ١٥١ ـ ١٥٧ هـ = ٧٦٨ ـ ٧٧٣م.

ولاه الخليفة أبو جعفر المنصور على السند ، وطلب منــه أن يكاتب ملك السند ويطلب منه تسليم عبدالله بن الأشتر وإلا حاربه.

وقد وصل هشام إلى بلاد السند ، وكره أن يؤذى ابن الأشتر ، لأنه كان ممن يميلون سراً للعلويين ، وإن تظاهر بأنه يراســل ملــك السند ارضاء للخليفة ، وعلم الخليفة بحقيقة موقف واليه ، فأرسل إليه يستحثه ويستعجله ، وتصادف أن حدثت اضــطرابات بــالقرب مــن العاصمة " المنصورة " فوجه هشام أخاه " سفنجا " للقضــاء عليهــا ، وبينما كان يسير مع جيشه حول مملكة ذلك الملك السندى، رأى غبره فاتجه نحوها، ثم عرف أنها جماعة من عشرة عليها عبدالله بن الأشتر وأنها مضت تتنزه على شاطئ نهر السند ، فقصد "ســفنج" نــاحيتهم ، وتقاتل الفريقان حتى قضى على ابن الاشتر وكل من كان معه.

ورغم أن الوالى لم يكن يريد ذلك إلا انه كتب للخليفة بمقتــل عبدالله بن الأشتر ، فأرسل المنصور يشكره ويطلب منه محاربة ملك

السند ، وكان الخليفة يريد ـ فيما يبدو ـ قطع دابر الاربعمائة: أصحاب بن الاشتر ، والقضاء على محاولات شيعته من الزيدية في إحلال ابنه محله زعيماً عليهم.

وفى سنة ١٥١ هـ = ٧٦٨ قام الوالى هشام بحملة على الملك السندى وقتله واستولى على ملكه ، وهرب أصحاب عبدالله بن الاشتر وتفرقوا فى أنحاء البلاد وأسر ابنه محمد وبعث به إلى الخليفة المنصور الذى أرسله بدوره إلى المدينة المنورة وأمر عامله بها أن يسلمه لأهله.

بعد ذلك قام هشام بن عمرو بحملات على بعض المناطق ومواطن الفتن فى النواحى الشرقية والغربية ، وقضى على العرب المتغلبة من الأمويين فى مدينة الديبل وما حولها ثم رجع إلى العاصمة المنصورة ثم تقدم نحو جبال " كابل " وسير حملة بحرية استولت على شواطئ كجرات على ثغر بردا.

وهكذا استقرت الأمور من الناحية الداخلية ، فدفع ذلك الاستقرار هشاماً إلى التفكير فى مد النفوذ الإسلامى إلى بلاد الهند ، وإعادة فتح المناطق التى كان الوالى الجنيد بن عبدالرحمن المرى قد فتحها ، ولذلك الهدف أعد السفن اللازمة وحملها فى نهر السند وسار إلى منطقة قندهار (كندهاوه) وفتحها وهدم بيت الصنم بها وبنى مكانه مسداً ، كذلك وجه هشام جيشاً بقيادة " عمرو ابن جبل " ومعه بوارج إلى " تارند " بهدف الاستكشاف وجمع المعلومات تمهيداً لفتح

بعض مناطق الهند المجاورة للسند ، وبعث بقوات أخرى إلـــى بـــلاد كشمير وفتح بعض مناطقها وأصاب منها سبايا.

وكان الهدف من ذلك كله هو تأديب هذه المناطق والانتقام من حكامها الذين كانوا يســاعدون المتمــردين علـــى الحكــم العربـــى ويشجعونهم على الفتن والقيام بثورات فى بعض الجهات ، ولذلك نرى الوالى يعود مرة أخرى إلى المنصورة ويقيم فيها ، ويحــرص علـــى القيام ببعض الاصلاحات وتحسين الخدمات الحكومية.

وكان عهد هشام فى جملته عصـــر ازدهـــار ، ففـــى عهـــده اصبحت بلاد السند اسلامية بحته يعمها الهناء والإخاء فى ظل الخلافة العباسية ، وقد اطمأن الناس إليه وزاره الكبار والشـــعراء ، ونظـــراً لبراعته فى التنظيم الإدارى ، فوض إليه الخليفة الاشراف على منطقة كرمان فى إيران سنة ١٥٦ هـــ = ٧٧٢م ، فأصـــبح مشـــرفاً علـــى حكومة العرب فى الملتان وعلى حكام السند فى المناطق المختلفـــة ، بالإضافة إلى كرمان ، وشهدت البلاد استقراراً وطمأنينه وأمنـــاً ولـــم يسمع عن اضطرابات تذكر طوال مدة ولايته ، كما بدأت الاتصـــالات والعلاقات العلمية بين بلاد السند ومركز الخلافة فى زمنه.

وقد توفى ذلك الوالى ودفن ببغداد سنة ١٥٧ هـــ = ٧٧٣م بعد ست سنوات من الحكم الناجح فى بلاد السند.

وخلفه فى عمله ببلاد السند.

معبد بن الخليل التميمى ١٥٧ ـ ١٥٩ هـ = ٧٧٣ ـ ٧٧٥م

وكان حسن المعاملة محمود السيرة بين الرعيه ، حازم فـــي حكمه ، وشهدت البلاد امن واستقرارا فى فترة ولايته ، التى لم تطـــل أكثر من سنتين حيث مات بالمنصورة فى اوائل خلافه المهدى ســـنة ١٥٩ هـــ = ٧٧٥م.

ويذكر للخليفة المنصور قضاؤه على الفتن والمنازعات القبلية على امتداد رقعة الدولة الإسلامية بما فى ذلك بلاد السند ، كما شهدت البلاد بدء النهضة العلمية والفنية التى ازدهرت فيما بعد وأسهم فيهـــا علماء من بلاد السند.

أما الخليفة المهدى (١٥٨ ـــ ١٦٩ هــ = ٧٧٤ ـــ ٧٨٥م)

فقد حرص على تبليغ كلمة الله وأرسل رسائل ووفـــودا إلـــى البلـــدان المختلفة ، من بينها رسائل إلى ملوك وامراء الهند ، تـــدعوهم إلـــى الدخول فى الإسلام ، فاستجاب لدعوته خمسة عشر ملكا واميرا.

وفى سنة ١٥٩ هـــ ٧٧٥م توجهت حمله بحريه إلى بلاد الهند يقودها عبد الملك ابن شهاب المسمعي ، وكانـــت تتكـــون مـــن جنـــد متطوعة ومرابطين من الأقاليم المختلفة ، بلـــغ عـــددهم تســـعة الاف ومائتين.

وبعد أن انقسم هؤلاء إلى فرق ، توجهوا إلى بلاد فارس ومنها استقلوا سفنا حربية إلى بلاد الهـــد ، فوصـــلوا إلـــى ميـــاء باربـــد "بهاربهوت" حيث دار قتال عنيف بين المسلمين وبين الكفار انتصـــر فيه المسلمون وفتحوا المدينة ، وأشعلوا النار فى معبد بوذى صـــخد

طانين أنه قلعة عسكرية ، لأنه كان على شكل بــرج واستشـــهد مـــن المسلمين بضعة وعشرون.

ويبدو أنه قد حدث اضطرابات سياسية فى منطقة " كجــرات " ترتبت عليها مضايقات للتجار المسلمين وأســر لبعضـــهم ، ولحقــت أضرار بالمسلمين ، ولذلك قامت هذه الحملة لإنقاذهم وقد نجحت فــى مهمتها وانتشر الأمن والاستقرار فى المنطقة ، ولكن الى حين ، فقــد اشتدت درجة الحرارة وهبت رياح سامة وانتشرت الأوبئة فى المنطقة وساعدت على مقتل كثير من المسلمين ، الشئ الذى دفعهم إلى ركوب السفن والتوجه إلى بلاد فارس ، وما أن وصلوا خليج العــرب حتــى اشتدت الرياح مرة آخرى وارتطمت الســفن واصـــطدمت ببعضـــها فتكسرت وغرق معظم من بها ولم ينج إلا القليل.

وهكذا شهد عصر المهدى فتناً فـــى بـــلاد الســـند ، وعـــادت الخلافات بين العرب تطل برأسها من جديد ويشتد النزاع بين القبائـــل وكان الولاة من الضعف بحيث لم يستطيعوا عمل شـــئ ، حتـــى انـــه توالى على هذه البلاد أحد عشر والياً على مدار احدى عشـــرة ســـنة حتى نهاية فترة خلافة المهدى أى بمعدل وال كل سنة ، بـــل وصـــل عدد الولاة فى سنة واحدة ثلاثة فى بعض الأحيان، وهؤلاء الولاة هم:

روح بن حاتم ١٥٩ هـ - ٧٧٥م.

وقد قام الزط بفتن فى الأجزاء القريبة من بلاد الســـند خـــلال فترة ولايته ، ولم يتمكن من القضاء عليهم ، فنقله الخليفة إلى أفريقية

وحل محله بسطام بن عمرو التغلبي ١٥٩ ـ ١٦١ هـ = ٧٧٥ ـ ٧٧٧م.

وكان نائباً عن أخيه هشام بن عمرو التغلبي الذى كان والياً على السند فى خلافة أبى جعفر المنصور ، وكان قد اكتسب خبرة ومعرفة بأحوال البلاد ، تمكن بفضلها من القضاء على الفتن والإضطرابات الداخلية وفل من شوكة قبائل الزط ، ورغم نجاحه فى إدارة البلاد ، فقد عزل لسبب غير معلوم بعد سنتين من الحكم.

ولاية روح بن حاتم للمرة الثانية سنة ١٦١ هـ = ٧٧٧م.

عاد ذلك الوالى إلى السند من بلاد افريقية ، لكنه لم ينجح فى تدبير الأمور فقد تجددت فتن الزط وطالبوا بتطبيق معاهداتهم مع المسلمين ، ولم يستطع الوالى مواجهتها بسبب ضعف شخصيته ، فقرر الخليفة إرجاعه إلى حيث كان يعنى إلى افريقيه مرة أخرى وولى على السند **نصر بن محمد بن الأشعث الخزاعى ١٦١هـ=٧٧٧م.**

ولم يكن حظه بأحسن من حظ سابقة حيث استمر الزط فى شدة مقاومتهم وتمادوا فى عدائهم للحكم العربى ، تدعمهم قوى خارجيه وتمدهم فيما يبدو بالسلاح والمال ليستمر عداؤهم للإدارة العربية ، ولفشل الوالى وعجز عن القضاء عليهم ، عزله الخليفة فى نفس السنة وعين مكانه.

محمد بن سليمان بن على الهاشمى ١٦١ـ١٦٢هـ = ٧٧٧ـ٧٧٨م

وقد فرض عليه الخليفة أمر بلاد السند ، وعهد إليه بالعمل على حل أزمتها ، فاختار ذلك الرجل قائداً مشهوراً نائباً عنه على تلك

البلادُ وهو عبدالملك ابن شهاب المسمعى ، وقد وصل جيشه إلى هذه المناطق وأصبح على بعد ستة فراسخ فقط من المنصـورة العاصـمة وفجأة جاءه أمر بالعودة إلى البصرة لحاجة الخليفة إليـه فـى مهمـة عاجلة على أن يعود نصر الخزاعى إلى المنصورة.

وقد وصل نصر الخزاعى ، وبدأ يضع خططه لتنظيم أمـور البلاد والقضاء على الفتن بها ، وأعد جيشاً يقوم بهذه المهمة ، ولكـن جاء الأمر بعزله هو الآخر باسرع مما كان يتصور ولأسـباب غيـر معلومة.

وهكذا لم يكن يتح للوالى أن يبقى فى منصبه إلا لأيام معدودة لاتمكنه من فهم المشكلات فضلاً عن حلهـا وإدارة الـبلاد بصـورة حاسمة.

ولاية الزبير بن العباس الهاشمى ١٦٢هـ-٧٧٨م.

وقد أهمل هذا الوالى بلاد السند ولم يهتم بها أو يحـاول حـل مشاكلها ، وترك الفتن يشتد أوارها ، ولهذا فقد عزله الخليفة بعد أشهر من ولايته بل يقال أنه لم يبلغ البلد.

مسيح بن عمرو التغلبى ١٦٢ هـ - ٧٧٨م.

هو الأخ الاصغر للوالى هشام بن عمرو ، وقد رافقـه أثنـاء فترة ولايته واكتسب خبرة بأحوال هذه البلاد ، ولهذا فقد تمكن بفضل مهارته العسكرية والسياسية من القضاء على الفتن والاضطرابات فى مناطق الزط ، ولكن العصبية القبلية للأسف برزت من جديد ونشـبت

الحرب بين النزارية واليمانية ، وبلغت أحوال العرب درجة من السوء لم يتمكن الوالى معها من فعل شئ وتعذر عليــه الإصــلاح والقيــام بواجباته ، ولذا قرر ترك البلاد.

ولاية نصر بن محمد الأشعث الخزاعى للمرة الثانيـة ١٦٣ ـ ١٦٤ هـ = ٧٧٨ ـ ٧٨٠م.

وقد فشل هذه المرة وأخفق فى حل المشاكل كما حدث من قبل فى المرتين السابقتين ، وبقى ببلاد السند حتى توفى بها بعد سنتين ثــم عهد لسطيح بن عمرو التغلبى بإدارة شئون البلاد بصورة مؤقته إلــى أن اختير لها بعد شهور والى جديد هو:

الليث بن طريف ١٦٤ ـ ١٧٠ هـ = ٧٨٠ ـ ٧٨٦م.

وقد اختاره الخليفة بنفسه لما يتمتع به من حنكة سياسية وقدرة عسكرية عله ينجح فى إعادة الأمور إلى نصابها الطبيعى فــى بــلاد السند ، وقد وصل الوالى الجديد إلى العاصمة ، وبدأ بداية موفقة حيث عمل على دراسة الأوضاع السياسية والاجتماعية دراسة دقيقة ووضع خطط الإصلاح فى ضوء ما توصلت إليه تلك الدراسة ، فجمع زعماء العرب وعقد صلحاً بينهم بشكل أرضى كل الأطــراف وحقــق لهــا أهدافها ، ونجح فى تكتيل هؤلاء معه ضد الزط ، وكان هــؤلاء قــد قاموا باضطرابات عنيفه استعدوا لها ، وجمعوا السلاح علــى مــدار سنوات ، وكانوا من الخطورة بصورة جعلت الوالى لايســتطع حــل مشكلتهم سواء بالأساليب العسكرية أو السياسة ، وكتب للخليفة المهدى

بحقيقة الوضع فوجه رسلاً إلى الملوك فى المناطق المختلفة يدعوهم إلى الطاعة وأمد والى السند بجيش ضخم وجند كثير ، وفى الحال قضى على كل المفسدين والمشاغبين بالقتل فى كل أنحاء البلاد ، وخاصة فى مناطق قبائل الزط ، وبذلك عاد الأمن وعرفت البلاد الاستقرار والطمأنينة من جديد ، وتقدمت الزراعة والصناعة وازدهرت العلوم ، وظل ذلك الوالى يخدم البلاد إلى أن عزله الخليفة الجديد مع غيره من الولاة سنة ١٧٠ هـ = ٧٨٦م.

وفى فترة خلافة هارون الرشيد ، تولى أمر بلاد السند:

سالم اليونسى _(البرنسى) ١٧١_١٧٤هـ=٧٨٧_٧٩٣م.

وقد استفاد من جهود سلفه وعرفت البلاد الهدوء والطمأنينة فى زمنه وكان حسن السيرة ، رضى عنه كل فئات الشعب وساسهم بلا مشاكل على مدار سنوات أربع ، بعدها نقلها الخليفة لمنصب أعلى سنة ١٧٤ هـ ــ ٧٩٠ م وولى مكانه:

إسحاق بن سليمان بن على بن عبدالله العباسى الهاشمى ١٧٤هـ = ٧٩٠م.

وكان رجلاً فاضلاً محباً للعلماء ، وقد أحاط نفسه بالأطباء ورجال الرياضيات والفلك ، وحرص على الترجمة من اللغات الأخرى إلى العربية ، ولكن القدر لم يمهله فتوفى بعد أشهر قليلة من ولايته على السند ، وحل محله.

طيفور بن عبدالله الحميرى ١٧٤ ــ ١٧٥هـ = ٧٩٠_٧٩٢م

وقد أيدته اليمانية لأنه منهم ، ووقف معهم وحارب النزارية وتجددت الفتن الطائفية واشتدت الخصومات بين القبائل العربية ، وعلم الخليفة بسياسته وما جرته من مشكلات فأمر بعزله بعد ولاية استمرت عاماً وحل محله:

جابر بن الأشعث الطائي ١٧٥ـ١٧٦هـ=٧٩٠ـ٧٩١م.

وقد عزل بعد عام واحد لفشله فى إدارة البلاد أيضاً ، وجاء بعده والياً على السند.

كثير بن مسلم بن قتيبة ١٧٦ ـ ١٧٩هـ

كان الخليفة هارون الرشيد قد فوض حاكم العراق سعيد بن مسلم ابن قتيبة فى أمر بلاد السند ، فولى أخاه كثير عليها ، وبعد أن تسلم أعنة الحكم فى المنصورة العاصمة ، أشتغل بمصالحه الخاصة وأساء السيرة وضاق الناس به ، ووصل أمره للخليفة هارون الرشيد ، فأمر بعزله.

محمد بن عدى التغلبى ١٧٩ـ١٨١هـ=٧٩٥ـ٧٩٧م.

فوض الخليفة هارون الرشيد عيسى بن جعفر بن منصور العباسى فى أمور بلاد السند ، فعين الأخير محمد بن عدى التغلبى نائباً عنه ، فقدمها ونيران العصبية مشتعلة ، ولما لم يستطع اطفاءها حاول ترك المنصورة والتوجه إلى الملتان فى اقليم البنجاب ، بيد أن أهلها خافوا أن تنتقل إليهم مساوئ العصبية وويلاتها فمنعوه من دخول مدينتهم ، وقاتلوه على أبوابها ، واستولوا على كل ما معه من أسلحة

وأمتعة ، واضطروه للعودة من حيث أتى ، فحدث نزاع بين اليمانيين والنزاريين فى المنصورة ، وعلم الخليفة بذلك كله فعزله عن السند سنة ١٨١هـ.

ولاية عبدالرحمن ١٨١ـ١٨٢هـ=٧٩٧ـ٧٩٨م.

اختار الخليفة رجلاً ، لايعرف عنه أكثر من اسمه ، ويبدو أن المشاكل كانت أكبر من طاقاته ، فلم يستطع له حلاً ، ولذلك نحاه هارون الرشيد بعد سنة واحدة.

أيوب بن جعفر بن سليمان الهاشمى ١٨٣ـ١٨٤هـ=٧٩٨ـ٨٠٠م

وقد وصل إلى السند ، وفى ذهنه أن حل مشكلة العصبية القبلية التى اهلتكت البلاد ، وحطمت البيوت جميعاً ، فيه أنهاء لكل مشكللات البلاد ، فبذل قصارى جهده ، ولكنه لم يوفق فى عقد صلح بين الاطراف المتناحرة ، وأراد الخليفة اختيار شخصية لها مقدرة وخيرة ، فكانت شخصية.

داود بن يزيد بن حاتم المهلبى ١٨٤ ـ ٢٠٥هـ=٨٠٠ـ٨١٠م.

خشى " داود " ان يذهب بنفسه أول الأمر ، فيفقد مكانه ومنزلته فى خضم المعارك القبلية بالسند ، لذلك عين أخاه المغيرة نائباً عنه وأمده بجيش وبعث به إلى المنصورة ، وتلك سنة ابتدعها كبار الحكام وراجت فى فترة ضعف السلطة المركزية ، لكن النزارية أغلقوا ابواب المنصورة فى وجه الوالى الجديد واشترطوا عليه اخراج اليمانية منها إن اراد دخولها مع تقسيم البلاد بين قريش وقيس

وربيعة ، فلم يقبل ، فقد كان يمانياً ، فعرضوا عليه أن يخرجوا جميعاً وأن يدخلها هو ويعدل بينهم فلم يوافق أيضاً ودخل المدينة واشتد على النزارية بصورة أدت إلى نشوب القتال ، وانهزم المغيرة وفر إلى غرب السند حيث كتب إلى أخيه داود بما جرى.

لما علم " داود " بالوضع فى بلاد السند ، جهز جيشاً كبيراً ، وتوجه بنفسه إليها بهدف القضاء على النزارية ، ووصل إلى أبواب المنصورة واستمر يقاتل عشرين يوماً ، وفنى خلق كثير ، ومع ذلك لم تفتح أمامه الأبواب ، واستمرت الحرب شهوراً ، ثم تمكن الوالى من الدخول بالقوة وسجن وطارد كثيراً من النزارية وحرق متاجرهم وخرب بيوتهم وساد المدينة هدوء ، وتوفر الأمن والاستقرار لسنوات نتيجة لذلك.

ومما يذكر أن الفضل بن ماهان نجح فى دخول منطقة السندان سنة ١٩٨هـ ، وهى منطقة بعيدة تقع فى اقليم " كجرات " وسيطر عليها واستقل بأمورها مع الاعتراف بالخلافة العباسية ، وقد بعث للخليفة المأمون بفيل وبعض الهدايا ودعا له فى المسجد الجامع ثم توارث الحكم أبناء الفضل حتى قضى عليها الغزنويون أوائل القرن الخامس الهجرى.

وقد اهتم الوالى " داود " بالاصلاحات الداخلية وتنظيم أحوال البلاد ، فحسبها ما لحقها من أضرار وخسائر جسيمه فى الماضى وقد نجح فى تحقيق ذلك إلى حد كبير ، فازدهرت البلاد على امتداد فترة

ولايته الطويلة فى ميادين الثقافة والعلوم والتجارة وتحسنت العلاقات العربية السندية كثيراً ، وتبودلت الهدايا والتحف النادرة بين الخليفة هارون الرشيد وبعض ملوك وأمراء السند والهند ، وتوفى ذلك الوالى بالمنصورة سنة ٢٠٥هـ بعد عشرين عاماً قضاها فى العمل على نهضة بلاد السند والارتقاء بها فى مختلف الميادين ، وكان على رأس الدولة العباسية آنئذ الخليفة المأمون ، الذى ولى على بلاد السند بعد وفاة داود ابنه.

بشر بن داود المهلبى ٢٠٥-٢١٢هـ=٨٢٠-٨٢٧م.

واشترط عليه أن يدفع للخلافة سنوياً عشرة ملايين درهم — أو مليون درهم وفقاً للطبرى وابن الأثير — وهو ماكان يدفعه أبوه من قبل ، وقد واصل سياسة أبية لعدة سنوات ولكنه ما لبث أن تغير وامتنع عن ارسال مبلغ الخراج للعاصمة ، وربما اغتر بماله من قوة ونفوذ وباستقرار وازدهار البلاد فى عهده وعهد أبيه ، ولذا فقد عزله الخليفة وولى مكانه.

حاجب بن صالح ٢١٢هـ=٨٢٧م.

وصل الوالى الجديد إلى منطقة مكران ، ولقى المسئول عنها — وهو أخ لبشر بن داود — وطلب تسليم البلدة إليه ، ولكن المسئول رفض بحجة أنه تابع للوالى المقيم فى المنصورة ، وأن على المعين أن يتسلم العاصمة أولاً ثم الاقاليم التابعة لها.

ولكن " حاجب بن صالح " خشى من مواجهة بشر ، خاصة وفى الامكان حصره بين المصنورة ومكران والقضاء عليه ، فجبن وتردد ، وعلم الخليفة المأمون بقصته ، فولى على البلاد.

غسان بن عباد المهلبى ٢١٣-٢١٦هـ=٨٢٨-٨٣١م

وقد اختاره الخليفة لما يتميز به من قوة وجرأة ، ولأنه من آل المهلب ، نفس قبيلة بشر ، ولجأ الخليفة إلى اجراء آخر هو دعوة محمد أخو غسان وتكليفه باعداد جيش قوى يذهب على رأسه إلى بلاد السند ، ويعمل للقضاء على الفتنة هناك وإحضار الوالى المعزول إلى مقر الخلافة ، ويبقى الكل هناك إلى استقرار الأحوال تماماً ثم يسلم الحكم بعد ذلك لموسى بن يحيى بن خالد البرمكى.

وتم تنفيذ ما أراده الخليفة ، ووصل غسان بالقرب من المصنورة فخرج إليه " بشر " معتذراً وسلم ما عليه من خراج متأخر وترك له مقاليد الحكم ، بل وسمح بوضع القيد فى يده تمهيداً للتحقيق معه ، وقضى " غسان " مدة ينظم أمور البلاد ثم سلم الحكم لموسى بن يحى البرمكى بناء على تعليمات الخليفة.

وفى سنة ٢١٦هـ وصل غسان برفقة بشر إلى دار الخلافة ، وقد عفا عنه الخليفة وقبل شفاعة آله ، كما قبل المبررات التى قدمها بين يدى اعتذاره ، وأطلق سراح اسرته وأكرمهم وأنعم عليهم ، وأقام حفل تكريم لغسان لنجاحه فى مهمته ، وأنشد الشعراء شعراً فى هذه المناسبة.

موسى بن يحيى البرمكي ٢١٦-٢٢١هـ=٨٣١-٨٣٥م

كان أحد أمراء السند قد أقام حفلاً دعا إليه أمراء وحكام المناطق المختلفة ، بهدف التفاخر وإظهار العظمة ، وكان " غسان " الوالى السابق قد دعى إلى ذلك الحفل ، واعتبر ذلك اهانة له ولكن ظروف عودته السريعة إلى بغداد ، لم تمكنه من رد تلك الاهانة وكان ذلك من نصيب الوالى الجديد الذى ارسل حملة إلى منطقة ذلك الأمير السندى (باله ملك الشرقى) ونشبت معركة حامية انتصر فيها المسلمون وأسر الأمير الذى جاء عند الوالى موسى ورفض دفع فدية مقابل الحفاظ على حياتة ، فنفذ فيه حكم الاعدام.

وقد انخفض الخراج فى عهد ذلك الوالى إلى مليون درهم فقط رغم تحسن العلاقات التجارية بين البلاد العربية والبلاد السندية وإن كان ذلك الوالى قد نجح فى ترك بصماته على العلاقات العلمية ومات فى سنة ٢٢١ ليخلفه على بلاد السند ابنه عمران بن موسى البرمكى.

فتح سندان وقالى ببلاد الهند

فى سنة ٢١٧هـ=٨٣٢ قام الفضل بن ماهان ـ وكان حاكماً عربياً على منطقة سندية بحملة على مدينة سندان الهندية وفتحها وحكمها بصورة مستقلة وإن ذكر اسم الخليفة العباسى فى خطبة الجمعة بالمسجد الجامع ، وقدم إليه بعض الهدايا القيمة ، فرضى المأمون عنه ، وسرَ لأن قائداً عربياً امكنه اقامة امارة صغيرة مسلمة

فى بلاد الهند ، ولكن الفضل بن ماهــان تــوفى بعاصــمة امارتــه الجديــدة ، ومات الخليفة المأمون أيضاً ، وانتقلت الخلافة إلى:

المعتصم بالله (٢١٨ــ٢٢٧هــ) - ٨٣٣ــ٨٤١م.

كان محمد بن الفضل قد خلف ابــاه ، وأراد توســيع دولتــه الصغيرة عن طريق فتح بعض المدن الهندية المجــاورة ، فقــام أولاً بحملة على مناطق قبائل الميد القريبة منه ، وقتل الكثيــرين مــنهم ، وسيطر على مواطنهم ثم اتجه نحو مدينة " قالى " وفتحها ، ورغــب فى مواصلة الفتوحات لولا خبر وصله عن انقلاب قام به أخوه ماهان بن الفضل ، استولى به على الحكم فى " سندان " فقرر العــودة إلــى العاصمة ولم يستطع دخولها ، لأن أخاه كــان قــد حصــنها جيــداً ، واضطر محمد بن الفضل إلى مكاتبة الخليفة العباســى وأهــدى إليــه وطلب عونه.

ولكن ماهان بن الفضل علم بذلك ، فجهز جيشاً مــن اتباعــه ومن السند المقيمين فى العاصمة ، وخرج للقاء أخيه قبــل أن يأتيــه المدد العباسى وهزمه وأسره بل زاد وقتله بصورة جعلت الشاعر أبــا العتاهية يتألم ، ويسجل ذلك فى شعره:

ما على ذا كنا افترقنا بسندا * ن وما كنا هكذا عهدنا الإخــاء

تضرب الناس المهندة البيــ * ض على غدرهم وتنسى الوفاء

وانتهز حكام الهند هذا الخلاف المرّ وصعوبة الإتصال بالخليفة العباسى وبوالى السند ، وبعد المسافة ، وقاموا متحدين بحملــة علــى

سندان وقالى وموطن قبائل الميد واستولوا عليها جميعاً ، وأسروا ماهان نفسه وقتلوه وصلبوه وسقوه من نفس الكأس التى أسقى منها أخاه ، وأن تركوا مسجد " سندان " يقيم المسلمون فيه الصلوات ويدعون للخليفة العباسي.

وهكذا كانت الأنانية والفرقة والنزاع ، وراء ضياع دولة لم يكتب لها الإستمرار إلا لفترة بلغت نحو عشر سنوات ، ولو بقيت ، ولم تعصف بها العواصف ، لتغيرت وجهة التاريخ فى هذه البقاع.

عمران بن موسى البرمكى ٢٢١-٢٢٦هـ ٨٣٥-٨٤٠م

بقى موسى البرمكى والياً لمدة ثلاث سنوات أثناء خلافة المعتصم بالله ، ولما مات سنة ٢٢١ هـ ولى الخليفة ابنه عمرانٍ على بلاد السند على أن يدفع خراجاً مقداره مليون درهم سنوياً.

وبعد أيام قليلة من ولايته قامت قبائل الزط والميد Meds & Jots السندية بالفتن والإضطرابات فى كل البلاد خاصة فى المناطق الغربية لنهر السند ، منتهزين فتنا قام بها نظراؤهم فى العراق ، وقد تمكن المعتصم من القضاء على حركة هؤلاء ونفاهم إلى آسيا الصغرى وغيرها.

أما عمران البرمكى فقد توجه بجيشه إلى منطقة القيقان وقاتل الزط بشدةٍ ونجح فى توفير الأمن والإستقرار بالمنطقة ، ونظراً لخطورتهم واشتهارهم بالفساد والنهب ، قرر الوالى اقامة مدينة تكون بمثابة مراكز عسكرية ، يستطيع الجيش منها مراقبة هؤلاء والقضاء

على خطورتهم ، فبنى مدينة فى منطقة " بوقان " أسماها " البيضـــاء " أسكنها العرب بهدف نشر الإستقرار والأمان.

عاد الوالى إلى العاصمة المنصورة فعلم أن أهل " قنـــدابيل " (كنداوى) قاموا باضطرابات فيها ، وهى مدينة حصينة تقع على جبل ويحكمها رجل متغلب من العرب يدعى " محمد بن الخليـــل " رفـــض الولاء لحاكم السند ، فحاربه البرمكى وفتح المدينة وألقى القبض على قادتها وعين عليها حاكماً عسكرياً.

لم يكد الوالى ينتهى من فتنة هؤلاء حتى علم بقيام جماعـــات الميد باضطرابات وفوضى مماثلة فى منطقتهم ن فتوجه إلى مـــواطن إقامتهم على ضفة نهر السند ، وقتل منهم ثلاثـــة آلاف فـــى معركـــة واحدة ثم قطع دابرهم فى منطقتهم المحصنة ، وعاد إلى المنصـــورة العاصمة بعد أن نجح فى فرض الأمن والإستقرار ، ولكن لا ليعـــيش فى اطمئنان بل ليصادف مشكلة أشد خطورة هى مشكلة الصراع بين القبائل العربية نفسها وفى نفس العاصمة.

لقد فقد زعماء النزارية فى عهد داوود المهلبى الكثيـــر مـــن ممتلكاتهم وأموالهم ، ثم جاء عهد موسى البرمكـــى فعمـــل النزاريـــة واليمانية على تقوية أوضاع قبائهلم سرا ، لأن كليهما كـــان يتـــوجس شراً من الآخر ، وينتظر لحظ يتفجر فيها الصراع بينهما.

وقد تجددت مظاهر النزاع القبلى ببلاد السند فى عهد " عمران البرمكى " رغم أنه كان محايداً ، ولكنه مالبث أن مال إلـــى اليمانيـــة

معتقداً أنهم ظلموا هذه المرة وأنهم قلة صبرت ، وقد أراد اتباع نفس سياسة داود المهلبى مع النزارية دون أن يضع فى اعتباره أن " داود " جاء بجيش قوى وقواد من بغداد أما هو فمن النزارية ومن سكان المنصورة ومتهم بأنه يعمل لصالحهم ، وبسبب ميوله مع اليمانية أخذ النزارية يبذلون قصارى جهودهم لإسقاطه ، واتحدوا تحت قيادة زعيم إسمه " عمر بن عبدالعزيز الهبارى " ، سليل أسرة قدمت بلاد السند منذ فترة الحكم بن عوانه الكلبى وسكنت منطقة " باتيه " واكتسب الرجل خبرة بأحوال هذه البلاد ، وقد مكنه ذلك كله من القيام بحملة على رأس النزارية ضد عمران البرمكى وقتله ٢٢٦هـ=٨٤٠م واستولى مؤقتاً على أزمة الحكم فى العاصمة.

وهكذا بدأت الحرب الأهلية العربية من جديد. وانفرط عقد القبائل العربية. وكالعادة انتهز الزط والميد الفرصة وقاموا باضطرابات وفتن موجهة ضد العرب ، كذلك استقل الحكام بكثير من القلاع والمناطق فى السند.

ولاية عنبسة بن اسحاق الضبى ٢٢٦-٢٣٥هـ=٨٤٠-٨٤٩م

بأمر من والى خراسان وموافقة الخليفة المعتصم تولى عنبسة بن اسحاق الضبى على بلاد خرسان ٢٢٦هـ ، ولما آل أمر الخلافة العباسية إلى الواثق بالله ٢٢٧هـ ، وافق على بقاء هذا الوالى فى منصبه.

وقد اهتم عنبسة بالقضاء على الخلافات بين اليمانية والنزارية ونجح فى ذلك إلى حدّ كبير ، ولكنه لم يعاقب عمر بن عبدالعزيز الهبارى على قتله للوالى السابق ، مما يشير إلى القوة والنفوذ الذى وصل إليه النزاريون مما جعل الوالى يغض الطرف عما فعله زعيمهم هذا وحتى لايسبب ثائرتهم ، كذلك اهتم بأن يعيد إلى الطاعة الولاة من السند والعرب الذين استقلوا بقلاعهم وأقاليمهم ، ونجح فى مهمته ، وهكذا عاد الأمن والإستقرار إلى البلاد وقوى الحكم بفضل وحدة الجماعات العربية.

ومن الإصلاحات التى تذكر "الصبى" بناؤه سجنا مركزياً كبيراً، بعيداً عن المواطن التى ألفت الفوضى والإضطرابات، ليتم فيه التحفظ على المفسدين من المناطق البعيدة، لأن المواطنين كانوا يقومون على السجون فى المدن الصغيرة ويطلقون سراح المعتقلين بها

وقد وقع اختيار "الضبى" على مدينة الديبل وعلى المعبد الكبير الحصين الذى حطم محمد بن القاسم علمه وأبراجه ٩٢هـ ليكون مقراً لهذا السجن ، فقد كان هذا معبداً بوذياً وأصبح خالياً مهملاً بعد تحول كثير من البوذيين إلى الإسلام ، فأمر الوالى بقطع رؤوس الأبراج العالية لهذا الحصن وبنى اسقفاً متينة عليه ، واستفاد من الأحجار الفائضة فى ترميم بعض الأماكن المهمة فى الديبل ، وكان ذلك ٢٣٢هـ ، وهكذا تحول المعبد العالى إلى سجن مركزى امتلأت قلوب المفسدين رعباً منه ، وأمنت البلاد واستقرت.

ومما يذكر أنه فى خلافة المأمون العباسى قامت أول دولة عربية فى الهند مستقلة عن الخلافة العباسية ، لا يربطها بها إلا الدعاء والولاء ، وكان أسمها الدولة الماهانية بزعامة الفضل بن ماهان مولى بنى سامه.

لقد تولى المتوكل على الله خلافة العباسيين ٢٣٢ـ٢٤٧ هـ ـ ٨٤٦ ـ ٨٦١م.

وعمل على عزل كل ولاة الأقاليم ، وعمل والى السند برغبة الخليفة فترك البلاد وتوجه إلى بغداد ، وعين المتوكل على بلاد السند.

هارون بن أبى خالد المروزى ٢٣٥ ـ ٢٤٠ هـ ٨٤٩ ـ ٨٥٤م.

وصل الوالى الجديد إلى تلك البلاد ولم يسوسها بحكمة كما فعل سلفه وقويت شوكة النزارية فى عهده تحت قيادة زعيمهم عمر بن عبدالعزيز الهبارى ، وتجددت النزاعات بين هؤلاء المضرية وبين اليمانية ودامت خمسة أعوام إلى أن قتل الوالى ٢٤٠ هـ ـ ٨٥٤م.

وفى نفس ذلك العام استولى عمر بن عبدالعزيز الهبارى على الحكم فى السند وكتب للخليفة يطلب منه التفضل بالموافقة على تعيينه ، ويتعهد بتنظيم الأمور الداخلية والعناية بالشئون الخارجية ، فإن له معرفة واسعة بكل هذه البلاد وخبرة بمشاكلها بحكم نشأته وترعرعه فيها ، وأعرب عن إخلاصه وولائه للخلافة ، وقد وافق الخليفة على تلك الرغبة.

ولما أصبح عمر بن عبدالعزيز والياً أخذ فى انتاج سياسة مستقلة ، وساعدته الظروف السياسية التى واجهت مركز الخلافة على تبنى ذلك المخطط الإستقلالى ، ولم يكن يربط السند بالخلافة العباسية إلا مجرد الإعتراف من الناحية الرسيمة المذهبية واستمر الحال على ذلك مدة تصل إلى قرن تتابع على الحكم خلاله آل الهبارى.

وفى الوقت الذى استقل فيه " الهبارى " بالمنصورة قامت دولة فى الملتان بإقليم البنجاب باسم " الدولة العربية " كما سنرى.

الخوارج فى السند

أما عن الخوارج فى بلاد السند فيقال أن العلافيين الذين هاجروا إلى بلاد السند زمن الحجاج ينتمون إلى جماعة الخوارج وإنهم عاونوا منصور ابن جمهور الكلبى الخارجى على الإستقلال بحكم بلاد السند لمدة ست سنوات وإقامة حكومة خارجية مؤقته بها ، وكان كثيرون من زعماء الخوارج يلجأون إلى بلاد السند فراراً من اضطهاد آخر خلفاء بنى أمية مروان بن محمد ، وعندما قامت الدولة العباسية قلت من شوكة الخوارج فقد كان حكامها خبراء بمواطنهم وجوانب قوتهم وأساليبهم ، ولهذا أمكنهم القضاء عليهم ، ومع ذلك فقد تمكن بعض الخوارج من عمان من الوصول إلى بلاد السند لتكوين قوة والدعوة لمذهبهم والعمل ضد العباسيين والتعاون مع خصومهم فى هذه البلاد النائية البعيدة عن نفوذهم.

وفى سنة ١٤٢هـ = ٧٥٩م قدم حسان بن مجاهد الهمذانى الخارجى من الرقة إلى بلاد السند بحرا ، وجاب أرجاء البلاد علّه يجد مؤيدين وقوى عسكرية تساعده على إقامة دولة ينطلق منها لمحاربة الخلافة العباسية ، لكن الوالى العباسى عمر ابن حفص اضطره للعودة إلى الموصل.

وهكذا ترى أن هذه البلاد لم تر نشأة أو إقامة دولة باسم الخوارج تدين بمذهبهم وتعمل على تحقيق مبادئهم ، وكل ماهناك محاولات قام بها بعض الخارجين على بنى أميه ثم على بنى العباس ، استغلالاً لبعد هذه البلاد وكونها نائية عن مركز الخلافة ورغبة منهم فى تكوين الإتباع ونشر المذهب وتكوين القوات والتعاون مع خصوم الحكومة الشرعية فى نشر الفوضى وإشاعة الإضطرابات وعمل كل ما من شأنه إضعاف الخلافة المركزية ، ومع ذلك فلم يتمكن هؤلاء من إقامة دولة تحكم باسمهم.

ولكن ما تعرضت له الخلافة العباسية من ضعف فى هذه المنطقة بعد ذلك وانشغالها بالمشاكل الداخلية ساعد على قيام دولتين شبه مستقلتين بإقليمى السند والبنجاب ابتداء من ٢٤هـ=٨٥٤م هما الدولة الهبارية والدولة العربية بالملتان كما ذكرنا.

وقد استقرت أمور هاتين الدولتين ، بسبب تحسن أحوالهما الإقتصادية وما كان لهما من نشاط تجارى ، وازدهرت فيهما العلوم

والحضارة ، وأوى إليهما الفارون مــن بطــش عاصــمة الخلافــة .
فلنخص كلا منهما بكلمة:

الفصل السادس

الدول العربية المستقلة فى السند والبنجاب

- الدولة الماهانيـــة.
- الدولة السامية بالملتان.
- الدولة المعدانية فى مكران.
- الدولة الهبارية ببلاد السند.
- الدولة العربية فى الملتان.

الإمارات الإسلامية العربية

المستقلة بالهنـــــد:

انقطعت تماما بعد خلافة المتوكل صلة العرب بـبلاد السـند ٢٤٩هـ/٨٦٣م وأنشئت الدويلات المستقلة التى كان لهـا اسـتقلالها الذاتى وكانت هذه الدويلات فى الوقت نفسه تعتبر الخلفاء العباسـيين أصحاب السيادة الروحية.

من الواضح أن عمال السند كانوا مشغولين فى معظم أوقـاتهم فى إخماد الثورات ضد الخليفة العباسى وكان هناك خلاف بين اليمنية والمضربة وأن كل منهما كان يريد السيطرة على الحكم ، كانت هناك التنظيمات السرية للخوارج والروافض والإسماعيلية كـانوا ينشـرون دعوتهم سراً ، ومن ناحية أخرى كانت هناك ، بعض القبائل الهنديـة مثل الزط والميد كانوا يرفعون علم الثورة ضد العمـال العباسـيين. والمقصود من هذا أن الجو فى السند كان مشحونا بالخطر وأن العمال العباسيين كانوا يقضون معظم أوقاتهم فـى إخمـاد هـذه الثـورات والخلافات ولذلك فان العمال العباسيين لم يتجهوا خارج السند.

الدويلة الماهانية سنة ١٩٨هـ/٨١٣م:

فى مثل هذه الظروف أقام مولى بنى سامة (الفضل بن ماهان) حكومته فى عصر المأمون فى السندان بعيدا عن السـند بالسـندان ،

ونلاحظ أن السندان لم يكن لها أى علاقة مع الخلفاء العباسيين بل أنها كانت من أراضى كجرات ملك بلهرا ونلاحظ أن المسلمين كانوا يحاولون السيطرة على هذه المنطقة من عهد عمر رضى الله عنه وأن الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور كان أول من أرسل حيشاً إلى هذه المنطقة ولكن لم يتحقق هدف العباسيين إلا فى عهد المأمون عندما استطاع الفضل بن ماهان أن يفتح هذه المناطق.

أن الفضل بن ماهان كان سياسياً ناجحاً ولذلك لم يقطع صلته مع الخلفاء العباسيين رغم أنه كان حراً فى حكمه تماماً ، لأن الفضل بن ماهان قد حقق بهذا هدفين أولاً إرضاء الخليفة العباسى وضم هذه المنطقة إلى خلافة المسلمين ثانياً أنه كان مستقلاً فى حكمه تماماً رغم ارتباطه الاسمي بخليفة العصر.

الدليل على قيام الدولة الماهانية :

وما قاله البلاذى فى هذا المجال " وحدثنى منصور بن حاتم قال: كان الفضل بن ماهان مولى بنى سامة فتح سندان وغلب عليها وبعث للمأمون بفيل وكاتبه ودعا له فى مسجد جامع اتخذه بها ، فلما مات قام (محمد بن الفضل بن ماهان) مقامه فسار فى سبعين بارجة إلى ميد الهند فقتل منهم وافتتح قالى ورجع إلى السندان وقد غلب عليها أخو له يقال له ماهان بن الفضل وكاتب أمير المؤمنين المعتصم بالله وأهدى إليه ساجاً لم ير مثله عظماً وطولاً ، وكانت الهند فى أمر

أخيه محمد فمالوا إليه ، فقتلوه وصلبوه ، ثم أن الهند غلبوا على سندان فتركوا مسجدها للمسلمين يجتمعون فيه ويدعون للخليفة.

أن هذا النص يشير بصراحة إلى أنه كانت هناك الدويلة التى أقامها الفضل بن ماهان بعد نصره على سندان ولكن البلاذرى لم يشر كيف فتح الفضل بن ماهان السندان هل كانت هناك أية مقاومة من جانب سكانها الأصليين؟ أن القرائن تشير إلى أنه لم تكن هناك أى مقاومة من جانب سكان السندان بل أن الفضل بن ماهان قد فتح البلاد صلحاً للأسباب الآتية:

١ ـ لو كانت وقعت أية مقاومة لذكرها المؤرخ البلاذرى.

٢ ـ من الواضح أن العمال العباسيين قد حاولوا بقدر أمكانهم أن يسود السلام والأمن فى المنطقة ، ومن ناحية أخرى فان العمال العباسيين فى الهند كانوا غير متعصبين ضد الديانات الأخرى.

ولا نجد فى كتب التاريخ أى تصرف منهم يشير إلى تعصبهم ، ولكن الفاتحين العرب كانوا غير متعصبين وراعو تعاليم الاسلام تماماً خصوصاً أن العامل العباسى (هشام بن عمرو التغلبى) ونائبه قد أقاما أعمالاً كثيرة لصالح البلاد ولذلك فان الأمراء والسكان المجاورين للسند سمعوا عن هذا الخير والبركة ورحبوا بالفضل بن ماهان بدلاً من أن يثوروا ضده ، أن المؤرخ البلاذرى يقول: " ثم أن الهند بعد وغلبوا على سندان فتركوا مسجدها للمسلمين يجتمعون فيه ، ويدعون للخليفة ". أن هذا النص يؤيد ما نذهب إليه لأنه لو غلب

الفضل بن ماهان على السندان بالقوة فلماذا أعطى الهندوس المسلمين الحرية فى أداء شعائرهم الدينية والدعوة للخليفة أن كل هذا يشير إلى أن هذه الدويلة قد قامت بالصلح.

قال ياقوت الحموى عن سندان " قال نصر هى قصبة بلاد الهند ولا أدرى أى شئ أراه بهذا ، فان القصبة فى العرف هى أجمل مدينة فى الكورة والناحية ولا تعرف بالهند مدينة يقال لها سندان تكون كالقصبة وإنما سندان مدينة ملاصقة بالسند بينهما وبين الديبل والمنصورة نحو عشر مراحل ولم توصف صفة ما يستحق أن تكون قصيبة الهند ".

أن نصر ياقوات لم يقل بصراحة أن حكومة ماهان كانت على السندان ولكنه اعترف على الأقل بأنها كانت قصبة بلاد الهند التى تشير أهميتها ومن الجائز أنه يشير بهذا إلى حكومة ماهان حينما اعترف البلاذرى بوجود حكومة الماهانية.

من الغريب أن ياقوت الحموى قد يبدى الشك فى كلام نصر عن السندان بالرغم من أنه قد اعتمد عليه كثيراً فى كتابه حتى قال فى مقدمة كتابه عن نصر " ألفه أبو الفتح نصر بن عبدالرحمن الاسكندرى النحوى فما اختلف وائتلف من أسماء البقاع فوجدته تأليف رجل ضابطه قد أنفذ فى تحصيله عمراً وأحسن فأما أنا فكل ما نقلته من كتاب نصر فقد نسبته إليه وأحلته عليه ولم أضع نصبه ولا أخملت ذكره وتعبه والله يثبه ويرحمه ".

بعد هذا الكلام يبدى ياقوت الحموى الشك فى كلام نصر بدون إبداء السبب وهذا كلام غير مفهوم على الإطلاق.

أن سندان كانت معروفة ومشهورة لذا زارها بعض الشعراء العباسيين وذكروها فى شعرهم منهم البحترى وأبو العتاهية هذا دليل على أهميتها مما يرجح أنها كانت عاصمة فى يوم ما.

قال البحترى:

ولقد ركبت البحر فى أمواجه ... وركبت هول الليل فى بياس

وقطعت أطوال البلاد وعرضها ... مابين سندان وبين سجاس

وهكذا شاعر الزهد أبو العتاهية ذكر سندان فى بيته:

ما على ذا كنا افترقنا لسندا ... ن وما هكذا عهدنا الاخاء

تضرب الناس بالمهند البيض ... على غدرهم وتنسى الوفاء

على كل حال أن حضور الشعراء فى هذه الدويلة وذكرها فى شعرهم تشير على الأقل إلى أن المسلمين فى هذه الدويلة كانوا أصحاب قوة وكانت لهم أهمية كبيرة.

حكام الدويلة الماهانية :

أن التاريخ يشير إلى أن الذين حكموا هذه الدويلة كانوا ثلاثة أشخاص فقط:

١ ـ مؤسس الدويلة الفضل بن ماهان مولى بنى سامة.

٢ ـ محمد بن الفضل بن ماهان.

٣ ـ ماهان بن الفضل بن ماهان.

يقول المؤرخ البلاذرى عن مؤسس هذه الدويلة بقوله: " كـان الفضل بن ماهان مولى بنى سامة فتح سندان وولى عليها وبعث إلـى المأمون رحمه الله بفيل وكاتبه ودعا له فى مسجد جامع اتخذه بها ".

أن عصر المأمون يبتدئ من سنة ١٩٨هـ/٨١٣م وينتهى فى سنة ٢١٨هـ/٨٣٣م ، ويظهر أن الفضل بن ماهان قد أقام هذه الدويلة قبل ولاية المأمون بقليل أو بعد ولايته.

على كل حال أن الفضل بن ماهان لم يقطع صلته بالخلافة بعد إقامة هذه الدويلة بل أن يكتب إلى الخليفة الخطابات ويشيره فى أمور الدولة ، وظل يدعو للخليفة فى الخطب كما يظهر من كلام الـبلاذرى وأن الفضل بن ماهان قد بنى مسجداً فى سندان وأن حكومته على هذه الدويلة كانت شخصية ، ولذلك بعد وفاة الفضل بن ماهان تولى ابنـه محمد بن الفضل زمام الحكومة ، يقول البلاذرى عن محمد بن الفضل بقوله: " فلما مات قام محمد بن الفضل بن ماهان مقامـه فسـار فـى سبعين بارجة إلى ميد الهند فقتل منهم خلقاً ، وافتتح قالى ورجع إلـى سندان ".

أن المؤرخ البلاذرى لم يشر إلى مدة حكومة محمد بن الفضل ولكن يظهر أن الأمن والهدوء قد ساد فى عصره ولذلك أنه توجه إلى مناطق خارج السند وقضى على بعض قراصنة البحر الـذين كـانوا يسببون خسائر للتجار من عصر (محمد بن القاسم) بهذا يمكن لنـا أن نقدر أن قوته البحرية كانت قوية.

وفى أثناء غياب محمد بن الفضل تسلط أخوه ماهان بن الفضل على السلطة يقول البلاذرى عن هذا بقوله " ورجع إلى سندان وقد غلب عليها آخر له يقال له ماهان بن الفضل وكاتب أمير المؤمنين المعتصم بالله وأهدى إليه ساجاً لم ير مثله عظماً وطولاً وكانت الهند فى أمر أخيه فمالوا عليه فقتلوه ، ثم أن الهند بعد وغلبوا على سندان فتركوا مسجدها للمسلمين يجمعون فيه ، ويهدى للخليفة " يظهر فى هذا النص أن ماهان بن الفضل قد اغتنم فرصة غياب أخيه وتسلط على الحكومة وانه كان يحاول أخذ الاعتراف من الخليفة المعتصم بالله لمشروعية هذا الاغتصاب ولذلك أنه بعث إليه الهدايا ، ولكن الوقت كان فى صالح محمد بن الفضل لأنه حاول أن يسود الأمن والسلام فى المنطقة.

ثانياً : أنه قضى على هؤلاء القراصنة الذين كانو بمثابة خطر للتجار وبهذه العملية قد ستر هؤلاء الناس كانوا مقيمين حول سندان ولذلك تسلط ماهان بن الفضل على السلطة وقد اعتبر اغتصاباً وأن الهندوس قد ثاروا عليه وصلبوه كما يقول المؤرخ البلاذرى. لعل هذه الدويلة قد انقرضت فى سنة ٢٢٧هـ/٧٤١م فى آخر عهد المعتصم بالله ولذلك لانجد أى نشاط لهذه الدويلة بعد هذه الفترة على الاطلاق.

أن أمراء هذه الدويلة كانوا من أتباع أهل السنة والجماعة كما كان سادتهم بنو سامة ، أن أمراء بنو سامة كانوا يخطبون للخليفة على

المنابرُ نفس هذه الظاهرة نجدها عند أمراء الماهانية حتى أن اثنان منهم وهما الفضل بن ماهان وماهان بن الفضل قد بعثا بالهدايا الثمينة إلى الخلفاء العباسينن.

أثر الإسلام فى سندان:

هل هذه الدويلة المسلمة العربية قد تركت أى أثر من الآثار الاسلامية فى السندان.

فى الحقيقة أننا لانجد أى دليل مادى سوى المسجد الذى بناه مؤسس الدويلة الفضل بن ماهان ، ولكن دلائل تشير إلى أن هذه الدويلة المسلمة قد تركت بعض الانطباعات الحسنة على غير المسلمين التى بقيت بعد انقراض هذه الدويلة وذلك رغم استيلاء الملوك الهندوكيين على السندان فقد تركوا للعرب المسلمين حرية كاملة فى دينهم ومزاولة أعمالهم الدينية.

وقد زار سليمان التاجر هذه المنطقة بعد انقراض الدويلة الماهانية سنة ٢٢٧هـ/٨٤١م وتحدث عن اطئمنان المسلمين فى هذه البلاد وذكر أن أهلها كانوا أكثر الناس حباً للعرب ".

يقول المؤرخ المسعودى فى هذا الصدد " وليس فى ملوك السند والهند من يعز المسلمين إلا ويعز الإسلام فالاسلام فى ملكه عزيز مصون ولهم مساجد مبنية وجوامع معمورة بالصلوات للمسلمين ويملك الملك منهم الأربعين سنة والخمسين سنة فصاعداً وأهل مملكته يزعمون إنما طالبت أعمار ملوكهم لسنة العدل وإكرام المسلمين.

في رأيي أن هذه الانطباعات التي تركتها هذه الدويلة لا تقل عن أي أثر إسلامي مادي.

الدولة السامية بالملتان سنة ٢٧٩هـ/٨٩٢م:

أما الدويلة الثانية التي قامت في السند فهي دويلة محمد بن القاسم بن منبة السامي ولذلك يمكن أن نطلق عليها اسم الدويلة السامية نسبة إلى هذا المؤسس ، ومحمد بن القاسم عربي قرشي كما ذكرت المصادر التاريخية.

وقد بدأت أنظار محمد بن القاسم تتطلع إلى الهند منذ كان والياً على عمان (٢٧٩هـ/٨٩٢م) التي تقع على الشاطئ المقابل للهند ويفصلها عنها خليج عمان.

وقد تولى محمد بن القاسم بن منبه السامي عمان بعد أن أرسله الخليفة المعتضد للقضاء على فتنة الخوارج بها فنجح في مهمته.

هناك سؤال: متى أقام محمد عبدالقاسم السامي دولته في الملتان؟

في الحقيقة لانجد أي شئ بهذا الصدد بوضوح ولكن يمكن لنا أن نستنتج من المصادر أن محمد بن القاسم الساقي قد فتح الملتان أثناء حكمه في عمان سواء أكان ذلك بنفسه أو عن طريق عماله رغم عدم تصريح المصادر بهذه الحقيقة ، وذلك لأن المصادر كلها تؤكد أن فتح الملتان تم في عهد محمد بن القاسم وأن دولته في عمان استمرت حتى عهد أبنائه إلى أن سقطت على أيدي القرامطة.

أما سبب قيامه بغزو الملتان فى ذلك الوقت فيمكن أن نقول أنه بعد قضائه على الخوارج فى عمان قد توجه لاستئصال بقيـتهم فـى الملتان لأنها كانت مركزاً للخوارج.

آراء المؤرخين فى هذه الدويلة :

ومن المؤرخين الـذين ذكـروا هـذه الدويلـة ابـن رسـتة (٢٨٠هـ/٨٩٣م) ولكنه لم يشر إلى محمد بن القاسم بـل ذكـر أن الملتان يحكمها قوم يدعون أنهم من أبناء سامة بن لؤى يقال لهم بنـو منبه وأنهم يخطبون للخليفة العباسى ويدينون بالمذهب السـنى ، وقـد كانت الملتان مصدراً كبيراً لثروة هذه الدويلة بما يقدمه إليه الحجـاج الذين يفدون إليه من أنحاء الهند كما أن دولتهم كثيراً ما كانت تتعرض لهجمات الهند ملوك ولكن النصر كان دائماً فى جانـب بنـى سـامة لتمتعهم بالقوة واليسار.

بعد ابن رسته نرى المؤرخ المسعودى يتحرى عن هذه الدويلة الذى زار الهند بعد سنة ثلاثمائة هجرية " وصاحب مملكة بلد الملتـان رجل من قريش من ولد سامة بنى لؤى بنى غالب ".

ويذكر فى مكان آخر " وكان دخولى إلى بـلاد الملتـان بعـد الثلاثمائة والملك أبو اللهاب المنبة بن أسد القرشى ".

ثم يذكر المؤرخ عن حالة هذه الدويلة قدراً من التفصيل " فأما صاحب الملتان فقد قلنا أنه من ولد سامة بنى لؤى بن غالب وهـو ذو جيوش ومتعة وهو ثغر من ثغور المسـلمين الكبـار وحـول ثغـر

المسلمين الملتان من ضياعة قراه عشرون ومائة ألف قرية مما وقــع عليه الاخفاء والعدو فيه على ما ذكرنا الصــنم المعــروف بالملتــان يقصده السند والهند من أقاصى بلادهم بالنذور والأمــوال والجــواهر والنقود وأنواع الطيب ويحج إليه الألوف من الناس ".

أن كلام المسعودى يشير إلى بعض النقاط لابد أن تؤخذ فى موضــع الاعتبار:

أولاً :أن المسعودى عندما زار الهند وجد هذه الدويلة قديمــة وكــان يوجد فيها نظام التوارث لأنه كان يحكم فى ذلك الوقــت حفيــد محمد بن القاسم أبو اللهاب منبه بن أسد ، من المعروف أن أبن رسته لم يذكر اسم محمد بن القاسم بل اقتصر على ذكــر اســم (قوم بنى منبه) أن هذا يشير إلى أن الحكومة كانت فى الأولــى الشورى ولكن بعد تولية أسد بن القاسم أصبحت الحكومة ملكية متوارثة.

بعد ذلك نجد الاصطخرى (٣٤٠ هـ / ٩٥١ م) يذكر عــن هذه الدويلة : وكان لأمراء هذه الدويلة معسكر خاص يبعد عن المتان بنصف فرسخ فقط يقيمون فيه بصفة دائمة يســمى (جنــداور) ولا يخرجون منه إلى الملتان إلا فى يوم الجمعة فيذهب الأمير إلى الصلاة راكباً فيلا وكان هؤلاء الحكام مستقلين سياسياً عن حكــم المنصــورة الذين كانوا موالين للعباسين أيضاً.

أن ابن حوقل (٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م) آخر من تكلم عن هـذه الدويلة انه لم يقدم شيئاً جديداً إلا تكرار بما قاله الاصطخرى.

القضاء على هذه الدويلة:

نحن لا نعرف متى وكيف انقرضت هذه الدويلـة ولكـن مـا نعرفه أنه قد أعقبها دولة أخرى اسماعيلية تابعة للفاطميين فقـد ذكـر المقدسى (٣٧٥ هـ /٩٨٠ م) أهل الملتان شيعة يهو علـوان فـى الآوان ويثنون فى الإقامة.

ويذكر فى موضع آخر " وأما الملتان فيخطبون للفاطميين ولا يحكمون ولا يعقدون إلا بأمره ".

على كل حال أن هذا يثبت أن الذين تولوا حكومة جديدة كانوا الفاطميين وإن كان لهم اعتقاد بالخلفاء الفاطميين فى مصر.

ولكن هناك سؤال هل أن بنى منبه قد غيروا مذهبهم من السنة إلى الشيعة ؟ أو حل مكانها أسرة جديدة ؟

فى الحقيقة لا نجد جواباً صريحاً على هـذا السـؤال ولكـن المؤرخ البيرونى يلقى ضوءاً فيـذكر أن القرامطـة اسـتولوا علـى الملتـان ، وكسر أحد زعمائهم يدعى جلم ابن شيبان صـنم الملتـان الذى حافظ عليه بنو سامة بن لؤى وقتل سدنته وحول بيت الصنم إلى مسجد = ولم يكن فى استطاعته خلفاء بغداد العباسـيين أن يسـاعدوا اتباعهم بنى لؤى لضعفهم ولبعد المسافة بيـنهم وبينمـا كـان دعـاة العلويين قد جاءوا إلى الهند ونجحوا فى جذب بعض سكانها إليهم ومن

هؤلاء الدعاة جلم ابن شيبان الذى أرسله الخليفة المعز الفاطمى لنشر دعوته بالهند.

وقد انقرضت هذه الحكومة الإسماعيلية على يد السلطان محمود الغزنوى فى سنة ٣٦٩ هـ / ١٠٠٥م عندما بلغه أن أبا الفتوح والى الملتان يعتنق مذهب الباطنية وأنه يدعو أهل ولايته إلى مذهبه وفر هذا الوالى أمام السلطان الغزنوى وبذلك عادت الملتان إلى المذهب السنى وأصبحت فى أيدى الغزنويين الموالين للعباسيين.

المذهب الدينى لأمراء بنى سامة:

أن المؤرخ أبن خلدون قد صرح أن بنى سامة فى عمان كانوا يعملون على المذهب السنى ويتظاهرونها ولكن لانجد أى تصريح واضح عن أمراء بنى سامة بملتان فى هذا الصدد ولكن القرائن تشير أنهم كانوا سنيون أولاً: أنهم كانوا من أسرة بنى سامة الذين كانوا يحكمون فى عمان ثانيها: أنهم كانوا يذكرون أسماء الخلفاء العباسيين فى الخطب ويدعون لهم. ثالثاً: أن أكبر دليل لسنيتهم أن هذه الحكومة قد انقرضت بأيدى الاسماعيليين.

العلاقة مع الخفاء العباسيين:

أن هذه الدويلة قد استقلت عن الخلاقة العباسية ولكن صلة دينية كانت باقية مع الخلافة أنهم كانوا يذكرون أسماء الخلفاء العباسيين فى الخطب ، يقول أبن رسته فى هذا الصدد " وهم يدعون لأمير المؤمنين " يقول الاصطخرى " ولا يطيع صاحب المنصورة إلا

أنه يخُطب للخليفة " ويقول أين حوقل " وهو ليس فــى طاعــة أحــد وخطبته لبنى العباس ".

أن هذه الأقوال تشير إلى أنه كانت لهم علاقــة مــع الخلافــة العباسية.

الدويلة المعدانية فى مكران سنة ٣٤٠هـ/٩٥١م

لقد بدأت علاقة المسلمين بمكران منذ عهد معاوية رضــى الله عنه. يذكر المؤرخ البلاذرى أن مكران فد فتحت عنــوة فــى عهــد معاوية بن أبى سفيان على يد سنان الهذلى الذى ولاه زياد على هــذا الثغر ، فقام بتعمير مكران وضبطها ، واستقر بها.

ويرى ابن الكلبى أن فتح مكران تم على يد (حكيم بــن جبلــة العبدى) ، ثم تولاها راشد بن عمرو الحديدى من الأزد ، فاتجه إلــى توسيع نفوذه فغزا القيقان والميد وقتل أثناء تلك فتولى من بعده ســنان بن سلمة المذكور فأقام بها سنتين.

على كل حال لانجد فى التاريخ الاسلامى أى حــاكم عربــى مسلم حكم عليها إلا سنان بن سلمة وراشد بن عمر الحديدى ، ولكــن عندما ندخل فى القرن الرابع نجد أن الظروف قد تغيرت فى مكــران لصالح شخص المعروف بعيسى بن معدان انه أعلن حكومته المستقلة وأن هذا الشخص كان معروفاً فى لغة سكان مهران باسم " مهــراج " أن المؤرخ الاصطخرى أشار إلى هذه الحكومة بقولــه " والمتغلــب

عليها رجل معروف بعيسى بن معدان ويسمى بلسانهم مهراج ومقامه مدينة كيز ".

أن ياقوت الحموى قد نقل نفس عبارة الاصطخرى ولكنه حدود وقت استقلاله بها بقوله " والمتغلب عليها فى حدود سنة ٣٤٠هـ/٩٥١م رجل يعرف بعيسى بن معدان ويسمى بلسانهم مهراج ومقامه بمدينة كيز ".

والمعلومات التى لدينا عن عيسى بن معدان قليلة فنحن لانعرف شيئاً عن أسرته ولا منشئه.

وتبين ما ذكرته المصادر التى رجعنا إليها أنه قد استولى على مكران بقوته الذاتية ولم يكن تابعاً لاية قوة أخرى ولم تشر المصادر إلى أنه كان خاضعاً للعباسيين أو أنه كان يخطب بإسمهم.

وقد تولى الحكم بعده ابنه معدان بن عيسى بن معدان ، ونحن لا نجد عنه فى كتب التاريخ أكثر من هذا فلما توفى هذا الأمير (٤٢٢هـ/١٠٣٠م) حدث خلاف بين ولديه عيسى وأبى العساكر فاستبد عيسى بالولاية والمال فسار أبو العساكر إلى خراسان وطلب من مسعود بن محمود بن سبكتكين حاكم غزنة النجدة فسير معه عسكراً وأمرهم بأخذ البلاد من عيسى أو الاتفاق مع أخيه على طاعته فوصلوا إليها ودعوا عيسى إلى الطاعة والموافقة فأبى وجمع جمعاً كثيراً بلغوا ثمانية عشر ألفاً وتقدم إليهم فالتقوا فاستأمن كثير من أصحاب عيسى إلى أخيه أبى العساكر فانهزم عيسى ثم عاد وحمل فى

نفر من أصحابه فقتل واستولى أبو العساكر على البلاد ونهبها ثلاثة أيام " وهكذا تولى أبو العساكر الحكم بمساعدة الجيش الغزنوى فخضع للغزنويين وأمر بذكر اسم السلطان الغزنوى فى الخطب كما أشار إليه ابن خلدون.

وقد ظلت دولة بنى معدان حتى انقرضت بيد السلطان غياث الدين الغورى فى سنة ٤٧١هـ وبذلك أصبحت مكران ضمن ممتلكات الغوريين الذين يدينون بالولاء للخلفاء العباسيين.

أن المؤرخين لم يبينوا السبب للقضاء على هذه الدويلة ولكن القرائن تشير أنها انقرضت بسبب اعتناقهم مذهب الخوارج لأن المؤرخ المسعودى يقول عن بلاد مكران وهى أرض الخوارج الشراة.

الدولة الهبارية ببلاد السند

٢٤٠ ـ ٤١٦ هـ = ٨٥٤ ـ ١٠٢٥ م

تنسب هذه الدولة إلى صحابى جليل دخل فى الإسلام سنة ٨هـ = ٦٢٩م واسمه هبار بن الأسود بن المطلب بن أسد ، من قبيلة أسد القرشيه ، وقد قدم واحد من ذرية ذلك الصحابى إلى بلاد السند واسمه المنذر بن زئير مع واليها الحكم بن عوانة الكلبى سنة ١١٢هـ = ٧٣٠م ، واستقر فى هذه البلاد وعين حاكماً على مدينة " باتية ". حيث تركز نفوذ أسرته ، كما شغل أفراد تلك الأسرة مناصب حكومية مهمة سواء على عهد الأمويين أو على عهد العباسيين ، ثم استقلوا بحكمها ابتداء من ٢٤٠هـ كما سبق القول ، وعلى النحو التالى:

عمر عبدالعزيز بن المنذر بن عبدالرحمن بن هبار ٢٤٠ـ٢٧٠هـ = ٨٥٤ـ٨٨٣م.

كان إقليم السند تابعاً للخلافة العباسية إسمياً خلال هذه الفترة وقامت بينهما العلاقات التجارية والسياسية والثقافية ، والدليل على ذلك أن الخليفة المعتمد (٢٥٦ـ٢٧٩=٨٦٩ـ٨٩٢م) عين يعقوب بن الليث الصفارى حاكماً عاماً على تركستان وسجستان وكرمان ، وكانت بلاد السند تخضع لإشرافه رغم سلطة الهبارى ونفوذه الواسع وهذا يعنى اعترافه بالخلافة العباسية ولو من الناحية الشكلية ورضاه بمن عينته مشرفاً أو حاكماً عاماً. كذلك عين الخليفة المعتمد أخاه الموافق ٢٦١هـ = ٨٧٤م حاكما عاماً على الولايات الشرقية وكانت

بلاد السند يدخل فى نطاق إشرافه ، كما كانت خطبة الجمعة فى بلاد السند باسم الخليفة العباسى حتى نهاية القرن الخامس الهجرى وذلك مظهر من مظاهر التبعية للخلافة.

ورغم وجود بعض الإضطرابات فى المناطق الشرقية ، فقد أحسن ذلك الوالى سياسة ذلك الإقليم ، ونشر فيه الأمن والرخاء وتوحدت البلاد فى ظل حكمه ، ودخل بعض ملوك الهند فى الإسلام زمن ولايته وقدم هدايا قيمة للخليفة العباسى ، كما قدم ياقوتاً نادراً علق على أستار الكعبة واستمر ذلك الوالى يقود البلاد بحزم وحكمة إلى أن توفى ٢٧٠هـ ، وتولى بعده حسب نظام الوراثة ابنه.

عبدالله بن عمر الهبارى (٢٧٠ـ٣٠١هـ)

وافقت الخلافة على انتقال الحكم إلى عبدالله بعد وفاة والده ، وقد ورث عن والده حكماً مستقراً ، قائماً على أسس وقواعد متينة ، مستنداً إلى تأييد شعبى صنعته سنوات طويلة من حكم ناجح ، ولذلك لم تنجح محاولة قام بها " الصمة بن أبى الصمة " لانتزاع الحكم من عبدالله بن عمر ، فقد انتهز فرصة غياب الوالى عن المنصورة وتوجه إلى " باتيه " وحاول أن يقوم بانقلاب ضده فجهز عبدالله جيشاً كبيراً ورحف به على المنصورة وهزم الصمة ـ وهو مولى لكنده ـ واسترد مركز حكمه.

وفى سنة ٢٧٠هـ=٨٨٣م كتب ملك سندى اسمه " مهروك بن رائك " يطلب من عبدالله بن عمر الهبارى أن يشرح له تعاليم الإسلام

باللغة السندية ، فأرسل إليه رجلاً من أهل العلم شاعراً مكث عنده ثلاث سنوات يوضح أسس وقيم الإسلام ويترجم له معانى القرآن الكريم باللغة السندية ، وكان من ثمار ذلك أن هدى الله ذلك الملك إلى الإسلام. وظهرت أول ترجمة وأول تفسير للقرآن العظيم فى بلاد السند.

وفى عهد ذلك الوالى تعرضت مدينة الديبل ، وهى حلقة الوصل بين بلاد السند وبلاد العرب ، لخسوف شمسى استمر حتى منتصف الليل ، ثم حدث زلزال مفاجئ ، هز المدينة وقلب عاليها سافلها ولم يسلم من بيوتها إلا القليل ، وفقدت المئات ، وأصيب منها الآلاف ، وضاعت مكانتها الإستراتيجية والتجارية.

وعلم الخليفة العباسى المعتضد بالله (٢٧٩_٢٨٩هـ) بما جرى لتلك المدينة ، فأمر بمساعدة سكانها بكل مايمكن من وسائل.

وقد استمر عبدالله بن عمر بحكم البلاد بحكمة وكياسة ، ويحرص على الأمن والرخاء وتبليغ كلمة الله إلى أن توفى ٣٠١ هـ بعد نحو ثلاثين سنة من الإدارة الناجحة الموفقة.

ولاية أبو المنذر عمر بن عبدالله بن عمر الهبارى ٣٠٢_٣٣٠هـ - ٩١٤_٩٤١م.

وفى عهد ولاية عمر هذه ، بدأنا نسمع عن منصب الوزارة وعن أسماء وزارء لأول مرة فى بلاد السند مثل الوزير رباح ووجدنا أن حاكم المنصورة أصبح يلقب بالسلطان بعد نحو نصف قرن من

قيام الدولة الهبارية ، ذكر ذلك المؤرخ المسعودى وتحدث عن بعـض من لقيهم من ذرية عمر بن عبدالله وابنيه محمد وعلى وعبدالله وحمزة وبعض ذرية على بن أبى طالـب وآل أبـى الشـوارب عنـدما زار المنصورة ٣٠٣هـ=٩١٥م.

وقد اتاحت الفرصة الكبيرة التى حكم خلالها عمـر أن يقـوم ببعض الإصلاحات المفيدة ، فوسع مدينة المنصورة واهتم بضواحيها فأصبح ما للمنصورة من البقاع والقرى ثلاثمائة ألف قرية ذات زروع وأشجار وعمائر متصلة.

كما اعاد فتح بعض المدن حولها مثل مدينة " آلور " التى كان يحكمها زمن والده حاكم سندى يخضع لـوالى المنصـورة ، وكانـت البلاد مستقرة فى أيامه ، ولا يذكر التاريخ شيئاً عن زمـن وفاتـه ، ويغلب على الظن أن ابنه الأكبر " محمد " تولى من بعده ، ثـم تبعـه أخوه " على " الذى أشار إليه ابن حوقل عندما زار السند ٣٤٠هـ = ٩٥١م ، وكان الأسرة الهبارية لاتزال تسيطر على مقاليد الحكم فـى المنصورة.

وإن ظهرت فى مكران دولة مستقلة تسمى الدولـة المعدانيـة تحت قيادة " عيسى بن معدان " الملقب بالمهراج " ٣٤٠ هـ وتوارث أبناؤه الحكم إلى أن كانت سيادة الغزنويين.

وفى ٣٧٥ هـ=٩٨٥م زار المقدسى البشارى بـلاد السـند ، ويفهم من عبارته أن المنصورة كانت لاتزال تحت حكم أسرة الهبارى

وأن الخطبة فيها كانت باسم الخليفة العباسى عضد الدولة وأن أهلهـــا كانوا سنيين ويتبعون فى الفروع مذهب أبى حنيفة النعمان ، وأن بـــدأ مذهب داود الظاهرى ينتشر عند بعض العلماء فى المنصورة.

الشيعة في المنصورة بالسند
٤٠٣ ـ ٤١٦ هـ - ١٠١١ ـ ١٠٢٥م

أرسل عبيد الله المهدى الشيعى أول داع إلى بلاد السند ٢٧٠ـ ٨٨٣م فى عهد عبدالله بن عمر الهبارى وكان اسمه الهيثم رسول عبدالله المهدى وقد بدأ الداعية يجرى اتصالات بالعلماء وأكابر البلاد ، ويبشر بالمذهب الشيعى مستغلاً بعد المسافة بين هذه البلاد وبين مركز الخلافة العباسية ، ولكن جهوده لم تثمر فأثر الإنتقال إلى الملتان فى إقليم البنجاب ، ويبدو أن الداعية الأول حقق نجاحاً فى هذه المنطقة فتتابع الدعاة عليها ، وقاموا بمهمتهم فى نشاط ودأب ساعد على إقامة دولة باسمهم فى الملتان بعد نحو قرن من الزمان وكان يقودهم داعية قدير اسمه جلم بن شيبان ، ومالبث أن التف حوله القرامطة القادمين من البحرين وبلاد فارس ، وأقاموا أول دولة اسماعيلية بشبه القارة الهندية ، بقيت ردحا من الزمان حتى تمكن الغزنوين من القضاء عليهم.

ومن الخطوات التى اتخذها العباسيون لمواجهة الشيعة فى المنصورة إرسال عالم كبير وهو محمد بن أبى الشوارب وتعيينه قاضياً علي بلاد السند ، بهدف مواجهة القيادات السياسية والفكرية الغريبة على هذه البلاد ، ورغم موت ذلك القاضى بعد أشهر معدودات. إلاَ أنَه أسرته ظلت تتوارث منصب القضاء ، وحين زار

المسعودى المنصورة ٣٠٣هـ = ٩١٥م كان قاضى العاصمة واحداً من هذه الأسرة.

وقد كتب ابن الأثير عن الحالة فى بلاد السند ٤١٦هـ = ١٠٢٥م ، وذكر أن سكان العاصمة قد أعتنقوا المذهب الشيعى منذ سنوات قليلة ، ولا ندرى متى استولى الشيعة على الحكم فى المنصورة ؟ حكام الشيعة من الملتان ولو كان لهم وجود فى المنصورة ، لوجه إليهم الغزنوى قوات قضت عليهم.

والغالب على الظن أن الشيعة الذين هربوا من الملتان ، جمعوا صفوفهم وذهبوا متحدين إلى المنصورة وأستولوا عليها نحو ٤٠٢هـ منتهزين فرصة ضعف أسرة الهبارى آنئذ.

محمود الغزنوى يستولى على السند

فى ٤١٦هـ = ١٠٢٥م قام السلطان محمود الغزنوى بحملة على المنصورة للقضاء على سلطة الشيعة فيها ، وذلك بعد نجاحه فى فتح سومانت Somnath من بلاد الهند ، ففى طريقه عائداً إلى غزنة ، توجه نحو المنصورة عاصمة السند ونحو الملتان.

ورغم أن قبائل الزط Jats والميد Meds قتلت عدداً من جنود السلطان ونهبت امتعته إلا أنه استطاع أن يصل إلى المنصورة ، وعلم حاكم البلاد بقدومه واختبأ مع اتباعه فى غياض واسعة بالمنطقة ، فحاصرهم جيش السلطان ، وحمل عليهم من الناحيتين وقتل عدداً كبيراً منهم ، وفر آخرون فغرقوا فى النهر وبذلك انتقل الحكم إلى إلى

الغرنويين السنيين فى كل من السند والملتان ابتداء من أوائــل القــرن الخامس الهجرى ، وأصبحت لهم السادة ابتداء من غرنة وحتى دلهى.

الدولة العربية فى الملتان بإقليم البنجاب

٩٤ _ ٤٠١ هـ = ٧١٣ _ ١٠١٠م

فتح محمد بن القاسم بلاد الملتان ٩٤ هـ أثناء حملته بشبه القارة الهندية ، وكان أول حاكم مسلم تولى على هذه البلاد بعد فتحها هو داود بن وليد العمانى ، ويبدو أن هذا الحاكم قد استقل بالملتان بعد الإضطرابات التى أعقبت عزل محمد بن القاسم ، ولم يعد هناك أتصال مباشر بين هذا الحاكم وبين حكام إقليم السند ، وإن بقى يخطب باسم الخليفة الأموى ثم العباسى ويظهر ولاءه لهما.

وفى ١٥١هـ = ٧٦٨م زمن الخليفة المنصور ، كان والى السند هو هشام بن عمرو التغلبى ، وقد أشار عليه البعض بأن يعمل على توحيد البنجاب مع السند ، لأن ذلك ييسر عليه فتح أقاليم جديدة ببلاد الهند ، فقام هشام بحملة على الملتان وفتحها ، ثم تصالح مع أميرها العربى ، وعاد إلى " قندهار " ليقضى على اضطرابات قامت بها ومنها عاد إلى المنصورة دون أن يكمل فكرة فتح مناطق جديدة فى بلاد الهند ويبدوا أن الأحوالى كانت مستقرة ولم يجر فى هذه البلاد مايلفت النظر ، فقد سكت المؤرخون عن رواية ما يحدث بها لمدة ثلاثين سنة.

وفى سنة ١٨١هـ = ٨٩٧م أشتدت حدة القتال بين القبائل العربية ، وخشى والى السند من الحجازيين الذين انحاز ضدهم ، فهرب إلى الملتان ولما أوصد أهلها الباب فى وجهه ، أراد دخول

المدينةُ بالقوة فجرى قتال انهزم فيه والى " السند وفــرَ تاركـــاً وراءه سلاحه ومتاعه ، ومرة أخرى يصمت التاريخ عن أخبار الملتان مـــدة تسعين عاماً إلى أن يخبرنا ابن رسته عن قيام دولة بنى سامة بن لؤى أو الدولة السامية بزعامة محمد بن القاسم السامى بالملتان عندما زار بلاد السند والهند ٢٩٠هـــ.

ثم بدأ يزور الملتان مؤرخون وجغرافيون ، ويكتبون معلومات عن الأحوال السياسية والمذهبية والإجتماعية والإقتصادية بتلك الـــبلاد فيقول ابن رسته أن حكام الملتان هم بنو سامة بن لؤى أو بنو منبه من قريش وأنهم من أهل السنة وولاؤهم للخليفة العباسى وهكذا يتضح أن بنى سامة هم أنفسهم بنو منبه وأن هذين اسمان لأسرة واحدة ويبـــدوا ذلك جلياً مما يلى.

زار المؤرخ السعودى الملتان ٣٠٣هـــ=٩١٥م وكتـــب عـــن أخبارها وذكر أن حاكمها العربى من ولد " سامة بن لؤى بن غالـــب " ويسمى " أبو اللباب منبه بن أسد القرشى " ، ويظهـــر مـــن عبـــارة المسعودى أن أول حاكم لهذه المنطقة كان اسمه منبه وأنه من أســـرة " سامة " ، وقد نسب بعض المؤرخين تلك الأسرة إلى " منبـــه " كمـــا نسبها آخرون إلى الأسرة التى ينتمى الحاكم إليها.

كذلك زار الجغرافى الاصطخرى " الملتان أيضاً ســـنة ٣٤٠ وذكر أن حاكمها رجل قرشى من ولد سامه بن لؤى ، وأوضـــح أنـــه

تغلب عليها ولا يخضع لوالى المنصورة وأنه يدعو للخليفة العباسى فى خطبة الجمعة ، فالحاكم إذن هو منبه بن أسد بن لؤى القرشى.

ونفس الشئ نجده عند " ابن حوقل " الذى قدم لزيارة الملتان ٣٦٧هـ=٩٧٧م وذكر أن حكامها هو بنو منبه وأنهم على مذهب أهل السنة وأنه سمع الناس فى السند يتحدثون العربية والسندية ، ولاحظ صداقة حميمة وسمحة بين السكان المسلمين والهندوس.

ويخبرنا المقدسى بتطور حدث فى بلاد السند حين زارها سنة ٣٧٥ هـ ، فقد سافر منها إلى الملتان ، وذكر أن حكام الملتان قد أصبحوا من الشيعة أنئذ يقول : " وأهل الملتان ، وذكر أن حكام الملتان شيعة يهوعلون ويثنون فى الإقامة.

حكومة الشيعة فى الملتان ٣٧٥ـ٤٠١هـ=٩٨٥ـ١٠١٠م.

ليس معروفاً على وجه التحديد الزمن التاريخى الذى استولى فيه الشيعة على مقاليد الحكم فى الملتان ويمكن أن نقول بصفة عامة أن زعماء الشيعة أدركوا أن الثورات العلنية لن تحقق هدفهم فى حكم الدولة الإسلامية ، فلجأوا إلى التقية والتستر والمبالغة فى التمويه والإعتماد على حجة يعهد إليه بأمر تنظيم الدعوة ، ونشر الدعاة فى سائر أجزاء الأرض ، وقد أتخذ الإمام الحجج وأمرهم أن يتسموا باسم الإمام ، " فمن أخذ العهد على مستجيب سمى له أحد أولئك الحجب والحجج حتى يمضى الوهم إليه سترا على صاحب الأمر "، وكان

الدعاة فى البلاد المختلفة لا يتفقون على اسم الإمام حتـــى لاينكشـــف أمره.

ورغم ذلك فقد ظهر أمر هؤلاء الـــدعاة فـــى عهـــد الخليفـــة المأمون العباسى ، وكان أمامهم الذى يدعون إليه هو " عبيد الله بـــن محمد بن اسماعيل " ، وقد فتك العباسيون بأســرته ، واضـــطر هـــو للهرب إلى " سليمة " من أعمال حمص بالشام ولم يبح لأحد بأســرار دعوته.

ومنذ ذلك الحين ــ ويرجح أنـــه ٢٠٦=٨٢١م وسـلمية هـــى مركز الدعوة الشيعية ومنها يرسل الـــدعاة إلـــى البلـــدان المختلفـــة ويحرصون على إخفاء اسم الإمام الذين ينشرون الدعوة باسمه.

ومعروف أن هؤلاء الدعاة نجحوا فـــى مهمـــتهم ، وتوجـــت جهودهم بقيام الدولة الفاطمية فى بـــلاد المغـــرب ٢٩٦=٩٠٨م ثـــم انتقلت هذه الدولة إلى مصر وأسست مدينة القاهرة وإتخذتها عاصـــمة لها ٣٥٨هـــ=٩٦٨م فى عهد المعز لدين الله الفاطمى.

وفى عهد ذلك الخليفة كان قاضية النعمان بن محمد الفـــاطمى يتولى منصب داعى الدعاة ويشرف على إرسال الدعاة الـــى البلـــدان المختلفة ومن بينها بلاد السند والملتان ، وقد ذكر فى كتابه " افتتـــاح الدعوة " أن الداعى الكبير أبا القاسم بن حوشـــب المعـــروف باســـم منصور اليمنى ، قد أرسل ابن عمه المسمى " هيـــثم " داعيـــة إلـــى الملتان، وأنه قد نجح فى جذب كثير من سكانها إلى المذاهب الشيعى.

وفى نحو ٣٥٣هـ=٩٦٤م أرسل الخليفة الفاطمى داعية إلى الملتان اسمه " جلم بن شيبان " أخذ يتردد بين مصر والملتان لمدة ١٨ سنة يدعو للمذهب الشيعى ، وفى ٣٧٥ أمر العزيز بالله الخليفة الفاطمى الثانى بمصر(٣٧٥-٣٨٦هـ) بتجهيز جيش كبير وإرساله إلى الملتان للأستيلاء عليها بالقوة ، وقد اتجه ذلك الجيش بقيادة جلم بن شيبان على ذلك الإقليم عن طريق خراسان التى كان بها شيعة كثيرون ، وفى الوقت الذى وصل فيه هؤلاء الجنود إلى الملتان قام الشيعة باضطرابات من داخلها ، وساعدت الأوضاع الداخلية والهجوم الخارجى على سقوط الدولة العربية بها.

بعد ذلك تولى " جلم بن شيبان " حكم الملتان باسم الدولة الشيعية بمصر ، وضرب السكة باسم الخليفة الفاطمى ، ودعا له فى خطبة الجمعة اعتباراً من ٣٧٥هـ=٩٨٥م ، وأمر بكسر صنم المعبد الذى كان موجوداً فى الملتان ، وابقاه محمد بن القاسم عند فتحة لهذه المنطقة سنة ٩٤هـ = ٧١٢م بعد أن علق لحم بقر فى عنقه استخفافاً به، وقد بنى جليم بن شيبان مكان المعبد مسجداً جامعاً وقتل سدنته...، وأغلق المسجد الذى بناه ابن القاسم لأنه كان رمزاً للأمويين وأصبحت الملتان مركزاً ثقافياً وموطناً يقصده الشعراء ورجال العلم والفكر وأصبحت البلاد منطقة جذب للتجار والكتاب والدعاة.

وقد عمل الوالى على تنظيم أمور الملتان إدارياً وسياسيا ونظم الدعوة للمذهب الشيعى ، وحرص على إقامة علاقات ومعاهدات

صداقة بينه وبين الحكام الهنود ، فقد كان يشعر بالعزلة وسط بلاد إسلامية تابعة للخلافة العباسية ، ولم يكن من السهل أن ينجده الخليفة الفاطمى من القاهرة إذا ما تعرض لهجمات عليه ، نظراً لبعد المسافة بين مصر وبين الملتان.

ولا يُعرف متى انتهى حكم " ابن شيبان " للملتان ، ولكنه كان لا يزال حياً ٣٨١هـ=٩٩١م وعلى كل حال ، فقد تولى الحكم من بعده الشيخ حميد الذى عقد صلحاً مع السلطان سبكتكين ، سلطان غزنة ٣٨١هـ=٩٩١م.

ذلك أنه كان بحكم المعاهدات بين حاكم الملتان الشيعى وبين أمراء الولايات الهندية ، قام حاكم الملتان سراً بمساعدة أمير " لاهور" فى حرب نشبت بينه وبين الغزنويين ، وعلم السلطان سبكتين بذلك فقرر التوجه إلى الملتان ومحاربة أميرها ٣٨١هـ=٩٩١م.. وعلم بذلك الشيخ حميد وخشى العواقب ، فعقد صلحاً مع السلطان.

ولانعرف شيئاً عن " حميد " هذا أكثر من اسمه، ولا يذكر التاريخ شيئاً عن صلته بالحاكم السابق ولا عن منزلته فى الدعوة الشيعية ولا عن مدة ولايته ، فقط نعرف أن المعاهدة بين حميد الشيعى وبين السلطان سبكتيكين ظلت سارية المفعول حتى وفاة ذلك السلطان ٣٨٧هـ=٩٩٧م وأن الذى تولى الحكم من بعد الوالى حميد حفيده أبو الفتوح داود بن نصر بن حميد ٣٩٥هـ=١٠٠٤م.

وقد تلوى حكم الغزنويين بعد وفاة السـلطان سـبكتكين ابنـه السلطان محمود الغزنوى ، وبعد أن فرغ من مشاكل خراسان ، بـدأ حملته على بلاد الهند ٣٩٢هـ=١٠٠١م وفتح منطقة تجاور قنـدهار كانت تابعة لأمير لاهور. وفى ٣٩٥هـ بدأ أبو الفتوح داود بن نصر الوالى الشيعى على الملتان يسئ إلى معاهـدة الصـلح بينـه وبـين الغزنويين.

فقد كانت هناك قلعة حصينة فى منطقة بهاتية المتصلة بـإقليم الملتان ، وكانت هذه القلعة تابعة للاهور ، ووقع خلاف بين حاكم تلك القلعة وبين السلطان محمود الغزنوى جعل السلطان يتوجه إليه بجيشه عبر الملتان ، وحارب حاكم القلعة وهزمه ، فانتحر الرجـل نتيجـة لـذلك ، وأخذ السلطان محمود الغزنوى على والى الملتان الشـيعى ، مساعدته سراً لحاكم تلك القلعة بزعم مابينها من معاهـدات صـداقة ومناصرة عسكرية ، وكتم ذلك فى نفسه إلى حين.

وفى ٣٩٦هـ=١٠٠٥م جهز السلطان محمود جيشـاً كبيـراً بهدف التوجه إلى الملتان والقضاء على دولة الشيعة التى باتت تمثـل خطراً على الوجود الغزنوى ، وبعد حصار للمدينة استمر سبعة أيـام تم عقد صلح بين الطرفين ، يدفع حاكم الملتان بمقتضاه جزية للسلطان مقدارها ٢٠٠ ألف درهم سنوياً ، كما تـم الإتفـاق علـى أن تكـون المنطقة المتصلة بنهر السند عند الملتان تابعـة للغزنـويين ، وبـذلك أصبح من اليسير على السلطان محمود أن يقوم بحملة مباشرة علـى

الملتان من هذه الناحية إذا اقتضى الموقف ذلك ، وعاد السلطان بعد ذلك إلى غزنة.

حدث بعد ذلك أن تعرضت بلاد خراسان لحملة معادية ودخل السلطان محمود فى حرب ضد أعدائه فى هذه المنطقة ، فانتهز حاكم الملتان الشيعى الفرصة وألغى المعاهدة وأعلن استقلال بلاده ورفض دفع الجزية المتفق عليها.

لما انتهى السلطان من اعدائه فى خراسان توجه نحو الملتان وقام بحملة شديدة قتل فيها وأسر كثيراً من الشيعة ، وكان الوالى داود نفسه بين الأسرى ، فأخذه السلطان مقيداً وألقى به فى سجن " غزنة أو قلعة عورك حتى مات ، وأصبحت الملتان جزءاً من الدولة الغزنوية وسقطت الدولة الشيعية بها وعين فيها السلطان حاكماً سنياً ٤٠١هـ = ١٠١٠م.

وقد قدمنا أن الشيعة الذين فروا من الملتان ، أمكنهم التوجه إلى المنصورة عاصمة السند ، واستولوا على الحكم بها ، وظلوا يحكمونها من ٤٠٢ حتى ٤١٦هـ = ١٠١١ ـ ١٠٢٥م ، ففى السنة الأخيرة توجه الغزنويون بقواتهم إلى المنصورة واستولوا على مقاليد الأمور وبذلك عادت بلاد السند والملتان بالبنجاب إلى الحكم السنى مرة أخرى تحت قيادة السلطان محمود الغزنوى والدولة الغزنوية ، وتلك حقبة أخرى من التاريخ ، تمثل مرحلة ثانية من التاريخ الإسلامى لشبه القارة الهندية ، لقد انتهت المرحلة الأولى بإتمام فتح

السند وشمال غربى البنجاب ٩٦هـ ـــ ٧١٤م ، وقد بقى الحال على ذلك على امتداد نحو ثلاثة قرون ، حيث لم تكن توسعات أكثر للسيادة الإسلامية ، إلى أن كانت المرحلة الثانية التى بدأت بإقامة الدولة الإسلامية التركية فى " غزنة " والتى سلكت الطرق الجنوبية الغربية التقليدية لفتح شبه القارة الهندوباكستانية ، وذلك حديث آخر.

الفصل السابع

الدويــــلات المستقلـة

- الدولة الغزنوية ودورها فى نشر الاسلام فيها

- الدولة الغوريـــة.
- دولـة سلاطين المماليك.
- الدولـة الخليجيـــــة.
- دولـة بنـى تغلـــــق.

١ ــ الغزنويون :

اعتمد السامانيون على الأتراك فى أمور دولتهم ، فكان قـوام جيشهم منهم ، وولوهم المناصب العسكرية والمدنية الرفيعـة ، فـزاد نفوذهم ، وعلا شأنهم فى دولة آل سامان ، والمعروف أن الأتراك من العناصر التى كانت مصدراً للقلاقل والاضطرابات فى الـدول التـى استعانت بهم ، ومن بينها الدولة السامانية ، فقد أضعفوها ، وعملـوا على زوالها.

ومن أبرز هؤلاء الأتراك الذين أرتفـع شـأنهم فـى الدولـة السامانية ، " ألبتكين " ، كان يعمل فى الجيش السـامانى ، ومـا زال يرتقى فى سلك الوظائف حتى ولى منصب حاجب للأمير عبدالله بـن نوح (٣٤٣ــ٣٥٠هـ ، ٩٥٤ــ٩٦١م) ومن ثم ارتفع شـأنه ، وازداد نفوذه فى الدولة السامانية ، حتى أن الوزير كان يأتمر بأمره ، ويلتزم بتنفيذ تعليماته وتوجيهاته.

لم تصف الأمور لألبتكين ، إذ خشى الأمير عبدالملك بأسَـه ، وعول على إبعاده عن حاضرة دولته ، فأسند إليه. ولاية خراسان فى عام ٣٤٩هـ/٩٦١م ولما توفى الأمير عبدالملك سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م تشاور الأمراء فى الدولة السامانية مع ألبتكين ــ الذى كان أكبرهم ــ فيمن يراه مناسباً لتوليه أمر الدولة السامانية ، فوقع اختيـار ألبتكـين

على عم الأمير المتوفى ، ورفض اختيار منصور بن عبدالملك خلفاً لأبيه ، لأنه شاب حدث لم تحنكه التجارب ، على أن اقتراح ألبتكين لم يعمل به ، ذلك أن الأمراء ولوا منصوراً دون أن ينتظروا وصول ألبتكين. لذلك نشأ العداء بين الأمير الجديد ، منصور بن عبدالملك وبين ألبتكين ، الذى رفض اختياره ــ كما قلنا ــ أميرا على السامانيين ، ولم تجد محاولات ألبتكين فى التودد للأمير السامانى.

خشى الأمير منصور من انتقاض ألبتكين عليه فى خراسان فاستدعاه إلى بلاط ، ولما علم ألبتكين أن الأمير السامانى يضمر له السوء ، رفض التوجه إليه ، وأظهر التمرد والعصيان فعزله منصور عن خراسان ، وأسند ولايتها إلى أبى الحسين سيمجور ، فقصد ألتبكين بلخ. وعول الأمير السامانى على إخضاع هذا القائد الثائر ، فأرسل إليه جيشاً ، اشتبك معه وهزمه ، فتوجه ألبتكين إلى غزنة ، وحاصرها واستولى عليها من حاكمها السامانى ، " أبو بكر لوبك " ، ولم يكتف بذلك بل غزا زبلستان وأقام بها إمارة مستقلة عن سادته السامانيين عاصمتها غزنة. على أن الأمير منصور السامانى لم يقف مكتوف اليدين إزاء تمرد ألبتكين ، فبذل عدة محاولات لسحق تمرده ، وباءت كلها بالفشل ، فكف عنه. وبذلك قوى شأن ألبتكين فى إمارته ، وتوطد فيها سلطانه.

ولما توفى ألبتكين سنة ٣٥٢هـ/٩٦٣م خلفه فى حكم غزنة ابنه أبو إسحاق إبراهيم ــ قائد جيوش خراسان السامنية ــ غير أنه لم

يستطع السيطرة على مقاليد الأمور فى غزنة ، إذ ثار عليه أهلها ، وطردوه من بلدهم ، فاستنجد بالأمير منصوز بن نوح ، فأمده بجيش مكنه من استرداد غزنة وحكمها باسم السامانيين. وبذلك استرد السامانيون نفوذهم على غزنة.

على أن أبا إسحق لم يلبث أن توفى دون أن يترك وريثاً يعقبه فى حكم غزنة ، فحكمها بلكاتكين – أحد مماليكه – وضرب النقود باسمه فى غزنة سنة ٣٥٩هـ/٩٦٩م وخلف بيرى بلكاتكين ، وهو فيما يبدو من أهالى غزنة ، غير أنه لم يستطع القيام بأعباء الحكم فثار عليه الجند وخلعوا طاعته ، ونظروا فيمن يصلح لحكم غزنة ، فلم يروا أفضل من سبكتكين لما عرفوا من عقله ودينه وكمال الخلال فيه وصرامته ، ومما يجدر ذكره أن سبكتكين هو أحد موالى ألبتكين ، وكان حاجبا لابنه أبى إسحاق " عليه مدار أموره ، وبيده مناظم شئونه" وولى سبكتكين إمارة غزنة ٣٦٦هـ/٩٧٦م.

لما أفضى الأمر إلى سبكتكين ، استطاع بحسن سياسته ، وبعد همته اكتساب محبة الرعية وأمراء البلاد المجاورة له ، ولم يلبث الخليفة العباسى أن اعترف بحكومته ، فاصطبغ حكمه بهذا الاعتراف بالصبغة الشرعية ، وتحققت أمنية له طالما اختلجت فى صدره فتلقب بناصر الدولة ، وبعث له الخليفة بالعقد والخلع التقليدية ، وأصبح سبكتين المؤسس الحقيقى للدولة الغزنوية الشرعية. وعلى الرغم من استقلاله الفعلى ظل يظهر ولاءه للسامانيين.

لم يكتف سبكتكين بحكم غزنة ، بل عمل على بسط نفوذه على البلاد المجاورة ، فبسط سيطرته على " قصدار " القريبة من غزنـة ، كما سيطر على خراسان ، وشرع في غزو أطراف الهند ، وسيطر على كثير من المعاقل والحصون هناك " فاتسعت رقعة ولايته " وعمرت أرض خزانته ، وأشفقت النفوس من هيبته " وتوفى سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م وإليه يرجع الفضل في وضع اساس إمبراطورية الغزنويين ، إذ امتد سلطانه إلى ناحية الهند حيث أسس بها حكومة في بشاور ، كما أمتد نفوذه باستيلائه على خراسان وماوليها ، وبعبارة أخبى أسس دولة كبيرة في جنوب غرب آسيا.

ويهمنا في دراستنا هذه أن نتحدث بالتفصيل عن فتوحات الغزنويين في الهند ، فقد أنشأ سبكتكين جيشا قويا من الأفغان والترك ، ورأى ضرورة الانطلاق بتلك القوة الهائلة إلى ميدان فسيح ولم يكن في استطاعته الاتجاه نحو بلاد العراق لأن البويهيين كانوا قد وطدوا نفوذهم فيها ، كما أن بلاد ما وراء النهر كان القره خانيون يعملون على بسط سيطرتهم عليها ، وانتزاعها من السامانيين ، لذلك انطلق الغزنويون إلى بلاد الهند من منطقتهم الوعرة كما سنرى.

ومما لاشك فيه أن الرغبة في الجهاد ورفع راية الإسلام في غير بلاد الإسلام من أقوى الأسباب التى دفعت الغزنويين إلى القيام بفتوحاتهم ، فمن الثابت أن محمود الغزنوى كان مسلما قوى العقيدة ، تواقا إلى نشر الإسلام.

سار سبكتكين سنة ٣٦٦هـ/٩٧٦م على رأس جيش كبير إلى بلاد الهنادكة ، ويحكمها جيبال ــ راجا البراهمة ، وتقع مملكته فــي شمال غرب الهند من الكنج إلى الأفغان ومن كشمير إلــى الملتــان ، وفتح قلاعا حصينة على شواهق الجبال ، ومن بينها مدينــة كابــل ، وعاد إلى بلاده سالما ظافرا. ولقد كان لاستيلاء سبتكتكين على كابــل أثر كبير فى إضعاف شأن مملكة جيبال ، ذلك أن كابل تسيطر علــى المسالك المؤدية إلى السهل الهندى الخصيب ومما هو جدير بالذكر أن يعقوب بن الليث الصفار لما مد فتوحه إلى كابل سنة ٢٥٨هـ/٨٧١م وجد أهل هذه البلاد لا يزالون على الوثنية ، فنشر الإســلام بيــنهم ، وتوطد فى عهد سكتكين وابنه محمود كما انتشر فى كافة بلاد الأفغان. ودهلى وكلنجر ، وأعدوا جندا جاوز المائــة ألــف مقاتــل ، ولكــن سبكتكين باغتهم ، وشتت شملهم فاضطر الأمراء المتحالفون إلى طلب الصلح على أموال كثيرة طائلة عدا مائتين من الفيلة وعشرة آلاف من رعوس الخيل.

أسفرت غزوات سبكتكين لبلاد الهند عن امتلاكه بعض البلدان والقلاع فى الشمال الغربى من شبه القارة الهندية ، وتقع علــى وجــه التحديد بين لمغان وبشاور ، مهدت لخلفائه سبيل فــتح المزيــد مــن البلدان الهندية كما أدت انتصارات سبكتكين على أعدائه إلــى ازديــاد قوته وهيبته ، فأطاعه الأفغانية والخليج وأصبحوا مصدرا هامًا يمــده بالجند الضرورى لتحقيق سياسته.

سار محمود الغزنوى على سياسة أبيه التى تنطوى على بسط سيطرة الدولة الغزنوية على بلاد الهند ، وساعد على ذلك قرب غزنة من بلاد الهند الشمالية ، ووقوعها على قمة الهضبة التى تشرف على سهولها ، ورأى فى بلاد الهند ميدان الجهاد الأكبر فغزاها سبع عشرة غزوة فى مدى سبعة وعشرين عاماً فيما بين عامى (٣٦١ــ٤١٧هــ/ ١٠٠٠ــ١٠٢٦م) حتى خضع له شمال شبه القارة الهندية فـأتم فـتح إقليم كابلستان ، وفتح الملتان وكشمير ، وسعى إلـى نشـر الإسـلام وإحلاله محل البرهمية فى كل مكان ، وأخضع البنجاب حيث استطاع خلفاؤه من بعده أن يثبتوا سلطانهم فى عاصمتهم لاهور طـوال مائـة وخمسين سنة واندفع فى فتوحاته إلى ما وراء نهر الكنج ليختتم فتوحه فى الهند باحتلال كجرات.

ولتفصيل ذلك نقول : إن السلطان محمود الغزنوى لما فـرغ من إقرار الأمور فى خراسان وسجستان رأى أن يغزو الهند غـزوة تكون كفارة لما كان منه من قتال المسلمين ، فسار على رأس جـيش يتكون من عشرة الاف مقاتل وعند مدينة

غير أن جيبال عظم عليه استيلاء المسـلمين علـى أطـراف مملكته ورأى أن ذلك يشكل خطرا كبيرا على ملكه ، إن هو تغاضـى عن ذلك فحشد جيشا كبيرا سار على رأسه إلى حدود الدولة الغزنوية فسار سبكتكين من غزنة إليه ومعه جمع غفير من الجند والمتطوعـة ... قتال بين الفريقين انتهى بانتصار المسـلمين علـى أعـدائهم ،

وأرسل ملك الهند إلى سبكتكين يعرض عليه الصلح على مال يؤديه وبلاد يسلمها وخمسين فيلا يحملها إليه. لكن محمود بن سبكتكين أقنع أباه برفض الصلح إذ أبى إلا أن يكون فيصل الحرب عنوة وقهرا حمية للإسلام والمسلمين ، على أن جيبال عاد إلى طلب الصلح ، وهدد بأن الهنادكة لايهابون الموت إذا طرقهم طارق ، فهم سيفقئون أعين أفيالهم ويلقون بأطفالهم فى النار ويخربون بيوتهم بأيديهم ، ثم يعرضون أنفسهم على سيوفهم ورماحهم ، فيزهقون أرواحهم بأيديهم ، فلا يجد المسلمون حين يدخلون ديارهم إلا تلالا خربة عندئذ عدل سبكتكين وابنه محمود عن موقفهما ، وتم الصلح بين الفريقين على ألف ألف درهم وخمسين رأسا من الفيلة يؤديها جيبال إلى السلطان الغزنوى ويتنازل له عن عدد من البلدان والقلاع ، وسير معه سبكتكين من تسلمها.

غير أن جيبال نقض الصلح ، وقبض على المسلمين الذين وفدوا عليه لتنفيذ شروط الصلح ، وجعلهم عنده عوضا عن رهائنه الموجودين عند سبكتكين ، فلما نمى ذلك إلى علم السلطان الغزنوى لم يقف مكتوف اليدين ، بل عول على النفاذ إلى أرض العدو وإعادة إخضاع جيبال. فسار إلى مملكته ، وعاث فيها فسادا وتخريبا ، وقصد لمغان — وهى من أحسن قلاعهم — فاستولى عليها وهدم بيوت الأصنام ، واقام فيها شعائر الإسلام ، وسار عنها يفتح البلاد ، وينكل بمن يعترض طريقه من الهنود ، وعاد إلى غزنة فاستعان جيبال على

خصمه بأمراء أجمير والوهن ، فأرسل خسروشاه – السلطان الغزنوى – إلى شهاب الدين قائد الغور وفدا يطلب الأمان فأجابه شهاب الدين إلى طلبه ، ودخل الغور لاهور ، وقبضوا على خسروشاه. وبذلك فقدت الدولة الغزنوية آخر معاقلها ، وزالت الدولة الغزنوية بذلك فى الهند وغير الهند ، وامتد ملك الغور فى أفغانستان وبلاد الهند على حساب الدولة الغزنوية. كما اتسع ملك الغور ، واستقر سلطانهم ، وكثر جندهم وقوى بأسهم ، وأمر غياث الدين أخاه شهاب الدين بإقامة الخطبة له بالسلطنة ، ولقبه الخليفة العباسى غياث الدين والدنيا ، معين الإسلام قسيم أمير المؤمنين ، ولقب السلطان غياث الدين أخاه شهاب الدين ، عز الدين. وأكسب اعتراف الخليفة العباسى لسلطان الغور الصفة الشرعية لحكمه على البلاد التى دخلت فى حوزته. وبذلك قوى نفوذ غياث الدين.

لم يكتف الغور بما امتلكوه من بلدان ، بل سعوا إلى توسيع دائرة نفوذهم ، فبعد أن استقر أمر لاهور ، سار السلطان غياث الدين محمد فى صحبة اخيه شهاب الدين إلى هراة وشدد الغور عليها الحصار ، وكان يسيطر عليها جماعة من الترك السلاجقة يخضعون للسلطان سنجر ، ومازال الغور يحاصرون هراة ، ويضيقون عليها الحصار حتى طلب أهلها الأمان ، فأمنهم غياث الدين محمد ، ودخل هراة ، وضمها إلى دولته ، وتقدم سلطان الغور إلى " بوشنج "

واستولى عليها ، كما امتلك بادغيس وبعض البلدان المجاورة لها في إقليم خراسان.

يتضح لنا مما تقدم أن إمارة الغور الأفغانية انضمت إلى الدولة الغزنوية في عهد السلطان محمود ، واعتنق أهلها الإسلام ، وترقبـــوا الفرص للعودة إلى الاستقلال ، ولما ضعفت الدولة الغزنوية ، تمكنوا من الانفصال عنها ، بل وتجاوز أراضيهم الجبلية الوعرة إلـــى بـــلاد الغزنوية في أفغانستان وبلاد الهند حتى أدخلوها في دائـــرة نفـــوذهم وضموا إلى دولتهم كذلك أجزاء من إقليم خراسان وإقليما هنديا.

الغور وبلاد الهند

يرجع إلى الغور الفضل في توطيد دعائم الحكم الإسلامي فـــي شمال الهند ، وحقيقة أن السلاطين من بني سبكتكين هم الذين فتحـــوا أمام قادة المسلمين من بعدهم سبيل التوسع والفتح في بلاد الهنـــد ، إلا أن سياسة سلاطين بني سبكتكين تختلف عن سياسة سلاطين الغور في الهند ، فالغوريون لم يعملوا على تثبيت أقدامهم في هذه الـــبلاد ، بـــل وجهوا اهتمامهم بالدرجة الأولى إلى الحصول على المغانم الكثيرة من بلاد الهند ، أما الغور فقد استقروا في البلاد الهندية التي ضموها إلى حوزتهم ، ومن ثم احتفظت الهند بمالها وثرواتها واتسع سلطانهم فـــي بلاد الهند ، ورأى الهناركة في المسلمين خلاصا من نيـــر أمـــرائهم

الذين حرموهم من التدرج فى سلك الوظائف مهمـا كانـت كفايـاتهم ومعتقداتهم ، بينما يساوى الإسلام بين أبنائه.

وقبل أن نتحدث عن فتوحات الغور فى بلاد الهند يجدر بنا أن نناقش الدوافع والأسباب التى وجهت أنظار المسلمين الغور إلى بـلاد الهند.

لما كانت دولة الغور قد قامت فى أفغانستان فى منطقة جبليـة وعرة ، واتخذت لها قوى ضاربة قهـرت الغزنـويين ، وانتزعـت ممتلكاتهم فى غزنة وما جاورها ، فمن الطبيعى أن يعمل الغور علـى البحث عن ميادين جديدة للتوسع ، ومن الطبيعى جداً أن تكـون بـلاد الهند هى ذلك الميدان ، ويؤيد ذلك ما ذكره المؤرخ بانيكار إذ قـال: "كلما كانت أفغانستان قوية مدت نفوذها إلى بلاد الهند ، والعكس كلما ضعف أمر افغانستان أمنت الهند من غزوها لأراضيها".

ومن الأسباب التى دعت الغور إلى الاتجاه إلى بلاد الهند عدم استطاعتهم الزحف إلى وسط آسيا حيث الدولة الخوارزميـة ودولـة الخطا تقومان فى هذه الجهات ، ولا تمكنان الغور من التوغـل فـى بلادهما.

وكان من الضرورى للغور ، ومن المنتظر أيضـاً أن يولـوا وجوهم شطر الهند لأن الغزنويين نقلوا مقر دولـتهم إلـى لاهـور ، وأخذوا فى العمل على تقوية أمرهم لاسترداد الـبلاد التـى انتزعهـا الغور منهم فى أفغانسان ، فكان لابد إذن للغور من القضاء نهائيا على

أخر معاقل الغزنويين فى الهند حتى يأمنوا على دولتهم الناشئة من أية محاولة قد يبذلها الغزنويون لا سترداد أفغانستان منهم.

وهناك أسباب أخرى شجعت الغور على الاتجاه إلى بلاد الهند ، فالأمراء ـ كما سنرى ـ فى شمال الهند أضعفتهم وأنهكت قواهم الانقسامات والخلافات ، وعلى ذلك رأى الغور أنهم لن يواجهوا متاعب كثيرة فى تحقيق سياستهم فى بلاد الهند. ولا يفوتنا أن نذكر أن الغور كانوا حديثى عهد بالإسلام تحدوهم الرغبة والأمل فى الجهاد فى سبيل نشر الإسلام فى غير بلاد الإسلام ، وبلاد الهند التى لا يزال معظم سكانها على الوثنية خير ميدان يجاهد فيه الغور من أجل رفع راية دينهم ونشره. ولقد انقسم القسم الشمالى من الهند حينما شرع الغور فى الزحف إليها إلى ممالك متعددة منقسمة على نفسها ومستقلة عن بعضها البعض ، فهناك مملكة البنجاب ويحكمها السلطان الغزنوى " خسروشاه " ـ آخر سلاطين بنى سبكتكين ، ومملكة الملتان ، وتحكمها أسرة هندية تسمى سمارس ، يضاف إلى ذلك إمارات يحكمها أمراء هنود من الراجيوتيين فى شمال الهند من أهمها مملكة دهلى وآجمير ومملكة قنوج وتضم بنارس ، ومملكة جوجرات ونهرواله ، ومملكة بندلخاند وتضم كالنجار وهانسى ومملكة بهار ومملكة البنغال ، ويسمى هذا القسم هندوستان ويشمل أخصب بقاع الهند وأكثرها سكانا.

، سار الغور بقيادة السلطان غياث الدين محمد إلى الملتان سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م واستولوا عليها ، ثم ضموا بشاور ولم يستطع بهيم ديوا – راجا نهرواله – وقف زحف الغور مما مكنهم من مواصلة تقدمهم فى أرض السند حتى استولوا عليها.

قصد السلطان الغورى بعد ذلك لاهور ، وتصدى له السلطان خسروشاه وأوقع به الهزيمة ، فاتجه سلطان الغور إلى " سيالكوت " وانتزعها ، واتخذها قاعدة لشن الغارات على لاهور ، وبعد عدة سنوات استطاع سلطان الغور الاستيلاء على لاهور ، وبسقوط لاهور فى ايدى الغور ، اكتملت سيطرتهم على إقليم البنجاب بأكمله.

لما أتم السلطان الغورى ضم بلاد السند والبنجاب إلى حوزته عهد إلى أخيه شهاب الدين بحكم هذه البلاد نيابة عنه فاتخذ من لاهور مركزا له ، وعمل شهاب الدين منذ أن ولى أمر هذه البلاد على تثبيت أقدام الغور فيها وتوسيع ممتلكاتهم فى الهند.

فطن الأمراء الراجبوتيون إلى خطر الغور وخشوا من إزدياد نفوذهم ورأوا فى ذلك خطراً يهدد سلطانهم فتحالفوا فيما بينهم ونسوا خلافاتهم وعقدوا العزم على طرد الغور من بلاد الهند قبل أن يهاجموا ديارهم وينتزعوا بلادهم. أو بعبارة أخرى يتغذوا بالغور قبل أن يتعشوا بهم. وفى سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م حشد الأمراء الراجبوتيون أمراء شمال الهند أصحاب دهلى وآجمير وقنوج وبهار والبنغال والكجرات وبندلخاند ، حشدوا قواتهم عند سرهند على حدود البنجاب

الشرقية واستقروا الهنادكة بالانضمام إليهم فأقبلوا عليهم من كل حدب وصوب على الصعب والذلول ، فلما علم شهاب الدين بنوايا الأمـــراء الراجيوتيين نحوه وتجمعهم لملاقاته سار إليهم على رأس جيش كبيـــر ودارت معركة عنيفة بين الفريقين انتصر فيها الهنادكة علـــى الغـــور وقتلوا وأسروا من المسلمين كثيرين ، وأصيب شهاب الـــدين بجـــراح شديدة ، وكاد أن يلقى مصرعه لولا أن بعض جنده حمله إلى خـــارج ميدان القتال ، ودارت المعركة عند (تارين) على مقربة من (ثنيسر).

على أن غياث الدين سلطان الغور لم يتغاض عن هزيمة جنده في الهند ، بل رأى ضرورة محاربة أعدائه وإخضاعهم ، وإعادة نفوذ الغور في الهند إلى ما كان عليه من القوة والغلبة ، فأعد جيشا مكونـــا من مائة وعشرين ألف مقاتل من الأفغان والترك والخلج والفـــرس ، سار على رأسه شهاب الدين في العام التالي ، والتقى بأعدائه في نفس الموضع الذي نشبت فيه معركة العام السابق ، وعلـــى الـــرغم مـــن التفوق العددي للهنادكة واستخدامهم الفيلة في الحـــرب إلا أن قـــوات الغور أحرزوا انتصارا رائعا على الهنادكة وقتلوا ألوفا منهم من بينهم بعض الأمراء وخر أمير " آجمير " صريعا ، وغنم الور مغانم كثيرة.

وكان لهذه الواقعة آثار بعيدة المدى في شمال بلاد الهند ، فقد تقلص نفوذ وسلطان الأمراء الراجيوتيين في هذه الجهات ، مـــا امتـــد سلطان الغور إلى بلاد سروستي وسمته وكهرام وهنســـي وأجميـــر ،

وحكم شهاب الدين الأصنام فى هذه البلاد التى امتكلها ، وشيد مساجد يذكر فيها اسم الله ، وحطم معابد الشرك كذلك أصبح الطريق مفتوحاً أمام الغور للزحف إلى دهلى " وهى كرسى الممالك التى فتحها الغور فى بلاد الهند " وفعلا تمكن الغور من ضم دهلى إلى حوزتهم وبــذلك اتسعت دولتهم فى الهند حتى اقتربت من حدود الصين شــرقا. لأنهــا أرست أسس الحكم الإسلامى فى هذه البلاد.

عهد شهاب الدين الغورى إلى مملوكه قطب الدين أيبك بحكــم البلاد الهندية الداخلة فى دائرة نفوذه نيابة عنه ، وعاد إلــى غزنــة ، وجدير بالذكر أن أيبك عرف عنه الحنكة السياسية والكفاءة الحربيــة. وجعل من دهلى قاعدة لحكمه فى بلاد الهند بدلا من لاهور التى تبعــد عن البلاد الهندية التى يمتلكها الغور.

على أن الأمراء الهنادكة لم يلبثوا أن أعدوا عــدتهم وتــأهبوا لطرد الغور من بلادهم بعد أن أمرهم فى بلاد الهند ، ووآتتهم الفرصة حين نمى إلى علمهم هودة شهاب الدين إلى غزنة فاتحدوا بقيادة "راجا قنوج جندار" ، ومملكته تمتد من وراء دهلى حتى حدود بنارس ، وفى غضون ذلك وصل شهاب الدين إلى بلاد الهند ، وانضم إليــه قطــب الدين ، وسار جيش الغور إلى الأمراء المتحالفين ، واشتبك الفريقــان فى معركة فى شاندوار ، وانتصر فيهــا المســلمون علــى أعــدائهم انتصارا رائعاً ، وزحف الغور إلى بنارس واستولوا عليهــا ، وقتــل

أمير قنوج فى ٥٩٠هـ/١١٩٤م. ومن أبرز نتائج هذه المعركة ازدياد نفوذ وهيبة الغور فى بلاد الهند وفشل الأمراء الراجيوتيين فى شمال الهند فى استرداد بلادهم التى انتزعها منهم المسلمون لذلك لجئوا إلى صحراء " الراجيوتانا " التى حملت اسمهم (الثأر).

لم يأل قطب الدين أيبك جهدا فى سبيل توسيع رقعة دولة الغور فى الهند ، بل عمل على ضم المزيد من بلاد الهند إلى حوزة الغور ، ففى ٥٩٣هـ/١١٩٦م استولى ايبك على " جاولار " gawalior كما استولى على نهراواله. وفى سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢م ضم كلنجار إلى حوزته ، ولم تستطع قلعتها الصمود أمام ضربات المسلمين القوية فاستلمت حاميتها ، يضاف إلى ذلك استيلاء الغور على بعض البلاد فى شمال الهند ، وبذلك سيطر الغور على أراضى شمال الهند كلها.

وبينما يعمل قطب الدين أيبك على تثبيت أقدام المسلمين فى بلاد الهند خرج قائده محمد بن بختيار الخلجى فى قلة من الجند يواصل سياسة حكومته الرامية إلى توسيع إمبراطورية الغور فى الهند ، فاستولى على " بندنتبورى " عاصمة إقليم بهار ويحكمها ملوك أسرة " بالا " Pala ولم يلبث أن استولى على مملكة بالا بأسرها. وكانت الديانة البوذية عقيدة السواد الأعظم من سكانها. فحطم معابدهم وأصنامهم. ونشر الإسلام بينهم وانضمنت هذه البلاد إلى إمبراطورية الغور.

وأذن قطب الدين أيبك -نائب سلطان الغور فى الهند -إلى الخلجى بمواصلة الفتح والتوسع ، فاتجه محمد بختيار الخلجى إلى "نادية" عاصمة البنغال وعلى الرغم من قلة عدد قواته فقد اقتحم نادية، ويحكمها لكشمن سنا من أسرة سنا سنة ٥٩٥هـ/١١٩٧م وفر الملك الشيخ من عاصمة دولته بعد أن علم بدخول الغزاة المسلمين لها - فاستولى عليها بختيار وضمها إلى مملكة الغور. وأقام فيها الخطبة لسلطان الغور ، وقد يسر سقوط نادية فى أيدى الغور أمر الاستيلاء على إقليم البنغال بأكلمه.

لم يكتف بختيار الخلجى بما أحرزه من انتصارات بل تطلع إلى السير إلى التبت والاستيلاء عليه ففى سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٦م اتجه من " ديفكوت " Devko إلى " دناجبور " Dinajpur فى عشرة آلاف فارس. لكن حملته فشلت فشلا ذريعا ، وفى عودته إلى ديفكوت فقد معظم جيشه. ولم يلبث هو كذلك أن توفى. وقد حرص قطب الدين أيبك على المحافظة على ممتلكات الغور الهندية فقضى على ممتلكات الغور الهندية فقضى على محاولات بعض أمراء الهند فى الاستقلال على مملكة الغور ، ففى سنة ٥٩٨هـ شق أهل نهروالة عصا الطاعة على الغور ، فقاتلهم أيبك وهزمهم شر هزيمة ، وشتت شملهم واسترد نهرواله وعفا عن حاكمها. وأبقاء فى بلدته بعد أن دفع مبلغا كبيرا من المال وتعهد بعدم العودة إلى العصيان.

بدأت متاعب الغور فى بلاد الهند فى القرن السابع الهجــرى ذلك أن بعض الولايات الهندية خرجت على حكومة الغــور منتهــزة فرصة انشغال الغور فى الحروب فى إيران ، ومن أبرز الانتقاضات التى أنهكت الغور ثورة الكهكربة وبلادهم قليلة المياه صعبة المســالك وتقع على قمم الجبال ، وامتنعوا عن دفع الخراج إلى حكومة الغــور وقطعوا الطريق بين غزنة ولاهور. ولم يستطع والى الملتان التصدى لهم ، ولما زاد خطر الكهكرية أرسل شهاب الدين إلى قطــب الــدين أيبك يأمره بالضرب على أيدى الكهكرية ، وإعــادتهم إلــى الــولاء والطاعة ، وأرسل أيبك إليهم يدعوهم إلى الطلاعة ، وتــرك التمــرد والعصيان ، لكن الكهكرية لم يذعنوا لنداء نائب السلطان وبقوا علــى عصيانهم ، وطردوا عمال الغور من بلادهم ، وأقبلت الهنود علــيهم تؤيدهم فى موقفهم العدائى من الغور فقوى أمرهم.

لما رأى شهاب الدين عدم استطاعة عماله فى الهند إخضــاع الكهكرية وأعوانهم سار بنفسه إلى بلاد الهند لإعادة الأمــن والهــدوء إليها واشتبكت قوات الغور مع الكهكرية فــى قتــال عنيــف ، هــزم أعداءهم ، وقتلوا كثيرا منهم ، وفر من نجا إلى هناك وأشــعلوا نــاراً وألقوا بأنفسهم فيها قبل أن تأخذهم سيوف المسلمين. وغنم المســلمون منهم ما لا يسمع بمثله ، وبذلك عادت إلى الغور هيبتهم فى بلاد الهند وأمنت إمبراطوريتهم فى الهند من حركات التمرد ، بــل وفــد علــى

شهاب الدين بعض رؤساء القبائل الذين انضموا إلى الكهكرية يعلنون ولاءهم وعودتهم إلى الطاعة.

ويجدر بنا أن نناقش أسباب تفوق الغور المسلمين على الهنود، فمن بين هذه الأسباب دقة المسلمين ومهارتهم في إدارة العمليات الحربية ، يضاف إلى ذلك أن بلاد الهند كانت تنقصها وحدة سياسية تجمع بينها وتقوى من أمرها إذ كانت الهند دولا مستقلة يحكمها أشخاص لا يرتبطون مع بعضهم البعض برباط يمكن أن يؤدى دورة فى الدفاع عن الوطن فى حالة تعرضه للغزو.

حقيقة أن الأمراء الراجبوتيين كانوا محاربين أكفاء لكنهم لم يخضعوا لأمير يوحد شملهم فى مواجهة العدو المشترك ، ولما واجهوا الغور ، لم يستطيعوا الصمود كثيرا أمام هجماتهم نظرا لأن الترك كانوا فى مستوى أعلى منهم فى التدريب والتنظيم والتطور الحربى ، والهنادكة لم يكن عندهم الاستعداد الكافى لمسايرة أحدث التطورات فى التنظيمات العسكرية والأساليب الحربية ، وأخيرا فإن الدين الإسلامى قد أعطى الغور حماسا وقوة للجهاد فى سبيل الله ، ولقد وحد بين المسلمين وجمع شملهم روح الأخوة والمساواة التى بثها الإسلام فى قلوب أبنائه. أما الهنادكة فالنظام الطبقى السائد بينهم والذى بمقتضاه ، انقسم الناس إلى منبوذين وأشراف عرقل وقوفهم صفا واحداً فى وجه غزاتهم.

والخلاصة أن سلاطين الغور ، نجحوا فى إقامة دولة إسلامية فى شمال الهند ومهدت سياستهم فى هذه البلاد إلى قيام إمبراطورية لها تقاليدها ومقوماتها ، ذلك أنهم أسندوا إدارة دولتهم فى الهند إلى رجال أكفاء أحسنوا توجيههم ، فعملوا على تثبيت الحكم الإسلامى فى هذه البلاد ، ولقد حرص خلفاء شهاب الدين — من مماليك الترك — على اتباع التقاليد التى وضعها سيدهم فى حكم الهند لذلك يمكن القول بأن شهاب الدين الغورى ليس غازياً للهند فقط ، بل يعتبر بحق واضع أساس إمبراطورية المسلمين فى الهند.

ضعف مملكة الغور وانهيارها

سار السلطان غياث الدين محمد فى دولته سيرة حسنة فقد شيد بها المساجد والمدارس ، وكان ينسخ المصاحف بخطه ، ويودعها فى مكتبات المدارس التى أسسها ، وخفف عن الناس عبء الضرائب ، ولم يتعرض لمال أحد بسوء ، وإذا مات رجل فى غير بلدة ، سلم ماله إلى أحد التجار من أهل بلده ، فإن لم يجد أحداً يسلمه إلى القاضى ، ويختم عليه إلى أن يصل إليه من يأخذه من ورثته وكان يخلع على الفقهاء والأدباء والشعراء ، وينفق على الفقراء ، يضاف إلى ذلك حرصه على وحدة العقيدة ، إذ كان يكره التعصب لمذهب معين ، ويقول: التعصب فى المذاهب من الملك قبيح.

كذلك كان شهاب الدين محمد عادلا حسن السيرة فى رعيته وبلغ من اهتمامه بسير العدالة أن القاضى بغزنة يحضر داره فى بعض أيام الأسبوع ، ويحضر معه أمير حاجب وأمير دار وصاحب بيت المال ، فيحكم القاضى ، وموظفو السلطان ينفذون أحكامه على الصغير والكبير والشريف والوضيع ، وإن طلب أحد الخصوم الحضور عنده أحضره ، واستمع إلى أقواله وأمضى عليه أو له حكم الشرع. لذا سارت الأمور فى مملكة الغور على أحسن نظام ، بعد أن ساد العدل البلاد.

على أن دولة الغور اضطربت اضطرابا شديدا بعد وفاة السلطان شهاب الدين محمد ، فقد تنافس الأمراء والقواد حول عرش السلطنة ، وحدثت حروب انهكت قوى الدولة الغورية حتى زالت فى النهاية.

فلما توفى شهاب الدين تنافس حول السلطنة غياث الدين محمود نجل السلطان غياث الدين محمد ، يساعده تاج الدين يلدز ــ من أقوى قواد الغور ــ وابنا بهاء الدين الغورى ــ صاحب باميان ــ علاء الدين وجلال الدين ، ودخل الأخوان غزنة فعلاً وانتزعا قلعتها ، وفرقا الأموال على الجند والأعيان ، فدانت لهما غزنة بالولاء والطاعة منتهزين فرصة تغيب غياث الدين محمود فى خراسان ، على أن غزنة لم تصف لعلاء الدين وجلال الدين ، ذلك أن تاج الدين يلدز لم يلبث أن دخلها ونهب جنده المدينة ، واستولى يلدز على

القلعــة ، وأخرج الأميرين الغوريين منها ومن غزنة كذلك ، وكــان يلدز قد عظم أمره بعد أن استولى على كل مافى معسكر سيده شهاب الدين من مال وسلاح وجند.

على أن يلدز لم يكن يعمل باسم غياث الدين محمود كما كــان يدعى ، بل كان يعمد إلى انتزاع الحكم لنفسه ، فلما استوثق له أمــر غزنة ، لم يأمر الخطيب بالخطبة لغياث الدين محمود وإنمــا يخطــب للخليفة ، ويترحم على شهاب الدين ، وفرق الأمــوال فــى النــاس ، فطابت نفوسهم.

أما غياث الدين محمود بن غياث الدين محمد فقد تربع علــى عرش الملك ، وخطب لنفسه بالسلطة ، وتلقب بألقاب أبيه غياث الدين محمد فى فيروزكوه ، وفــرح أهــل البلــد بــه ، ونكــل بأعدائــه ومعارضــيه ، وسلك طريقه أبيه فى الإحسان والعدل ، إلا أنــه لــم يستطع استرداد بلاد خراسان التى انتزعها الخوارزميون من مملكته.

على أن أمر يلدز قد ساء ، ذلك أن قطب الدين أيبك ـــ نائــب سلطان الغور فى الهند ـــ أرسل إلى يلدز يهدده بالحرب ، إن لم يعــد إلى طاعة غياث الدين محمود ، ويقيم له الخطبة ، كما أن أحد قــواد يلدز ، واسمه " أيدكز التتر " ساءه موقف يلدز ، فخرج على صاحبه ، واستولى على غزنة وأموالها ، وأقام الخطبــة فيهــا لغيــاث الــدين محمــود ، وأرسل غياث الدين محمود إليه يلقبه " ملك الأمراء " ورد عليه المال الذى كان أخذه من الخزانة ، وقال له: أما مال الخزانة فقد

أعدناهُ إليك لتخرجه ، وأما أموال التجار وأهل البلد ، فقد أرسلته مع رسول ليعيده إلى أربابه حتى لايحدث ظلم فى دولتنا ، وقد عوضتك عنه ضعفه. وأرسل أموال أهل غزنة إلى قاضيها ، وأمره بردها إلى أصحابها ، وسار غياث الدين محمود إلى " بست " ، واستردها من يلدز وأحسن إلى أهلها ، وأعفاهم من خراج سنة لما نالهم من الضرر والأذى على أيدى هذا القائد.

أضعفت هذه الانقسامات من شأن دولة الغور ، حتى أن السلطان خوارزمشاه ، انتزع ما تبقى فى خراسان بل طمع فى الاستيلاء على البقية الباقية من ممتلكات الغور فى أفغانستان ، فأمر ـ أمير ملك ـ عامله على مراة ت بقصد غياث الدين محمود ـ صاحب الغور وفيروزكوه فسار أمير ملك ـ القائد الخوارزمى إلى فيروزكوه ـ عاصمة مملكة الغور ـ ولما رأى غياث الدين محمود ـ سلطان الغور ـ أن لا قبل له بالجند الخوارزمى طلب منه الأمان ، فأمنه القائد الخوارزمى ، ونزل سلطان الغور إليه من القلعة ، لكن القائد الخوارزمى نكث بالعهد وقبض على السلطان الغورى وقتله ، وضم بلاد الغور إلى دولة الخوارزمية سنة ٦٠٥هـ.

ولم يلبث علاء الدين محمد ـ السلطان الخوارزمى ـ أن استولى على كافة أرجاء خراسان ، وانتزع " باميان " من الأميرين الغوريين علاء الدين وجلال الدين ، واستناب يلدز عنه فى حكم غزنة ، فأقام الخطبة له فيها ، ونقش اسمه على السكة غير أن

خوارزم شاه لم يطمئن إلى يلدز وأعوانه ، فسار بنفسه إلى غزنة سنة ٦١٢ هـ ، وقتل من بها من جند الغور ولا سيما الأتراك ، وهرب يلدز إلى لاهور حيث اغتاله بعض رجال شهاب الدين الغورى.

وبذلك زالت الدولة الغورية على أيدى الخوارزميين بعد أن أنهكت قواها بما شنته من حروب على الخطا والخوارزميين والهنادكة. ويذكر ابن الأثير أن دولتهم كانت من أحسن الدول سيرة ، وأعدلها وأكثرها جهاداً.

١ ـ سلطنة دهلى الإسلامية فى عهد الملوك المماليك.

شهد العالم الإسلامى فى تاريخه حكاما من الترك كانوا أرقاء عند سادتهم السلاطين واشتغلوا بالجندية ، وتدرجوا فى سلكها حتى بلغوا مناصب رئيسية ، وقد يحدث فى حالة وفاة السلطان وتركه ذرية ضعافا ، أو عدم وجود وارث يخلفه أن يقوم هذا التركى ـ الذى كان عبدا للسلطان المتوفى ـ بانتزاع السلطنة لنفسه ، فسبكتكين كان مملوكا لألبتكين ، ولما توفى سيده دون أن يترك من يرثه مكن سبكتكين لنفسه ، وانفرد بحكم دولة سيده ، ووضع أساس إمبراطورية الغزنويين فى جنوب غرب آسيا ، وظل أعقابه يتوارثون حكم الدولة الغزنوية حوالى قرنين من الزمان. وعماد الدين زنكى أقام دولة فى الموصل على أنقاض دولة سادته السلاجقة ، وقد كان أتابكا لهم. والمماليك فى مصر أقاموا دولتهم بعد أن ضعف سادتهم سلاطين بنى أيوب. وهذا ماحدث بالنسبة لموضوع بحثنا ، إذ أقام المماليك دولة فى

الهند بُعد أن زالت دولة الغور ، وظلت تحكم أربعة وثمانين عاما (١٢٠٦-١٢٩٠) ويذكر "لين بول" في هذا الصدد أن الجندى الكفء من أرقاء الترك كان يستطيع أن يصل إلى أعلى الدرجات وأرفعها بما فى ذلك منصب السلطنة. أما عامة الناس من الزراع والصناع والتجار ، فكانت أوضاعهم محمدة لا تتغير ولا تتبدل ، ويتعاقب عليهم الحكام من مختلف الأجناس ، ويقفون منهم موقف المتفرج ، وما عليهم إلا الطاعة والولاء للحاكم سواء كان إيرانيا أو هنديا راجيوتيا. أو تركيا أو أفغانيا أو مغولياً ، ويسيرون حيث تسير بهم الحياة ، كيفما أراد حكامهم الذين يهبونهم الحياة ، أو ينتزعون حقوقهم فيها.

وسلاطين إمبراطورية المماليك فى الهند كانوا أرقاء من أجناس مختلفة ، وصلوا إلى ما وصلوا إليه بفضل ما اتصفوا به من شجاعة وبسالة وكفاءة ، وكان شأنهم شأن مماليك مصر يحرصون على تخليد أسمائهم بإقامة المنشآت الكبيرة مثل المساجد الفخمة والعمائر الرائعة.

وقطب الدين أيبك - أول سلاطين المماليك فى الهند - كان مملوكا عند سيده شهاب الدين - سلطان دولة الغور الأفغانية - (٥٩٩هـ - ٦٠٢هـ) وهو تركستانى الأصل ، اشتراه قاضى نيسابور ، وأدبه وأحسن تأديبه ، وعلمه علوم الدين وأساليب الفروسية ، ولما توفى هذا القاضى حمله أحد تجار الرقيق على

غزنة حيث أشتراه شهاب الدين الغوری ، ولمس فيه الشجاعة والذكاء وحسن الخلق ، وعهد إليه بالعمل فی الجيش كجندی ، وتجلت شجاعته وبراعته الحربية فی معركة تارين سنة ٥٨٨هـ/١١٩٥م ، وهی المعركة التی كانت بين سلطان الغور من ناحية ، والأمراء الراجيوتيين من ناحية أخبی — وكافأ شهاب الدين مملوكة بأن جعله نائبا له علی ممتلكات الغور فی الهند ، فأقام فی دهلی وجعلها قاعدة لحكمه فی بلاد الهند بدلا من لاهور.

لم يأل قطب الدين أيبك جهدا فی سبيل المحافظة علی دولة الغور فی بلاد الهند بل عمل علی ضم المزيد من أراضی الهند إلی دولة الغور ، ففی سنة ٥٩٣هـ/١٢٠٠م استولی أيبك علی كواليار ونهروالة ، وضم كالنجار إلی حوزته ، وكذلك امتلك بلاد " البغال " وأوقف كل محاولة بذلها الهنادكة لتحرير بلادهم من قبضة الغور.

وبقی أيبك علی ولائه لدولة الغور حتی فی أشد حالات ضعفها ، فلما ولی غياث الدين محمود سلطنة الغور سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٦م لم يكن هناك إجماع علی توليته ، فخرج عليه بعض مماليكه ، وعملوا علی الاستئثار بالسلطة والنفوذ دونه ، ومن بين هؤلاء المماليك " تاج الدين يلدز " الذی سيطر علی غزنة ، وأقام الخطبة فيها لنفسه ، وخلع طاعة سلطان الغور ، بينما بقی قطب الدين أيبك يدير الممتلكات الإسلامية فی الهند باسم سلطان الغور ويقيم الخطبة باسم غياث الدين محمود ، وضبط الأمور فی الهند وضرب

بيد من حديد على المفسدين ، وعارض بشدة الحركات المناهضة للحكم الغورى ، فأرسل إلى يلدز يقبح فعله ، ويأمره بإقامة الخطبة للسلطان الغورى ، وهدده بالمسير إليه ومحاربته ، إن لم يعد إلى الولاء والطاعة ، ولما لم يستجب تاج الدين يلدز قام أيبك بالعمل على ضم غزنة إلى مملكة الغور ، وطرد يلدز منها.

على أن يلدز لم يركن إلى الهزيمة بل انتهز فرصة سقوط الدولة الغورية على أيدى الخوارزميين ، وسيطر على غزنة وحكمها باسم علاء الدين محمد خوارزم شاه لكنه لم يلبث أن غادر غزنة خوفا من أن يبطش به السلطان الخوارزمى الذى شك فى إخلاصه ، وتوجه إلى البنجاب ، وانتزعها من نائب قطب الدين أيبك ، فسار أيبك إليه ، ومازال يطارده حتى غادر الهند. وبذلك إنفرد أيبك بحكم الإقليم الإسلامى فى الهند ، وأعلن نفسه سلطانا فى لاهور ، وأقيمت الخطبة له فى بلاد الهند الإسلامية ، ونقش اسمه على السكة ، واتخذ من دهلى قاعدة لدولته.

علَى أن قطب الدين أيبك لم يلبث أن عفا عن تاج الدين يلدز كما أحسن إلى غيره من مماليك شهاب الدين مثل ألتمش وقباجة وارتبط بهم بعلاقات مصاهرة ، فزوج أخته إلى قباجة ، وابنته إلى ألتمش ، وتزوج من أخت تاج الدين يلدز، وكفل بسياسته هذه ضمان تأييد هؤلاء القادة لحكمه ، وعدم التصدى له.

ويعتبر قطب الدين أيبك أول سلطان مسلم استقل بحكم دولـــة المسلمين فى الهند وتمكن هذا السلطان بفضل قوته وشجاعته وكفاءته الإدارية من بسط سيطرته على شمال الهند على مدى العشرين عامـــا التى حمكها ، وضبط الأمور فى دولتـــه وســـايس الهنادكـــة أحســـن سياســـة ، وضرب بيد من حديد علـــى أيـــدى اللصـــوص وقطـــاع الطـــرق ، وأنفق بسخاء على الفقراء والمساكين ، وحكم الناس بالعدل وعم السلام ربوع دولته حتى قيل أن الذئب والحمل كانا يشربان مـــن نبع واحد فى عهده ، وساروى فى المعاملة بـــين الهنادكـــة عظـــيمهم وحقيرهم ، وهذا أمر لم يعتادوه من قبل.

وعنى قطب الدين بالعمارة ، ومن أبرز مـــا خلـــف مســـجده المشهور الذى بدأ تشييده سنة ١١٩١م ، وأكمله ألتمش ســـنة ١٢٣٠م وما تزال منارة هذا المسجد باقية إلى يومنا هذا ، وتسمى منارة قطب الدين ، ويبلغ ارتفاعها ٢٥٠ قدما ، وعلى واجهة أحد أبواب المســـجد كتب باللغة العربية بحروف بارزة من الحجـــر " بســـم الله الـــرحمن الرحيم والله يدعو إلى دار السلام ..." ثم كتب تحت ذلك " جرت هذه العمارة بأمر .." وبجانب المسجد أسس مدرسة كبيرة. أمـــا المنـــارة فكانت مكونة من سبع طبقات ، لكن الموجود منها الآن خمس فقـــط ، أسس أيبك الطبقة الأولى ، وأقام ألتمش الطبقتين الثانية والثالثة ، وأتم خلفاؤه الباقى ، وفى كل طابق نقش على جدرانـــه آيـــات قرآنيـــة ، وبعض المراسم السلطانية.

توفى قطب الدين أيبك سنة ١٢١٠م ، وخلفه فى الحكم (ابنه آرام شاه) وكان شابا صغيراً لا يسطيع القيام بعبء الملك ، لذا عجز عن إدارة شئون الدولة ، فاستدعى رجال الدولة ألتمش — وكان يلى حكم أحد الأقاليم الهندية ، وذكرنا سابقا أنه كان من مماليك شهاب الدين أيبك — وطلبوا منه أن يلى السلطنة ، فقدم إلى دهلى ، وطرد آرام شاه منها ، وتربع على عرش السلطة سنة ١٢١١م.

يعتبر شمس الدين ألتمش المؤسس الحقيقى لدولة المماليك فى الهند ، وأصله مملوك ابتاعه قطب الدين أيبك من غزنة وحمله معه إلى الهند ، ولمس فيه نبل الأخلاق والفضيلة والذكاء والشجاعة ، فجعله رئيسا لحرسه ، ثم أسند إليه حكم بعض ولايات الهند ، وكما كان أيبك لشهاب الدين الغورى ، فقد كان ألتمش لأيبك.

بعد أن ولى شمس الدين ألتمش سلطنة دهلى ، تعرض لمشاكل داخلية تستهدف التخلص منه ، ذلك أن بعض كبار رجال الدولة طمع فى الوصول إلى الحكم منتهزين فرصة الفوضى التى أعقبت وفاة أيبك ، فاستولى قباجة على الملتان والسند ، وتنازع مع تاج الدين حول السيادة على لاهور ، ما أن خلفاء بختيار الخلجى سيطروا على بهار والبنغال. يضاف إلى ذلك أن قواد قطب الدين أيبك لم يرضوا عن تولية ألتمش ، وانتهز الأمراء الهنادكة فرصة هذه الاضطرابات والقلاقل ، وانشغال السلطان فى قمعها وتحركوا لنيل استقلالهم.

لم يقف شمس الدين ألتمش مكتوف اليدين إزاء موقف قطب الدين أيبك والترك المناهض له ولحمكه ، والذين لم يرضوا أن ينصب عليهم سلطان هو فى الواقع مملوك لمملوك بل عول على إخضاعهم ، واشتبك معهم فى معركة بالقرب من دهلى هزمهم فيها شر هزيمة ، وأجبرهم على الدخول فى طاعته وكان من أقوى الرجال الذين تصدوا لحكم ألتمش تاج الدين يلدز سيطر على غزنة بعد أنهيار دولة الغور وبسط نفوذه على البلاد المجاورة لغزنة حتى أقترب من خوارزم وشن حملات ناجحة على أطراف الهند. وعلى الرغم من أنه أقام الخطبة للسلطان الخوارزمى فى غزنة ، إلا أن هذا السلطان لم يطمئن إلى ولاء يلدز له ، وسار إلى غزنة سنة ٦١٣هـ/١٢١٧م لانتزاعها من يلدز ، وطرد الأتراك منها ، فولى يلدز الأدبار إلى بلاد الهند ، والتقى بناصر الدين قباجة ـ والى لاهور والملتان وديبل ، وغيرها من قبل ألتمش ـ فى معركة عنيفة هزم فيها قباجة ، واستولى على لاهور ، ثم زحف إلى مدينة دهلى لانتزاعها من ألتمش فتصدى له السلطان الهندى فى معركة عنيفة على الطريق إلى دهلى ، وهزمه وقتله فى نارين سنة ١٢١٦م.

لم يكد يستقر الأمر لألتمش حتى تعرض لخطر جديد من قبل المغول الذين بدعوا يشنون حملاتهم العنيفة على الدولة الخوارزمية ، واستولوا على أقاليمها ، وألحقوا ببلدانها الخراب والدمار ، ولما توفى السلطان الخوارزمى علاء الدين محمد خلفه ابنه جلال الدين

منكبرتـــى ، وعول على استرداد ملك آبائه وأجداده من براثن المغول المعتدين ، فصار إلى خوارزم ، لكنه علم أن المغــول قــد اســتولوا عليها.. لذلك اتجه إلى خراسان ، وتنقل بين بعض مدنها. ولم يلبث أن غادرها حتى لا يصطدم بالقوات المغولية المرابطة فى خراسان فــى وقت لم يكن هو فيه على أهبة الاستعداد لمهاجمة عدوه ، فولى وجهه شطر غزنة ــ وكان يحكمها من قبل أبيه قبل أن يحتلهــا المغــول ــ ورحب أهل غزنة بمقدمة ورأوا فيه خير منقذ لهم من ويلات المغــول وغيرهم ، والتفوا حوله ، ولما سمع الجند الخوارزمى المبعثــر بــين كابل وبشاور وغيرها من المدن الواقعة على حدود الهنــد بمقدمــة ، سارعوا إليه ودخلوا تحت لوائه ، وبذلك كثر جمعه ، وأصبح جيشــه يضم ستين الفا من المشاه ، وسبعين ألفا من الخيالة ، وواتته الفرصة للعمل على تتقيق هدفه الرامى إلى استعاذة دولة أبيه التــى انتزعهــا المغول ، فسار على رأس جيشه إلــى الســهول المحيطــة ببــروان Parwan فى الشمال الشرقى من غزنة ، واشتبك مع المغــول فــى قتال استمر ثلاثة أيام ، أحرز فيه على أعدائه انتصارا رائعا ، وقتــل المسلمون من المغول كثيرين وشجع انتصار جــلال الــدين ، الــبلاد الإسلامية على الوقوف فى وجه المغول ، فثار أهل هراة على والــى المغول وقتلوه وأعلنوا ولاءهم لجلال الدين منكبرتى.

لما علم جنكيز خان بانتصارات السلطان الخــوارزمى علــى جنده ، وإنضمام البلدان الإسلامية إليه ، أعد جيشا كبيرا للقضاء على

جلال الدين منكبرتى وجنده ، وسار على رأس جيشه إلى كابل.
والتقى جند المغول بالجيش الخوارزمى فى معركة ضاربة ، دارت فيها الدائرة على المغول للمرة الثانية ، وغنم المسلمون مامعهم ، وفكوا أسر الأسرى ، لكن الأمور مالبثت أن تحولت إلى صالح المغول رغم هزيمتهم ، ذلك أن خلافا حدث بين بعض قادة جلال الدين منكبرتى ، فارق على أثره القائد التركى بغراق جيش السلطان الخوارزمى واتجه إلى الهند ، وتبعه من الجند ثلاثون ألفا كل يريدونه ، وحاول منكبرتى أن يثنيه عن عزمه ، وألح عليه ، بل بكى بين يديه ، وخوفه من الله إذا تقاعس عن الجهاد فى سبيله ، لكن هذه المحاولة لم تجد مع القائد التركى فتيلا ، فقد أصر على الانسحاب الأمر الذى أضعف الجيش الخوارزمى ، وأصبح عاجزا عن الوقوف فى وجه المغول.

كل ذلك حدث بينما جنكيز خان يتجه بجحافة إلى الناحية التى يعسكر فيها جلال الدين وجنده ، لذلك لم ير السلطان الخوارزمى بدا من الانسحاب والمسير إلى الهند ، ولما بلغ السند ، لم يجد من السفن ما يكفى لعبوره هو وقواته. وفى غضون ذلك أدركه جيش المغول ، ودار قتال عنيف بين الفريقين أبلى فيه المسلمون بلاء حسنا ، فلما رأى المسلمون عدم استطاعتهم قتال المغول لقلة عددهم ، ونقصان عتادهم ، دبروا أمر العبور إلى الهند ، بينما عاد المغول إلى غزنة وامتلكوها ، وأبدى جلال الدين من ضروب الشجاعة والبسالة مالا

مزيدٌ عليه فى العبور حتى أنه بلغ الشاطئ الشرقى ومعه أربعة آلاف جندى كانوا حفاة عراة.

على أن جلال الدين منكبرتى لم يجد استجابة وقبولا من دولة المماليك فى الهند فقد توجس ألــتمش ورجــال دولتــه خيفــة مــن الخوارزميين. لذلك اصطدم جلال الدين بجد ألــتمش فــى الســنوات الثلاث التى قضاها فى الهند ، وبدأ هذا الصدام مع قباجــة ــ حــاكم السند الذى حاول منعه من الإقامة فى السند خوفــا مــن أن يتعقبــه المغول ، ويطيحون به وبولايته ، لكن جلال الدين أوقع به الهزيمــة ، وأحبط محاولته ، ولما علم جلال الدين أن المغول يعتزمــون القــدوم على الهند لدحره والقضاء عليه سار إلى دهلى ، وأرسل إلى ألــتمش يطلب منه أن يمنحه هو وجنده حق الإقامة فى دهلى ، لكن الســلطان المملوكى اعتذر إليه بحجة أن حرارة الجــو فــى دهلــى لاتناســب الخوارزميين ، ذلك أن سلطان دهلى خشى أن ينضم الجند الترك فــى دولته إلى سلطان الخوارزميين. وطلب منه الانسحاب مــن دولتــه ، وحدثت معركة بين الجيش الخوارزمى وجيش ألتمش بــالقرب مــن دلهى ، وانسحب على أثرها جلال الدين إلى لاهــور ، وكثــر جمــع جلال الدين بما وفد إليه من جند أخيه غياث الدين ــ حاكم العراق ــ كذلك انضمت إليه قبائل الكهكوية الناقمــين علــى قباحــة ــ حــاكم السند ــ فازدادت قوته ، وانتزع من والى السند بعض البلدان.

لم يكن جلال الدين يهدف من التجائه إلى الهند اتخاذها مستقرا ومقاما ، لكنه كان يهدف إلى تجنب الاشتباك مع المغول حتى يستعيد قوته ، ثم يستأنف الحرب ضدهم. وواتته الفرصة لشن الحرب من جديد على المغول ، فقد توفى جنكيزخان ، وعقب وفاته انسحاب القوات المغولية الرئيسية التى تحتل أقاليم الدولة الخوارزمية إلى مواطنها الأصلية فعبر نهر السند سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م وقصد إيران وظل يقاتل المغول حتى ضعفت ووهنت قوته وفر من أمامهم ، وظلوا يتعقبونه حتى قتل فى كردستان سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١م.

لما غادر جلال الدين منكبرتى الهند أمن السلطان ألتمش على دولته من الخطر الخوارزمى ، وما قد يسفر عنه من هجوم المغول على بلاده ، لكنه لم يكد يتنفس الصعداء من جراء هذه الأزمة حتى واجه أمورا داخلية تمس وحدة دولته ومن أبرز هذه الأمور خروج غياث الدين الخلجى ـ والى البنغال من قبله ـ عليه وأعلن استقلاله عن دهلى ، وأقام الخطبة باسمه ، ونقش اسمه على السكة ، وتلقب بألقاب الملوك ، وقوى أمره حتى امتد نفوذه على جاينكر وكمروب وترهوت وجور إلى الشرق من دهلى.

عون السلطان ألتمش على سحق محاولة الخلجى الاستقلالية عن دولته ، وسار على رأس جيش قوى إلى البنغال ، ولما رأى الأمير الخلجى عدم استطاعته الوقوف فى وجه سلطان دهلى أعلن عودته إلى الولاء والطاعة له ، وتعهد بدفع الجزية المقررة عليه ، إلا

أنه لم يكن صادقا فى تعهده ، بل كان يزمع انتظار فرصة أخرى تتيح له العودة إلى الاستقلال بولايته ، فلما ابتعد السلطان ألتمش عن البنغال ، عاد وأعلن الاستقلال وسار إلى بهار واستولى عليها ، غير أنه لم يهنأ بهذا الاستقلال طويلا ، إذ سار إليه " ناصر محمد شاه " — والى " أوده " Oudh من قبل أبيه السلطان ألتمش وهاجم البنغال ، وأوقع الهزيمة بالخلجى وأنصاره ، وأعاد سيطرة دهلى على إقليم البنغال.

على أن الأمور لم تستتب فى إمبراطورية الهند الإسلامية بعد عودة البنغال إلى سيطرة الحكومة المركزية فى دهلى ، ذلك أن قائدا آخر انتقض على سلطان دهلى ، وهو ناصر الدين قباجة ، وكان ألتمش قد طرده من لاهور بعد أن حاول الاستقلال بها عن دهلى ، فبسط سيطرته على بعض بلدان السند ، لكن جلال الدين منكبرتى اشتبك معه ، وانتزع منه أوكا والملتان ، ولما انسحب السلطان الخوارزمى من الهند عاد قباجة وسيطر على هذه البلاد ، وحكمها مستقلا عن سلطان دهلى ، فسار إليه شمس الدين ألتمش ، بينما اتجه واليه على لاهور لنجدته وهزمه بالقرب من بهكر Bhakkar ، وظل يتعبه ، حتى سقط فى نهر السند وغرق وهو يحاول عبوره فرارا من خصمه. بشاور التقى بجيش جيبال الذى يتكون من أثنى عشر ألفا من المشاة معها ثلاثمائة من الفيلة فنشب القتال بين الفريقين ، هزم الهنود وقتل منهم كثيرون ، وأسر جيبال ومعه جماعة من أهله وعشيرته ،

وغنم المسلمون مغانم كثيرة ، واستولوا على عدد من البلـدان. ولمـا وضعت هذه الحرب أوزارها ، وحطت عن الظهور أثقالهـا ، وافـق السلطان محمود على إطلاق سراح جيبال بعد أن افتدى نفسـه بمـال كثير وعدد كبير من فيلة الحرب ، ولم يستطع الأمير الهندوكي بعد أن أطلق سراحه أن يبقى على قيد الحياة بعد أن لحقه الذل والعار ، فألقى بنفسه في النار فاحترق في شوال سنة ٣٩٢هـ/١٠٠١م.

ثم سار السلطان محمود نحو الهند وانتصر على أهلها ثم قصد الملتان وهو مركز مشهور للحجاج الهنود ، وقد وصف الأصـطخري صنم البراهمة في الملتان فقال: إن أهل الهند يعظمون هـذا الصـنم ويحجون إليه من أقاصي بلدان الهند ، ويتقربون إلى الصنم في كـل سنة بمال عظيم ينفق على بلد الصنم والمتعلقين به ، وصورته علـى خلقة الإنسان متربع على كرسة من جص وآجر ، والصنم قد ألـبس جميع بدنه جلدا ، لايتبين من جثته إلا عيناه ، فمنهم مـن يـزعم أن جسده خشب ، ومنهم من يزعم أنه من غير الخشب إلا أنـه لايتـرك بدنه ينكشف ، وعيناه جوهرتان ، وعلى رأسه إكليل ذهـب ، متربـع على ذلك الكرسي ، قد جعل ذراعيه على ركبتيه ، وقد قبض أصـابع كل يديه كأنما يحسب أربعة.

لما قصد السلطان محمود الملتان ، غزا " بهاطية " ـ جنـوب بلاد البنجاب ـ وصاحبها يسمى " بحيزا " ـ وهي مدينـة حصـينة عالية السور ، يحيط بها خندق عظيم فامتنع صاحبها بها ، ولما شـدد

علىٰ ذلك الكرسى ، قد جعل ذراعيه على ركبيته ، وقد قبض أصـابع كل يديه كأنما يحسب أربعة.

لما قصد السلطان محمود الملتان ، غزا " بهاطية " ـ جنـوب بلاد البنجاب ـ وصاحبها يسمى " بحيزا " ـ وهى مدينـة حصـينة عالية السور ، يحيط بها خندق عظيم فامتنع صاحبها بها ، ولما شـدد المسلمون عليه الحصار ، وأرك ضعفه ووهنه أمام القوات الغزنويـة أخذ جماعة من ثقاته واعتصم بالجبال المجاورة ، فسير إليه السـلطان الغزنوى فرقة من جيشه باغتته على غرة وأنزلـت بـه الهزيمـة ، ودخلت بهاطبة فى حوزة محمود بن سبتكتين ، وأقام بها حتى أصـلح أمورها ورتب قواعدها ، ودعا أهلها إلى الإسلام واستخلص بها مـن يعلم من أسلم من أهلتها تعاليم الدين الحنيف.

وفى العام التالى قصد السلطان محمود مدينة الملتـان نفسـها وانتصر وهو فى طريقه إليها على أنديال بن جيبال الذى رفض مرور القوات الإسلامية من بلاده ووصلت القوات الغزنوية الملتان واستولت عليها ولاذ صاحبها بالفرار.

اتجه السلطان محمود بعد ذلك إلى قلعة كواكير فاستولى عليها ، وأحرق أصنامها. واعتصم وتحصن صـاحبها فـى قلعـة منيعـة فحاصره السلطان الغزنوى ، وضيق عليه الحصـار ومـا لبـث أن صالحه وعاد إلى خراسان لإنقاذها من غارت الترك وعهد إلى نواسه شاه حفيد جيبال الذى اعتنق الإسلام ودخـل فـى طاعـة السـلطان

الغزنوى بأن ينوب عنه فى حكم بلاد الهند الغزنوية ، لكن نواسه شاه لم يكن مخلصا لغزنة ، فانتهز فرصة ابتعاد محمود بن سبكتكين عنبلاد الهند ، وارتد عن الإسلام ، ومالأ أهل الكفر والطغيان ، فلما علم محمود بذلك أسرع إلى بلاد الهند ، ففر نواسه شاه من بين يديه ، واستعاد السلطان محمود تلك الولاية ، وأعادها إلى الإسلام ، واستخلف عليها رجلا من ثقاته.

لما رأى أمراء الهند انتصارات السلطان محمود الغزنوى فى بلادهم وتهديده لاستقلالهم عقدوا العزم على الاتحاد والوقوف يدا واحدة أمام الخطر الغزنوى الزاحف على بلادهم ، لذلك حشدوا جيوشهم بارض البنجاب فى حماس بالغ ، واشتبكوا مع القوات الغزنوية بقيادة السلطان محمود الذى حمل عليهم حملة لم يستطيعوا الصمود إزاءها ، ففر أمراؤهم ، ولم يستطع جنودهم الثبات أمام ضربات الغزنويين القوية ، فلاذ من نجا منهم بالفرار ، واستولى السلطان محمود على عتاد وذخائر وكنوز الجيوش الهندية ، ولم يكتف بذلك ، بل أرسل بعض قواته فى أثر فلول العدو المهزومة فلحقت بإبرهمن بال بن أنديال فى قلعة بهيم — وهى جبل عال — وكان الهنود جعلوها مخزنا لصنمهم الأعظم ، ينقلون إليها أنواع الذخائر ، ونفيس الجواهر منذ سنين طوال ، تقربا إلى هذا الصنم ، فحاصر القلعة الجند الغزنوى ، وضيقوا على من بها الحصار حتى وهنوا واستسلموا وفتحوا باب الحصن ، وملك المسلمون القلعة ، وحصلوا

منها من نفيس الجواهر ما لايحد ومن الدراهم تسعين ألف ألف درهم ، ومن الأوانى الذهبية والفضية الشئ الكثير ، وكان ذلك سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٧م.

وفى سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م قام السلطان محمود بغزوة أخرى إلى بلاد الهند فهاجم تارين ، واستولى عليها ، وحكم أصنامها ، ولما رأى صاحب تارين عدم استطاعته الوقوف فى وجه السلطان محمود عرض عليه الدخول فى طاعته وإرسال عدد من الفيلة ومال عظيم وألف رجل من عسكره إليه كل عام. فأجابه السلطان محمود إلى طلبه " وتتابعت القوافل بين ديار خراسان وبلاد الهند فى ضمان الأمان وجوار الحيطة والإحسان ".

بلغت فتوحات السلطان محمود فى بلاد حدا لم تبلغه رايات الإسلام المنصورة قبلا ، ودخل فى دين الله أفواج عديدة من أهل الهند ، ومع ذلك لم يتوقف السلطان محمود الغزنوى عن سياسته فى مواصلة ضم المزيد من البلاد الهندية فسار على رأس جيش كبير على ناردين ، فسُقط فى يد صاحبها ، لذلك أوى هو وجنده إلى جبل عال صعب المرتقى ضيق المسلك ، لعله يعصمهم من بأس الجند الغزنوى وكتب إلى قومه يدعوهم إلى قومه يدعوهم إلى الوقوف إلى جانبه ، فكثر جمعه ، وعظمت قوته ودخل مع المسلمين فى معركة دارت فيها الدائرة عليه ، وقتل من جنده كثير ، وغنم المسلمون أموالهم وداوبهم ، وفتح المسلمون ناردين فتحاً طرزوا به شعائر

الإسلام ، ووجدوا فى بيت كبير صنماً قيل: إنه بنى منذ أربعين ألـف سنة دمره السلطان محمود.

حرص السلطان محمود على الوقوف فى وجه أمراء البلـدان الهندية الـذى يحـاولون النيـل مـن سـلطانه فيهـا ، ففـى سـنة ٤٠٥هـ/١٠١٤م سار السلطان محمـود إلـى " ثـانير " لإخضـاع صاحبها الذى تمادى فى الكفر والطغيان والعناد للمسلمين ، فلقى فـى طريقه أودية وعرة المسالك وقفاراً فسيحة قليلة الماء قاسى جنده فـى قطعها مضفة بالغة وحمل الجند الغزنوى على أهل ثانير جملـة أدت إلى هزيمتهم ، وغنم المسلمون ما معهم من أموال وفيلة ، وعادوا إلى غزنة ظافرين. وترتب على هذا الانتصـار أن دان للمسـلمين إقلـيم البنجاب وأصبح الطريق إلى سهول الهند ممهداً أمامهم.

كان من أثر الانتصارات ارائعة التى أحرزها السلطان محمود فى بلاد الهند والغنائم التى حصل عليها جبشه المظفر ، أن كان جنده كثيرا ما يتركون وراءهم أوانى الفضة لثقلها أكفاء بما كانوا يحملـون من ذهب كثير وجواهر. والمعروف أن أوانى المعابد الهندية ، وأكثر الآنية التى تزخر بها دور الأغنياء لم تكن فى الغالب إل من الـذهب الخالص ، لذلك قدم على السلطان محمود من المتوعة عشرون ألـف مقاتل من بلاد ما رواء النهر وغيرها من البلاد ، فقوى بهم ، واعتزم غزو كشمير المجاورة لممتلكاته الهندية ، ولما بلغ بقواته بلإد الهنـد خشى أمراؤها بأسمه ، فارسلوا رسلا إليه يبذلون الطاعة والولاء له ،

ولما بلغ مشارف كشمير أتاه صاحبها وأسلم على يديه ، وواصل السلطان الغزنوى زحفه ، وفى طريقه استولى على الولايات الفسيحة والحصون المنيعة حتى بلغ حصن " هودب " فاستسلم صاحبه للسلطان محمود ، ودخل هو وقومه فى الإسلام ، وسار عنه السلطان الغزنوى إلى قلعة " كلجند " ، والطريق إليها غياض ملتفة لايمكن اجتيازها إلا بشق الأنفس ، وكان صاحبها كما يقول العتبى من أعيان الهند وشياطينهم ، فسير جيشه إلى أطراف تلك الغياض كى يمنع المسلمين من اجتيازها ، ولكن الجيش الغزنوى أحبط محاولة النيل منه ، وقد ألحق بالعدوة خسار فادحة ، وعمد " كليجند " إلى زوجته فقلتها ، ثم قتل نفسه بعدها ، وغنم المسلمون أمواله وملكوا حصونه ، وسار محمود إلى بيت الأصنام المشهورة بهذه البلاد به خمسة أصنام من الذهب الأحمر مرصعة بالجواهر وفيها من الذهب ستمائة ألف وتسعون ألفا وثلاثمائة مثقال فأخذ السلطان الغزنوى كل ذلك وأحرق الباقى.

لم يكتف السلطان محمود بما حققه من انتصارات ، إنما واصل سيره إلى قنوج ، فغادرها راجيال ــ صاحبها ــ فاستولى عليها محمود وعلى قلاعها وأعمالها ، ثم سار إلى قلعة البراهمة ، ودار قتال بين الغزنويين وبين أهلها ، دارت فيه الدائرة عل الهنود ، ولم ينج منهم إلا الشريد ، ثم اتجه إلى قلعة " آسى " ، ولما لم يستطع " جندبال " مواجهة القوات الغزنوية ، لاذ بالفرار ، وعلى ذلك امتلك

محمود الغزنوى حصنه ، ثم صار إلى قلعة " شروة " ، ولم يستطع صاحبها أيضا الثبات أمام القوات الغزنوية ، وقتل أكثر جنده ، وغنم المسلمون ما معه من أموال وخيل ، وعاد محمود بن سبكتكين إلى غزنة ظافرا ، وأنفق ما حصل عليه من هذه الغزوة من مال وفير فى تشييد مسجد كبير فى غزنة.

على أن ملوك الهند لم يستسلموا لما لحقهم من هزيمة ، وسقوط بلادهم لبلدة تلو الأخرى فى أيدى الغزنويين ، بل عولوا على التخلص من نفوذ وسيطرة غزنة ، وقد تزعم هذه الحركة الاستقلالية "بيدا" ــ ملك كجوراهة ــ والتف حوله ملوك الهند ، غير أن راجيال فاجأ حلفاءه وخرج عليهم ، وعاد إلى الولاء للدولة الغزنوية فباغته ملك كجوراهة وقتله ، فازدادت قوته ورأى فيه ملوك الهند خير من يقودهم فى معركة تحرير بلادهم من سيطرة الغزنويين ، لكن السلطان محمود ابن سبكتكين لم يقف مكتوف اليدين إزاء هذا الخطر الداهم الذى يهدد دولته فى الهند ، بل سار سنة ٤٠٩هـ/١٠١٨م على رأس جيش كبير إلى بلاد الهند ، عبر نهر الكنج ، والتقى بالقوات المتحالفة. لقد كان لظهور السلطان محمود فى الميدان أثر كبير على أعدائه ، فأخذهم الهلع والغزع ، ولم تغن عنهم كثرتهم شيئا ، إذ انقضت عليهم القوات الغزنوية ، وألحقوا بهم الهزيمة ، ولما رأى ملوك الهند عدم جدوى التصدى للسلطان الغزنوى ، أرسلوا رسلهم إليه ، يبذلون الطاعة والإتاوة ، تقبل منهم محمود الصلح ، وسار فى

أثر بيدا ، والتقى به فى موقعة كبيرة نصر الله فيها المسلمين على أعدائهم ، وغنموا أموالهم وسلاحهم واقتفوا فلول المنهزمين ، بواغتوهم فى الغياض والآجام ، وأكثروا فيهم القتل والأسر.

تتابعت غزوات وانتصارات السلطان محمود فى بلاد الهند ، واتسعت أملاك الدولة الغزنوية فى هذه البلاد ، وعظمت هيبته فى نفوس أهلها ، وتوقفوا عن مقاومة النفوذ الغزنوى ، على أن معظم غزوات السلطان محمود حدثت سنة ٤١٦هـ/١٠٢٥م أذ فتح عدة حصون ومدن واستولى على الصنم المعروف بسومنات ، وهو أعظم أصنامهم يحجون إليه كل ليلة خسوف ، ويعتقد الهنود أن الأرواح إذا فارقت الأحياء اجتمعت فيه ، فينشئها فيمن يشاء ، وكانوا يحملون إليه نفائس الجواهر ، ويعطون سدنته المال الوفير ، وله وقف يزيد على عشرة آلاف قرية ، يفد إليه البراهمة لعبادته ، وإقامة الحفلات الدينية على بابه ، ويعتقد الهنود أن السلطان محمود فى غزواته كلما حطم صنما ، يعتقدون أن سومنات غير راض عنهم ولو أنه راض لأهلك من قصده بسوء ، ويعتقدون أن هذا الصنم يحيى ويميت ،وأنه إذا شاء أبرأ من جميع العلل ، ومن لم يصادف من أهل الهند انتعاشا احتج بالذنب وقال: إنه لم يخلص له الطاعة ، ولم يستحق منه الإجابة ، ولا يوجد فى بلاد الهند على تباعد أقطارها وتفاوت أديانها ملك ولا سوقة إلا قدم لهذا الصنم ما عز عليه من أموال وذخائر.

لم يهاجم محمود الغزنوى سومنات لتدمير صنم أو الاستيلاء على مافيه من أموال كما يدعى بعض المؤرخين ، ولكن لأن سومنات كان أخطر مراكز المقاومة والعدوان الهندوكى فى وجه الزحف الإسلامى ، ومهما يكن من أمر فلقد سار السلطان محمود على رأس جيش كبير سنة ٤١٦هـ/١٠٢٥م فاقتحم صحراء جرداء قاحلة متوامية الأطراف هى صحراء " الثأر " ــ أكبر صحراوات الهند ــ فلما اجتاز هذه الصحراء ، رأى فى طرفها حصونا مشحونة بالرجال ففتحها ودمر أصنامها ، وحصل منها على الماء والميرة اللازمتين لرجاله ، وسار إلى " أنهلوارة " ففر صاحبها منها ، واحتمى بحصن له ، فاستولى محمود على المدينة وسار إلى سومنات ودمر فى طريقه عددا من الحصون فيها كثير من الأوثان فيما يبدو ــ حجابا ونقباء لسومنات ــ حسب اعتقاد الهنود ــ فقاتل من بها ، وفتحها ، وحطم أصنامها وسار إلى سومنات ، وقضى على كل مقاومة اعترضت طريق الوصول إليه ، ولما بلغ حصن سومنات قاتل من به ، وأسروعوا إلى صنمهم سومنات ليقاتلو عنه ، وفعلا قاتلوا على بابه بعنف وضراوة ، وتضرع الهنود إلى صنمهم لعله ينصرهم ، وحمل الجند الغزنوى عليهم حملة أخذت الكثير منهم ، وحطم السلطان محمود الصنم سومنات وأحرق بعضه ، وأخذ بعضه إلى غزنة ، وجعله عتبة مسد غزنة الجامع.

غير أن بعض ملوك الهند قد أغضبهم ماحاق بمعبودهم الأكبر فأعدوا العدة لمقاومة السلطان محمود ، فخرج صاحب " أنهلوارة " وقصد قلعة " كنزهة " ـ قرب سومنات ـ ولما نمى إلى علمه أن السلطان محمود قصده ، فر على بلاده ، ما قصد السلطان الغزنوى المنصورة وكان صاحبها قد ارتد عن الإسلام ، وأعد العدة لمحاربة السلطان محمود ـ فسار السلطان الغزنوى إلى المنصورة ، واشتبك مع صاحبها وهزمه ، وأخضعه لنفوذه ، ثم سار على بهاطبة ، فأطاعه أهلها ودانوا له بالولاء ، وعاد إلى غزنه سنة ٤١٧هـ/١٠٢٦م.

أعجب محمود بجمال إقليم " جوجرات " ، وإرتاح إلى مناخه ، حتى أنه فكر فى الإقامة فيه ، واسخلاف ابنه مسعود على غزنة لولا اعتراض قادته ، ومهما يكن من أمر فإنه يمكن اعتبار محمود الغزنوى سلطانا هنديا خالصا ، فتح إقليم البنجاب ، ونشر الإسلام فى ربوع الهند ، وفتح طريقا سلكه بعده كثيرون. وقنع خلفاؤه بعد أن فقدوا أملاكهم فى فارس وأفغانستان بالاستقرار فى إقليم البنجاب ولم تكن غاية محمود من غزواته فى بلاد الهند جمع الأموال ـ كما يدعى بعض المؤرخين ـ حقيقة أن محمود غنم الكثير من غنم الكثير من غزواته ، لكن هدفه كان أولا وقبل كل شئ نشر الإسلام ، وتحطيم الأصنام ، بدليل أنه رفض ما عرضه عليه الهنادكة من افتداء صنم السومنات بالأموال الطائلة ، وقال: إنه يؤثر أن يصفه من يأتى بعده

بأنه محطم الأصنام على أن يقولوا عنه بأنه بائع أوثان وعلى ذلك يمكن القول بكل ثقة بأن محمود الغزنوى كان غازيا مجاهدا ، أخذ على عاتقه نشر الإسلام وبلغ فى فتوحه " إلى حيث لم تبلغه فى الإسلام راية ، ولم تقل به قط سورة ولا آية ، فدحض عنها أجناس الشرك وبنى بها مساجد وجوامع ، وأقام بدلا من بيوت الأصنام مساجد الإسلام ، ومن مشاهد البهتان معاهد التوحيد والإيمان ".

واصل مسعود بن محمود الغزنوى سياسة أبيه فى المحافظة على أملاك الدولة الغزنوية فى بلاد الهند ، ضم المزيد من الأراضى الهندية إلى الدولة الغزنوية ، وأقر أحمد بن ينالتكين على بلاد الهند الغزنوية ، وقد قام هذا الوالى بالاستيلاء على " منارس " من ولاية الكنج التى لم تبلغها جيوش الإسلام قبلا.

قوى شأن أحمد بن بنالتكين فى بلاد الهند ، وحدثته نفسه بالخروج على الدولة الغزنوية ، لكن السلطان مسعود تصدى له وتخلص منه.

وعلى الرغم من ان السلاجقة كانوا يشكلون خطرا جسيما على الدولة الغزنوية فىعهد السطان مسعود إلا أن هذا السلطان لم يتقاعس عن مواصلة الفتوح فى بلاد الهند ولم يستمع إلى تحذير رجال دولته بالبقاء فى غزنة حتى يكون قريبا من السلاجقة ، فسار إلى بلاد الهند سنة ٤٢٩هـ ١٠٣٧م لتحقيق حلمه القديم وهو الاستيلاء على قلعة "هانس" وكانت تسمى " بالقلعة العذراء " ، لأن أحدا لم يستطع فتحها

من قبل. واستولى على هذا الحصن الهندوكي الكبير ثم زحف إلى "منارس" عند الشمال الغربي من دهلي ، ففر أهلها إلى الغابات المجاورة مما يسر للسلطان مسعود أمر الاستيلاء على هذه البلدة.

على أن جهود السلطان مسعود في بلاد الهند يسرت للسلاجقة تحقيق أطماعهم في إقليم خراسان ، واستولوا على بعض بلدان خراسان ، وتطور الأمر في الدولة الغزنوية إلى أسوإ من ذلك ، فقد هزم السلاجقة السلطان مسعود في داندانقان سنة ٤٣٢هـ ١٠٤٠م.

ولما رأى السلطان الغزنوي ضعف قوته ، قرر الرحيل إلى الهند حتى يجمع الجموع ويعود إلى غزو السلاجقة ، واسترداد خراسان ، لكنه قتل في الطريق إلى الهند ، فخلفه ابنه مودود ، وسار على سياسة أبيه في المحافظة على أملاك الدولة الغزنوية في الهند ، فتصدى لأخيه مجدود الذي ولي إقليم البنجاب منذ عهد أبيه ، وكان من أثر ثورة مجدود أن تشجع بعض أمراء الهنادكة وتحالفوا ، وأعلنوا الاستقلال عن الدولة الغزنوية ، وزحفوا إلى لاهور ، لكن الجند الغزنوي ردهم على أعقابهم ، وعادت إلى المسلمين هيبتهم في شمال شبه القارة الهندية.

ولما ولي السلطان إبراهيم بن مسعود الحكم. أعاد إلى الدولة الغزنوية هيبتها ونظم أمورها ، وأقر الأمور في هندوستان ، ولما توفي امتد النفوذ السلجوقي إلى الدولة الغزنوية ، فواتت الفرصة الأمراء الهنود لمحاولة الانفصال عن الدولة الغزنوية لكن السلطان

بهرام شاه أدحض محاولتهم ، وقضى على الفتن التى حدثت فى البنجاب والملتان ، ورد عصبة الأمراء الهنادكة عن لاهور ، وكانت الآمال قد بعثت فى نفوسهم من جديد لطرد الغزاة من بلادهم ، وهكذا استطاع بهرام شاه أن يحافظ على النفوذ الغزنوى فى بلاد الهند ، ويثبت أقدام الدولة الغزنوية فيها.

ولما ضعفت الدولة الغزنوية لجأ سلاطينها إلى ولاياتهم فى بلاد الهند للاعتصام بها أو الاستعانة بأهلها لرد الغزاة الطامعين فى غزنة ــ حاضرة ملكهم ــ فلما ولى السلطنة " خسروشاه " لجأ إلى الهند على أثر اقتحام قبائل التركمان لحاضرة دولته ، كما انتهز الغور فرصة الفوضى التى عمت الدولة الغزنوية المتداعية ، فانقضوا على غزنة وأعملوا فيها الخراب والدمار. وقضى آخر ملوك الدولة الغزنوية أيامه الباقية فى لاهور وتفاقم خطر الغور ، واشتد ساعدهم فاستعاد زعيمهم غزنة من التركمان ، وظلوا يطاردون السلطان الغزنوى فى بلاد الهند حتى قبضوا عليه ، وبذلك انتهت الدولة الغزنوية التى يرجع إليها الفضل فى توطيد أقدام المسلمين فى أرض الهند ، ونشر الإسلام فى تلك الديار.

والواقع أن حملات الغزنويين فى بلاد الهند واتخاذهم لاهور مقراً لهم يعتبر بدء حكم المسلمين الحقيقى فى هذه البلاد ، ذلك أن ملوك الغور الذين ورثوا الدولة الغزنوية تولوا سلطنة دهلى ، ونشروا نفوذ المسلمين فى أرجاء بلاد الهند الشمالية قاطبة.

نتائج الفتوحات الغزنوية فى بلاد الهند

لاشك أن الإسلام انتشر بين الهنود نتيجة غزوات سلاطين بنى سبكتكين ودخل الهنود فى الإسلام عن طوع واختيار. وحقيقة ساهم التجار المسلمون بدور كبير قبل أن يعمل الغزنويون فى بلاد الهند على نشر الإسلام ، وبنو مساجد فى بعض مدن الهند ، كما أن حكومة الملتان الإسلامية كان لها السيادة فى بلاد السند منذ الفتح العربى فى عهد بنى أمية ، وكان لها نصيب فى نشر الإسلام فى هذه البلاد. ولكن ينبغى أن نؤكد أن السلاطين الغزنويين وخصوصا محمود بن سبكتكين كان لهم تأثير كبير على الهنادكة حتى أن جموعاً غفيرة منهم أقبلوا على الهنادكة حتى أن جموعا غفيرة منهم أقبلوا على اعتناق الإسلام.

انتشر الإسلام فى بلاد الهند نتيجة لانتصارات راياته فيها ففى سنة ٤١٠هـ أحرز السلطان محمود انتصارات رائعة على " هرداتا " ـ أحد ملوك الهند ـ فوافق على اعتناق الاسلام. وتقدم إلى السلطان الغزنوى مع عشرة آلاف رجل ، وأعلنوا رغبتهم فى التحول إلى الإسلام ، ونبذ عبادة الأصنام ، ومما لاشك فيه أن بعض الهنود تركوا عبادة الأوثان واعتنقوا الإسلام تقربا لحكامهم الجدد.

ولقى الإسلام ترحيبا كبيرا من الطوائف الفقيرة الذين كان حكامهم الآريون ينبذونهم ويحتقرونهم وينقصون من شأنهم ، فأعلى الإسلام ـ دين المساواة ـ منزلتهم ورفع من شأنهم.

كذلك انتشر الإسلام بين الهنود عن طريق الفقهاء والوعاظ ودروسهم والعلماء والمتصوفة ورحلاتهم ، ومن أبرز وأشهر هؤلاء الشيخ إسماعيل وكان من أهل بخارى ، وعرف بثقافته الدينية والدنيوية. وقدم إلى لاهور سنة ٣٩٦هـ ــ ١٠٠٥م وظل يدعو الناس إلى الإسلام ويعلمهم شرائعه ، وقد وفد عليه كثير من أهل الهند للاستماع إلى مواعظه ، وسرعان ما هدى الله الكثير من الناس إلى الإسلام على يديه.

ولما كان الغزنويون سنيين متشددين ، فقد اعتنق الهنود الإسلام على المذهب السنى ، وحذوا حذو غزاتهم فى تعصبهم وتزمتهم. وكذلك عرف أهل الهند اللغة الفارسية عن الغزنويين ، والمعروف أن هذه اللغة نمت وازدهرت فى بلاط سبكتكين فى غزنه ، كذلك وجد المتصوفون من الفرس والترك فى بلاد الهند خير موئل يلجئون إليه من بلادهم المضطربة ، ولقيت الصوفية ترحيبا من أهل الهند الذين يميلون إليها بطبيعتهم. كذلك أثر الترك فى الهنود ، والهنود فى الترك ، وأخذ كل منهما عن الآخر ، إذ نقل الترك إلى الهند الثقافة الفارسية ومظاهر الحياة التركية والفارسية ، وبهذا انتشرت فى المجتمع الإسلامى بالهند اللغة الفارسية ــ لغة الثقافة فى ذلك العصر ــ واللغة الأوردية التى هى خليط من الهندية والعربية والفارسية والتركية ، ولم تنتشر اللغة وبالتالى لم تزدهر الثقافة العربية بالهند ازدهارها فى الأقاليم والدول الإسلامية الآخرى،

وساعد على هذا أن بعض الشيوخ والعلماء الذين وفدوا على الهند وكانوا من علماء ما وراء النهر ، وهؤلاء كانوا أتباع مذهب ابى حنيفة يعتمدون على كتب فقهاء هذا المذهب ، كما كانوا شغوفين بعلوم اليونان القديمة والثقافة الفرسية ، وبهذا اصطبغت الثقافة الإسلامية بالهند بهذه الصفات الثلاث ، ولم تقم على أسس قوية من الثقافة العربية ، ونشأ فريق من المولدين يمثل حضارة إسلامية ، مزيجا من الحضارات التركية والفارسية والهندية ، وينعم بالتسامح الإسلامى ، ينبذ التفرقة التى كانت من أبرز خصائص المجتمع الهندى من قبل ، وظهر مفكرون يهاجمون الديانة البرهمية ، واحتم

الهنادكة عقائد المسلمين ، كما أن المسلمين استفادوا من فلسفة الهند ، وتقدم علمائهم فى علم الفلك.

ولقد تأثرت الحياة الاجتماعية بالترك ، وتجلى ذلك فى انتشار الحجاب بين النساء ، وتخلص المنبوذون من قيود النظام الطبقى وساهموا بحرية فى ميادين الحياة المختلفة من سياسية واقتصادية ، واقتبس الهنود عن المسلمين أنظمتهم الإدارية والمالية والقضائية ، وشهد الأدب الفارسى ازدهارا زاد منه رحيل أدباء فارس إلى الهند ، وأصبحت الفارسية لغة التأليف والكتابة للمسلمين وغير المسلمين ، واستفاد المسلمون من السنسكريتية ، وترجموا عنها إلى الفارسية كما ترجموا إليها ، وفى ميدان الفن استفاد المسلمون من الهنود والهنود من المسلمين ، وتجلى ذلك فى المساجد والعابد.

تجمعت عوامل متعددة أدت إلى ضعف الدولة الغزنوية وانهيارها فى آخر الأمر، ومن أبرز هذه العوامل المحاولات المتكررة التى بذلها ولاة الأقاليم فى الدولة الغزنوية للاستقلال بالولايات التى يحكمونها ، ولم تكن هذه الركات الانفصالية هى عوامل ضعف الدولة الغزنوية فقط ، بل إن أمراء آل سبكتكين أيضا قاموا بدور كبير فى تدهور شأن بيتهم العريق ، فقد حراب بعضهم بعضا حول الوصول إلى السيادة والحكم ، وحاول بعضهم الاستقلال ببعض أقاليم الدولة الغزنوية بل استعان بعضهم على بعض بأعداء دولتهم المتربصين للنيل منها.

ومن أكبر العوامل التى عجلت بانهيار الدولة الغزنوية ظهور الأتراك السلاجقة وارتفاع شأنهم وسعيهم إلى توسيع ممتلكاتهم على حساب الدولة الغزنوية ، كما أن الغور خرجوا من عزلتهم الجبلية ، وعملوا على مد نفوذهم فيما وراء حصونهم ، وكان خير ميدان لتفيذ سياستهم بلدان الدولة الغزنوية التى أخذت عوامل الضعف والانحلال تنال منها حتى أنهكت قواها ، ولم تعد تستطيع مقاومة أعدائها الأشداء.

واصل الغور سياستهم التوسعية على حساب الدولة الغزنوية المتداعية حتى استولوا على غزنة ، وسقطت لاهور آخر معاقل الغزنويين سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م فى أيدى الغور وبسقوطها زالت الدولة الغزنوية وانتهت أيامها.

٢ ـ الغوريون:

تقع بلاد الغور فى أفغانستان الحالية بين هراة وغزنة ، وقامت دولة مستقلة فى هذه المنطقة تتخذ من فيروزكوه عاصمة لها ، وكان الغور لايدينون بالإسلام حتى غزاهم السلطان الغزنوى محمود بن سبكتكين سنة ٤٠١هـ/١٠١٠م.

شكل الغور خطرا جسيما على الدولة الغزنوية فى عهد السلطان محمود بن سبتكتكين ، ذلك أنهم دأبوا على شن الغارات على رعايا هذا السلطان ، واتخذوا من وعورة بلادهم وصعوبة مسالكها معصما يقيهم بأسه.

لما كثرت غارات الغور على بلدان الدولة الغزنوية أنف السلطان محمود أن يكون مثل أولئك المفسدين جيرانه ، وهم على هذا الحال من الكفر والفسوق والعصيان ، وعول على إخضاعهم ، وأعد جيشا كبيرا سار على رأسه إلى بلاد الغور سنة ٤٠١هـ/١٠١٠م والتقى بجحافلهم فى معركة عنيفة ، مزقهم فيها كل ممزق ، وأغلق الطرق المؤدية إلى بلادهم ، بينما سار الجيش الغزنوى داخل بلاد الغور ، والتقى بأميرهم فى مدينة " آهنكران " ، وحدث اشتباك عنيف بين الفريقين تفوق فيه جند الغور ، لذلك أمر محمود بن سبكتكين جنده أن يولوا الأدبار على سبيل الاستدراج ، وانسحب الجند الغزنوى ، فظن الغور أن ذلك هزيمة ، وساروا فى أثر جيش السلطان محمود حتى ابتعدوا عن بلادهم ، فواتت الفرصة الجند الغزنوى للانقضاض على الغور ، وفعلا باغتوهم ، ووضعوا السيوف فيهم ، وقتلوا كثيرا منهم ، وشتتوا شملهم ، ووقع أمير الغور أسيرا فى ايدى الغزنويين ، وامتلك السلطان محمود قلاع الغور وحصونهم. ومن ثم دخلت بلاد الغور فى حوزة سلطان غزنة .. ولما كان الغور حتى ذلك الحين على غير دين الإسلام ، فقد حرص محمود بن سبكتكين على نشر الإسلام بينهم ، فاستخلف عليهم الفقهاء يعلمونهم الدين وشرائعه.

رفض أمير الغور أن يقع أسرا فى أيدى غريمه ، لذلك آثر الانتحار ، وأبقى السلطان محمود حكم الغور فى أيدى بيتهم الحاكم ،

ولكن فى ظل السيادة الغزنوية ، وارتفع شأن أمراء الغور فى الدولة الغزنوية حتى أنهم ارتبطوا بصلة النسب ببيت سبكتكين ، لكنهم رغم ذلك تطلعوا إلى الاستقلال عن غزنة ، وأخـذوا يتحينـون الفـرص المناسبة لتحقيق سياستهم ، وفعلا تطورت الأمور فى صالحهم ، ذلك أن الدولة الغزنوية انشغلت فى دفع خطر السلاجقة الـزاحفين علـى إقليم خراسان فأعد الغور عدتهم للإسـتقلال ، وتحقيـق أطمـاعهم التوسعية على حساب الدولة الغزنوية. ولما أنهك السـلاجقة قـوى سلطان غزنة ، واستولوا على الكثير من ممتلكاته ، سار محمد بـن الحسين ـــ أمير الغور ـــ إلى غزنة بغيـة الاسـتيلاء عليهـا سـنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م لكن السلطان الغزنوى بهرام شاه أحبط محاولتـه وهزم نده ، وقبض عليه وقتله.

استنكر الغور قتل السلطان الغزنوى لأميرهم ، وعولوا على الانتقام من بهرام شاه ، وأعد سورى بن الحسين ـــ أميـر الغـور الجديد ـــ العدة لذلك ، فقوى من أمر جنده ، وسار على رأسهم إلـى غزنة بقصد الاستيلاء عليها ، والأخذ بثار أخيه ، ولما أقترب سورى من غزنة بجحافله ، رأى بهرام شاه أنه لايستطيع التصـدى للغـور الأقوياء ، فغادر حاضرة دولته ، وذهب إلى الهند الغزنوية ليجمـع منها جيشا قويا ، ويعود إلى غزنة لتحريرها من قبضة الغور.

أما الغور بقيادة سورى ، فقد استولوا على غزنة ، لكن جنـد غزنة وأهلها ساءهم احتلال الور لمدينتهم ، وانتزاعهم الحكم من بيت

سبكتكين ، وظلوا يتحينون الفرص للتخلص من الغـور ، وواتــتهم الفرصة حينما عاد السلطان بهرام شاه إلى غزنة على رأس جــيش كبير لاسترداد حاضرة ملكه من الغاصبين ، ووقف جند غزنة وأهلها إلى جانب بهرام شاه فى الاشتباك الذى حدث بينه وبين أمير الغــور الذى اغتصب أعز قطعة من مملكته ، وقد انتهــى القتــال بهزيمــة سورى ، وقبض بهرام شاه عليه وقتله وولى جنده الأدبار إلى بلادهم لا يلوون على شئ وعاد بهرام شاه إلى حاضرة ملكه ظافرا منتصرا سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م وأبهج أهلها بمقدمه ، وبقهر الغزاة الطامعين.

لما قتل سورى خلفه علاء الدين الحسين بن الحسين فى حكم الغور ولم يتغاض عن قتل أخيه سورى وهزيمة جنده ، وطردهم من غزنة ، بل عول على الانتقام من السلطان الغزنوى وأهــل غزنــة لتنكيلهم بجند الغور وأميرهم سورى ، فسار على رأس جيش كبيــر إلى غزنة ، واستولى عليها ، وولى السلطان الغزنوى بهــرام شــاه هاربا على بعض البلاد المجاورة ليستجمع قوته ، ويعود إلى حاضر دولته. أما علاء الدين الحسين بن الحسين ، فقد أقــر الأمــور فــى غزنــة ، وعاد إلى بلاده بعد أن استخلف على غزنة أخــاه ســيف الدين ، وأمره بإقامة الخطبة له فى هذه المدينة ، كما طلب منــه أن يسير فى الناس سيرة حسنة ، ويحكم بالعدل. وفعلا نفذ سيف الــدين تعليمات أخيه ، فأحسن إلى أهل غزنة وأجزل على أعيانها الصلات

النفيسة ، وخلع عليهم خلعا سنية حتى تطيب نفوسهم ويخلصوا للعهد الجديد.

على أن هذه السياسة لم تؤت ثمارها ، إذ كان أهل غزنة مايزالون على ولائهم وإخلاصهم لبيت سبكتكين ، ويعارضون حكم الغور لهم ، وأعدوا العدة للتخلص منهم ، فلما كان شتاء سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢ وانقطع الطريق بين غزنة وبلاد الغور بعد أن غطاه الثلج ، أمن أهل غزنة عدم وصول النجدات العسكرية من بلاد الغور إلى بلدهم ، ونادوا بشعار بهرام شاه ، وأرسلوا إليه يطلبون منه العودة إلى حاضرة ملكه ، وتحريرهم من نير الغور المغتصبين للحكم من أصحابه الشرعيين ، فاستجاب بهرام شاه لنداء أهل غزنة ، وسار على رأس جيش كبير إلى غزنة ، ولما اقترب منها قبض أهل غزنة على سيف الدين ـ الحاكم الغوري ـ ومهدوا لبهرام شاه أمر دخول غزنة ، فدخلها ونكل بالغور ، وبذلك استرد بهرام شاه غزنة للمرة الثانية. على أن بهرام شاه لم يلبث أن توفى وولى بعده ابنه خسروشاه وكان علاء الدين الحسين بن الحسين ـ أمير الغور ـ قد أعد العدة للسير إلى غزنة واستعادتها والانتقام من أهلها الذين قتلوا رجاله ، فلما علم خسروشاه بزحف أمير الغور على غزنة أسقط فى يده وخاف العاقبة وغادر غزنة وقصد لاهور واستقر بها ونقل إليها حكومته وجعلها لدولته بدلا من غزنة. أما أمير الغور فقد استرد عزنة سنة ٥٥٠هـ/١١٥٥م ولم ينس هذا الأمير موقف

أهل غزنة العدائى من قومه فألحق بهم ويلاته ، وأباحها لجنده ثلاثة أيام كاملة لقى خلالها أهلها سوء العذاب ، ولم يكتف بذلك بل دمر حاضره بنى سبكتكين بما فى ذلك المنشآت التى أنشأها سلاطين غزنة العظام حتى سماه أهل غزنة " محرق العالم " على أنه أصلح أمور غزنة بعد أن أسرف فى الانتقام من أهلها ورأب الصدع ، ونقل الكثير من أهل غزنة ممن يخشى بأسهم إلى بلاده وأسكنهم بعض قلاعها ، وبذلك كفل بسياسته هذة أضعاف مقاومة سكان غزنة لحكم الغور وبقاءها فى حوزته.

قويت دولة الغور في عهد أميرها علاء الدين الحسين بن الحسين وتطلع الى توسيع رقعة دولته فسار على رأس جيش كبير إلى خراسان وعاث جنده فسادا وتخريبا فى أعمال هراة ـ وسار الى بلخ وحاصرها وضيق عليها الحصار حتى استسلمت له وضمها الى حوزته ، على أنه لم يحظ بحكمها طويلا فقد سار اليه السلطان السلجقى "سنجر" ليستعيد بلخ من الغور ويمنعهم من التعرض لخراسان والتقى السلطان السلجوقي بالأمير الغورى فى قتال عنيف هزم فيه الغور ووقع أميرهم أسيرا فى أيدى السلاجقة ، على أن السلطان " سنجر " لم يلبث أن عفا عنه وخلع عليه وأعاده إلى "فيروزكوه".

واصل أمير الغور سياسته الرامية إلى ضم مزيد من البلاد إلى دولته على الرغم من الهزيمة التى لحقت به ، ونظم إدارة دولته

واستعمل العمال والأمراء على البلاد ، وكان ابنا أخيه وهما غياث الدين محمد بن سام وشهاب الدين محمد فيمن استعمل على بلد من بلاد الغور اسمه " سنجه ". فما استعملها أحسنا السيرة فى عملهما وعدلا بين الناس وبذلا الأموال فمال الناس إليهما وانتشر ذكرهما فسعى بهما من يحسدهما إلى عمهما علاء الدين وقال إنهما يريدان الوثوب بك وقتلك والاستيلاء على الملك ، فأرسل عمهما يستدعيهما إليه فامتنعا فسير إليهما جيشا لإخضاعها والتقى الأخوان بجيش علاء الدين وأروقعا به الهزيمة ، عندئذ جاهرا بعصيان عمهما وقطعا خطبته فتوجه إليهما علاء الدين وحدث اشتباك بين الفريقين انهزم فيه علاء الدين ووقع أسيرا فى أيدى ابنى أخيه وعقد صلح بين الأمير الغورى والأخوين بمقتضاه تزوج غياث الدين من ابنة عمه علاء الدين وجعله ولى عهده.

لما توفى علاء الدين الحسين بن الحسين سنة ٥٥٦ هـ / ١١٦٠م خلفه غياث الدين محمد ، وأقيمت الخطبة له فى غزنة ، لكن الغور لم يلبثوا أن فقدوا غزنة ، ذلك أن الغز طمعوا فيها بعد موت علاء الدين الحسين ، واستولوا عليها ، وطردوا الغور منها ، وبقيت غزنة فى أيديهم خمس عشرة سنة ساموا خلالها أهلها سوء العذاب كعادتهم فى كل بلد ملكوه.

وفى تلك الفترة كان غياث الدين محمد — أمير الغور — يعد العدة ، ويجمع الجيوش لاسترداد غزنة من مغتصبيها الغز.

سار غياث الدين إلى غزنة فى صحبة أخيه شهاب الــدين ، واشتبك الغور مع الغز فى معركة ألحقوا بهم الهزيمة ، وطردهم من غزنة ، واستردوها ، وأحسن غياث الدين إلى أهلها.

لم يكتف غياث الدين محمد أمير الغور ــ بإمتلاك غزنـــة ، بل عقد العزم على امتلاك البقية الباقية من الدولة الغزنوية لتوســيع دولته الناشئة ، واستئصال شأفة آل سبكتكين حتى يضمن لدولتــه ــ التى قامت على أنقاض الدولة الغزنويــة ــ الأمــن والاســتقرار ، فأرسل جيشا استولى على بلدان الغزنيين غير الهندية ، وضمها إلى دولته. ثم عبر شهاب الدين الغورى نهر السند معتزما الاستيلاء على ممتلكات الغزنويين فى الهند واتجه إلى لاهور ــ قاعدة آخر سلاطين

سبكتكين – وفى طريقه إليها استولى على ممتلكات الغزنويين الهندية ثم حاصر لاهور – آخر معاقل الغزنويين – فى جمع عظيم وحشد كبير. حاصرها وضيق عليها الحصار ، وارسل شهاب الدين إلى خسروشاه وأهل لاهور يعرض عليها الأمان على أنفسهم وأهليهم وأموالهم على أن ييسروا أمر استيلائه على لاهور ، وحذرهم عاقبة التعرض لقواته ، لكن خسروشاه أهل لاهور أصورا على مقاومة الغور ، وبذلوا فى سبيل ذلك الأنفس والأموال ، غير أن مقاومتهم للغور أعتراها الضعف.

وبذلك قضى السلطان ألتمش على خصومه منافسيه ، واكتسب حكمة الصفة الشرعية حينما أرسل إليه الخليفة العباسى المستنصر بالله تقليدا بحكم دولة الإسلام فى الهند سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨م ، ولقبه بـ " ناصر أمير المؤمنين ، حامى الإيمان " وقدم السلطان الخليفة فى الخطبة والسكة على نفسه ، وأبرز كذلك الألقاب التى منحها له الخليفة على العملة الفضية العريضة التى سكها ، ومما لاشك فيه أن اعتراف الخليفة بسلطان دهلى أكسبه موخبة وتقديراً واحترام رعاياه المسلمين.

وكان لتأييد الخليفة للسلطان ألتمش أثر كبير فى تقوية دولته فخرج يقضى على ماتبقى من خصومه ، ولم يكن هؤلاء الخصوم قادة من الترك ، بل كانوا بعض راجات الهند الذين انتهزوا فرصة انشغال السلطان بمشاكلة الداخلية ، واستطاعوا الاستقلال ببلدانهم ،

فسار إليهم ألتمش وساعد " رانثمـــار " وكـــذلك اســـترداد مانـــدوار Maddawor فى جبال السوالك. وفى سنة ٦٢٩هـ/١٢٣١ هـــاجم جواليار Guwalior وحاصر قلعتها شهرا حتى سيطر عليها ، ثـــم سار إلى ملاوى واستردها كذلك ، واســـتولى علـــى بهلســـا Bhlsa وآجان Ajjan وعاد إلى الإشتباك مع الخلجيين الذى حـــاولوا مـــن جديد الاستقلال بالبنغال وتقوية نفوذهم فيها وخصوصـــا بعـــد وفـــاة ناصر الدين محمد شاه ــ والى البنغال من قبل أبيه سلطان دهلى.

توفى ألتمش سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٥م بعـــد أن وطـــد نفـــوذه وسلطان دولة المماليك فى الهند ، وخاض فى ســـبيل ذلـــك حروبـــا كثيرة ــ كما ذكرنا ــ ضد خصومه الذين حاولوا انتزاع بعض بلدان دولته ، ولذلك يمكن القول بأن ألتمش هو المؤسس الحقيقى لســـلطنة دهلى المملوكية.

ولم تمنع الغزوات المتكرره التى خاضها ألتمش ضد أعدائـــه من إصلاح أحوال بلاده ، فأعاد تنظيم الجهاز الإدارة ، وهو من هذه الزاوية يعتبر رجل دولة من الطـــراز الأول ، وقـــد كـــان الجهـــاز الإدارى من قبله ينقصه التنظـــيم. وحـــدد لكـــل إدارة أو مصـــلحة أختصاصها ، ورسم لها الخطة التى تسير عليهـــا. وبـــذلك ســـارت الأعمال الحكومية فى عهده بدقة. كذلك حرص السطان ألتمش علـــى إقرار العدالة فى بلاده ، ورفع الظلم عن رعاياه وباشر بنفسه أمـــر إقرار العدل ودفع الظلم. لتحقيق ذلك أمر كل صاحب مظلمة بلـــبس

ثوبٌ مصبوغ ، يميزه عن لباس أهل الهند الأبيض ، فكان متى جلس للناس أو ركب ، ورأى أحدا رتدى ثوبا مصبوغا ، استدعاء إليـــه ، ونظر فى شكواه ورفع عنه مظلمته ، لكى يتيح الفرصة لأصـــحاب المظالم برفع شكاواهم إليه ، وأثناء وجوده فى داخل قصـــره ، أقـــام على باب قصره تماثيل لأسدين موضوعين علـــى بـــرجين ، وفـــى أعناقهما سسلتان من الحديد فيهما جرس كبيـــر ، يدقـــه المـــتظلم ، وحينئذ يسمح السلطان بمثوله بين يديه ، ويستمع غليه وينظـــر فـــى أمره.

وعنى ألتمش بتشجيع العلوم والآداب وأنفق أموالا كثيرة فـــى كتابة نسخ كثيرة من القرآن الكريم حتى تكون فـــى متنـــاول النـــاس لقراءتها والاستفادة منها ، وأسس العديد من المدارس وزين بلاطـــه بالشعراء والعلماء ، وجعل عاصمته مركزا هاما للعلـــوم والآداب ، كذلك أولى الفن المعمارى عنايه كبيره فاتم بناء مسجد قطب الـــدين فى دهلى ، وشيد مسجدا آخر فى آجمير.

بوفاة ألتمش يكون قد بقى من عمر سلطنة المماليك فى دهلى ثلاثون سنة أثقلت المشاكل كاهلها فى خلالها حتى عصفت فى النهاية بذلك الصرح الضخم الذى بذل ألتمش جهودا كبيرة فى سبيل تشييده. ومن الأمور التى أضعفت هده الدولة عجز السلاطين الـــذين خلفـــوا ألتمش عن إدارة شئون الدولة ، والمنازعات الشديدة التى قامت بـــين كبار رجال الدولة حول الاستئثار بالسلطة.

وتفضيل ذلك أن ألتمش عهد إلى ابنته رضيه بالحكم من بعده ، ذلك أن ابنه الأكبر ناصر الدين محمد توفى فى البنغال ، وحاول ألتمش تدريب ابنته على إدارة شئون الدولة ، وعهد إليها بمباشرة سلطانه أثناء غيابه عن دهلى تمهيداً لتوليتها السلطنة من بعده. على أن كبار رجال الدولة اعترضوا على تولية رضية الحكم بعد وفاة والدها ، ودبروا خلعها ، واستدعوا آخاها فيروز من لاهور ، وطلبوا منه أن يتولى سلطنة دهلى بدلا من أخيه ، فسار فيروز إلى دهلى ، ومكنه رجال الدولة من تولى الحكم بعد أن عزلوا أخته رضية. على أن هذه السلطان الجديد لم يستطع إدارة أمور الدولة بحكمة وكفاءة ، بل انصرف إلى اللهو والعبث ، وترك مقاليد الأمور فى يد أمه شاه تركان ، وهى امرأة حقود وضيعة النشأة ، وسارت سيرة سيئة فى الحكم ، لذلك حدثت فى الدولة الكثير من القلاقل والثورات والفتن ، وعول حكام الملتان ولاهور وهانسى وبدون Budaun وأورده على إنهاء هذا الحكم الفاسد وتحركوا إلى دهلى فعلا. ففر فيروز من دهلى ، وتبعه جنده ، والتقى بالخارجين عليه بالقرب من العاصمة ، لنه لم يستطع الاشتباك معهم فى قتال ، ذلك أن جنده انفضوا من حوله ، وعادوا إلى دهلى ، وأعلنوا خلع فيروز ، وتولية رضية ، وقبض على فيروز وزج به فى السجن.

على أن هذا الحل لم يرض أمراء الولايات المتجهين إلى دهلى أذ كانوا يعتزمون تولية أحد الأمراء الحكم ، وحاصروا دهلى

فعلا وقطعوا عنها سبل الاتصال بالولايات التابعة لها ، لكن السلطانة رضية أظهرت مقدرة وكفاءة فى سحق هؤلاء المناوئين. فعلى الرغم من أنها كانت فى قلة من الجند ، فإنها استطاعت إضعاف أعـدائها الأمراء المحاصرين للعاصمة ، ذلك ببذر بذور الشقاق بينهم ، عندئذ واتتها الفرصة للتلخص من أعدائها وهزيمتهم ، وردهم على أعقابهم خاسرين ، وأصبحت سلطانة الإمبراطورية بلا منازع ، وعاد الأمن والهدوء إلى ربوع دولتها.

وحرصت رضية على أن تبلغ مبلغ الرجـال فـى أعمالهـا وتصرفاتها ، حتى تضفى على نفسها الرهبة أمام النـاس ، فتزيـت بزى الرجال ، وقادت الجيوش بنفسها ضد أعدائها ، وشهدها النـاس وهى تركب الفيل على رأس جيشها ، إلا أنها أغضبت أمراء الدولـة الترك الذين رفع ألتمش من شأنهم ، وقربهم إليـه ، وأسـند إلـيهم الأمور الهامة فى الدولة ، وأبعدتهم عن التدخل فى شئون الحكـم ، لأنها كانت تدرك مقدار معارضتهم لحكمها ، وسوء نواياهم نحوها.

كذلك أثارت رضية المعارضة ضدها حينما رفعت من شـأن رجل حبشى يعمل أميرا للخيل فى بلاطها يسمى جلال الدين يـاقوت ، وأسندت إليه قيادة الجيش ، بل همت بـه ، وتزوجـت منـه ، فـدبر الأمراء الترك مؤامرة للتخلص منها ، أو على الأقل تقليص نفوذهـا ، وقادها أيتيكين Aitigin ــ أمير حاجـب ــ لكـن رضـية أحبطـت المؤامرة ، ولم تنته متاعب رضية عند هذا الحـد ، إذ أعلـن حـاكم

البنجاب الثورة ، فسحقت رضية تمرده. أما إختيار الدين ألتونيا Altunia ــ حاكم بهاتندا ــ فقد رفع هو الآخر راية العصيان ، وقادت رضية جيشا لمحاربته ، كلنه هزمها وأسرها ، وقتل ياقوت ، وبينما هى بعيدة عن العاصمة ، إذا بالأمراء الترك فى دهلى يعلنون عزلها ، ويولون منها " معز الدين بهرام بن ألتمش".

لما ولى " بهرام شاه " سلطنة دهلى لم يستطع الانفراد بالحكم بل اضطر على الخضوع للأمراء الترك ، والسير وفق أهوائهم وأسند أمر الملك كله إلى واحد منهم هو وزيره إختيار الدين أيتيكين الذى قبض على زمام الأمور فى الدولة دون السلطان ولم يلبث أن غضب السلطان من وزيره الذى جعله اسما فقط فدبر السلطان مؤامرة لاغتياله ، وأدى نجاحها إلى استرداد سلطانه.

لكن بهرام شاه لم يستمتع بالانفراد بالحكم طويلا ، ذلك أن " بدر الدين سنقر " ــ أمير حاجب ــ سيطر على أمور الدولة ، كذلك تعرض السلطان لمؤامرة أخرى تستهدف خلعه ، فقد أنتهز ألتونيا ــ حاكم بهاتندا ــ فرصة مقتل أيتكين ، وعول على المسير إلى دهلى ، والتربع على عرش السلطنة ، ولتحقيق ذلك أفرج عن أسيرته ــ رضية ــ وتزوج منها ، ورأى أن ذلك يعطيه الحق فى تحقيق أطماعه الرامية إلى الاستحواذ على السلطة ، وتقدم الاثنان إلى دهلى ، لكن القبائل الكهكرية هاجمت جيوش ألتونيا وشتتت شملهم ، وعثروا على رضية تستظل بظل شجرة فاغتالوها. وبذلك فشلت هذه المؤامرة. على

أن رضية كانت سلطانة عادلة على جانب كبير من الكفاءة والمقدرة ، شجعت العلوم والآداب ، وكانت تتجول فى الأسواق فى زى الرجال ، وتجلس إلى الناس ، وتستمع إلى شكواهم ، ومما يجدر ذكره أن رضية عاصرت شجرة الدر ــ ملكة مصر الشجاعة التى قامت بدور كبير فى صد لويس التاسع ــ ملك فرنسا ــ عن مصر فى الحملة الصليبية السابعة ، وكان زوجها الملك الصالح أيوب قد توفى أثناء معركة المنصورة ، فقبضت شجرة الدر على زمام الأمور فى مصر حتى قدم توران شاه بن الملك الصالح ، وخلف اباه فى الملك.

لم تستتب الأمور فى دهلى بإحباط مؤامرة أمير بهاتندا ، ورضية ، ذلك أن أمير حاجب ظل قابضا على زمام الأمور فى الدولة وبينما تسير الدولة فى طريق الاضطراب واجهت خطراً آخر ليس من الداخل ، ولكن من الخارج ، ذلك هو خطر المغول الذين هاجموا لاهور سنة ١٢٤١م ، فقاد أمير حاجب جيشا إلى لاهور لوقف تقدم المغول ، غير أنه لم يلبث أن توجس خيفة من السلطان إذ رأى أن ابتعاده عن العاصمة سيؤدى إلى تآمر السلطان وحاشيته ورجاله ضده ، وعزله عن منصبه ، ومنعه من دخول دهلى ، وانضم إليه الجيش فى إعلان التمرد والعصيان على السلطان ، فأرسل إليه بهرام شاه رسول من رجال الدين ليحثه هو والجند على ترك الفتنة والمضى قدما فى طريق الجهاد فى سبيل الله ، لكن الشيخ الرسول لم يقم

بالواجب الذى كلفه به السلطان ، بل انضم إلى الثوار ، وعادوا جميعا إلى دهلى ، وتركوا المغول يهاجمون لاهور.

أعد السلطان العدة للدفاع عن عاصمة ملكه ، لكن رجال أمير حاجب داخل دهلى وساعدوا المهاجمين على الاستيلاء على العاصمة ، وقبضوا على بهرام شاه سنة ١٢٤٢م ، وولوا بدلا منه علاء الدين مسعود ــ حفيد ألتمش ــ وكان عمره لا يتجاوز السادسة عشرة.

لم يكن علاء الدين مسعود أسعد حظا من سابقة ، فقد فوض أمور دولته إلى قطب الدين حسين ، وجعلة نائبا ووزيرا له ، لكنه استبد بالسلطنة دونه ، وأسند الوظائف الإدارية الهامة فى الدولة إلى أعوانه وأنصاره على وزيره وقتله ، وعهد إلى نجم الدين أبى بكر بمنصب نائب السلطان ، وعين " بلبن " فى منصب أمير حاجب.

واجه بلبن صعابا جسيمة فى ضبط أمور الدولة ، فقد كثرت الفتن والقلاقل بها ، إذ حاول الأمراء الهنادكة الاستقلال عن دهلى ، وحاول أمراء الولايات كذلك الانفصال عن الحكومة المركزية وحارب بعضهم بعضا ، وتعرضت البلاد كذلك لخطر المغول الزاحف إليها ، وبلغ من ضعف السلطة المركزية أن أمراء الولايات القريبة استنجدوا بالمغول لدحر كل محاولة قد تقوم بها لاستعادة سيطرتها على ولاياتهم.

على أن بلبن لم يستطع أن يمضى فى تنفيذ سياسته الرامية إلى إعادة الهدوء والسكينة إلى الدولة بسبب تعرضه لمؤامرة تستهدف إقصاءه عن الحكم ، ذلك أن الهنادكة عولوا على إقصاء العناصر

التركية عن إدارة أمور الدولة ، والحلول محلهم ، وقاد هـذه الحركـة عماد الدين ريحان الذى ولى منصب وكيل الدار ، وأفلح فى إقصـاء بلبن ورجاله الترك عن الحكم. وبذلك حل النفوذ الهندوكى محل النفوذ التركى فى سلطنة المماليك بدهلى.

على أن الهنادكة لم يستمتعوا طويلا بإدارة شئون حكومة دهلى ذلك أن الأمراء الترك ساءهم اعتصاب الهنادكة بقيادة ريحان السـلطة فى دهلى ، وعقدوا العزم على إعادة بلبن ، وانضم إليه الكثيرون مـن حكام الولايات الترك ، وطلبوا من السلطان إعادة بلبن وعزل ريحان ، ولما لم يستجب السلطان لرغبتهم تعاضدوا وتحالفوا على تنفيذ رغبتهم بالقوة ، فخرج السلطان من عاصمته دهلى لسحق تمرد الثـوار لكـن الثائرين هزموا جيش السلطان ودخلوا دهلى ، وأعـادوا بلـبن إلـى الوزارة ، وعزل ريحان سنة ١٢٥٤م ، وأحسن أهالى العاصمة الهندية استقباله بعد غياب دام عامين.

واجه بلبن مشاكل متعددة لإقرار الأمور فى الدولـة ، فـالبلاد مضطربة ، والثورات متعددة فى الإمبراطورية ، وخصوصـا قبائـل المواتى Mewatis وأصبحت البلاد تعيش فى فوضى شاملة ، لـذلك كان على بلبن استعادة هيبة ونفوذ حكومة دهلى والقضاء على الفـتن فى الولايات التابعة لها ، وقد فوض إليه السلطان كل هذه الشئون بينما انصرف إلى مجالسة العلماء والدراويش.

أثبت بلبن كفاءة ومقدرة فى إدارة شئون الدولة ، وإعادة الهدوء إليها ، فقضى على الفتن الداخلية ، وأخضع الكهكرية وغيرها من القبائل الثائرة المثيرة للشغب والفوضى ، وزحف إلى الدواب Doab ، وأخضع الأمراء الهنادكة الثائرين بها ، كما أعاد أودة والسند إلى الولاء والطاعة لحكومة دهلى.

على أن أبرز مواقف هذا الرجل البطولية تجلت فى مقاومته لغزو المغول للهند سنة ١٢٤٥ ، فقد هاجموا السند ، وضيقوا الحصار على حصن أوكا فتصدى فهم بلبن واشتبك معهم فى قتال مريرو أوقع بهم هزيمة كبيرة وردهم على أعقابهم خاسرين وأمنت بلاد الهند الغربية من خطر المغول ، وعادت سيطرة دهلى على هذه المنطقة.

توفى ناصر الدين محمود بعد حكم دام عشرين عاما ، وكان عادلا كريما زاهدا متدينا ، يرعى العلوم والآداب ، وقد عهد إلى أبى عمر عثمان منهاج السراج بشغل وظيفة كبيرة فى بلاطه ، ووضع هذا العالم مؤلا كبيرا أهداه للسلطان ، أسماه " طبقات ناصرى " ومكافأة كبيرة على هذا الجهد الكبير ، ومما يجدر ذكره أن ناصر الدين عاش عيشة الزهد ، وكان يقتات من عمل يده ، إذ كان ينسخ المصاحف ويبيعها ، ويغطى بما يرد إليه من هذا العمل نفقاته الخاصة ، كذلك لم يتخذ خدما فى بيته ، إنما كانت زوجته تباشر الشئون المنزلية بنفسها بما فى ذلك إعداد الطعام.

ذكرنا أن غياث الدين بلبن ارتفع إلى أعلى المناصب في إمبراطورية المماليك في عهد ناصر الدين محمود ، ولعب دورا هاما في تاريخ سلطنة دهلي المملوكية حتى أن المؤرخين يذكرون أن تاريخ ناصر الدين محمود هو في حقيقته حلقة من تاريخ بلبن ، ولم يكن لدى السلطان ناصر الدين محمود أبناء ذكور ، وتزوج بلبن من ابنه ناصر الدين محمود ، الأمر الذي يسر له أمر تولية السلطنة بعد وفاة صهره سنة ١٢٦٦م وكان قد جاوز الستين من العمر.

ينتمي بلبن إلى قبيلة تركية ، كان أبوه من شيوخها ، ووقع بلبن في أسر المغول ، واشتراه الخواجة جمال الدين في البصرة ، وبيع في دهلي إلى ألتمش. ظهرت شجاعته ومقدرته في سلك الجندية ، فأدخله ألتمش في جماعة حرسه ، ولما وليت رضية السلطنة ، أسندت إليه منصب أمير الصيد ، وأدرك بهرام شاه شجاعته وإقدامه ، فولاه بعض الولايات فأحسن إدارتها وأعاد إليها الهدوء والاستقرار ، وراجت فيها الزراعة ، وتحسنت الأحوال الاقتصادية ، ثم ولاه ناصر الدين محمود منصب الوزراة ونيابة السلطنة كما رأينا.

وواجه بلبن بعد توليته السلطة نفس المشاكل التي واجهها ف عهد ناصر الدين محمود ، فالبلاد مضطربة ، والمغول عادوا إلى تهديد الحدود ، وكان على بلبن أن يؤمن دولته من الأخطار الخارجية والمشاكل الداخلية ، فبدأ بتقوية السلطة المركزية وأعاد الهيبة إلى بلاطه وحكومته ، وذلك بأن جعل بلاطه قويا فخما كما كان أيام ملوك

الفرس القدامى ، وكان مجلسه يتسم بطابع الجد ، وأعاد تنظيم جيشه وتدريبه على أحسن نظام. وأضعف من شأن القادة المماليك ــ موالى ألتمش ــ وكانوا لا ينقطعون عن تدبير المؤامرات والدسائس التى تستهدف تقوية نفوذهم فى الدولة على حساب السلطان.

كذلك حرص بلبن على تنظيم إدارة الدولة ، وأعاد الأمن والنظام إلى ربوعها ، ولتحقيق ذلك أعد جهازا قويا للجاسوسية ، يحيطه علما بكل أخبار الإدارات والمصالح الحكومية ، ويكتبون له تقارير عن سير حكام الولايات وسائر الموظفين ، وهؤلاء الجواسيس يراقبون كل مصالح الدولة بما فى ذلك الجيش وبلاط السلطان ، حتى أبناءه ، وكان هناك جواسيس لمراقبة سير الجواسيس فى عملهم ، وكان الجاسوس يتعرض لأشد أنواع العقاب إذا تهاون فى عمله أو فى تأدية الواجب المكلف به ، ولم يلتزم بالدقة فى جمع الأخبار ، أو لا يصدق فى تبليغها ، وبلغ من حرصه على إقرار العدالة ، ومنع الظلم أن أحدا كان لا يجرؤ على إيذاء خدمه ومماليكه.

بعد أن أعاد بلبن تنظيم إدارة الدولة ، وأعاد إلى حكومة دهلى هيبتها ، اتجه إلى القضاء على الفتن الداخلية فى الدولة ، فضرب بيد من حديد على أهل مواتى ، وكان قد أخضعهم أثناء وزارته ، فلما ولى السلطنة ، قطعوا الطرق ، وسرقوا المسافرين وألحقوا بهم الضرر والأذى وخصوصا فى بهار ، ونهبوا القرى وقتلوا الأبرياء واقترب خطرهم وشرهم من العاصمة دهلى فخرج بلبن من دهلى ، وسار على

رأس جيشه لإخضاعهم وهاجمهم هجوما عنيفا ، ومازال يتعقبهم حتى شتت شملهم ، وأمر بتطهير البلاد من الغابات والأدغال التـــى كـــانوا يحتمون بها ، ومازال يتعقبهم حتى أستأصل شأفتهم ، وقتـــل قائـــدهم. رأى ضرورة المحافظة على الأمن والسلام فى الدولة ، فأقام الحصون فى مختلف البلاد ، يقيم فيها شرطة لحماية الناس من عدوان اللصوص وقطاع الطرق ، وحول المناطق التى استأصل منها الغابات إلى أراض زراعية ، يقيم فيها جند لحراستها من عبث العابثين ، وبـــذلك اســـتتب الأمن والنظام فى الدولة.

كذلك تعرضت سلطنة المماليك فى الهند لخطر آخر من جانب الهندوس فى دواب ذلك أنهم قطعوا الطريق بين دهلى والبنغال فقاومهم حتى ضعفوا ووهنوا ، وقبض عليهم وأسرهم.

وواجه بلبن مشكلة أخرى من جانب المماليك الذين اعترضـــوا توليته الحكم وسعوا إلى الخلاص منه ، وكان سلطانهم قد قـــوى فـــى عهد ألتمش وخلفائه الذين منحوهم الإقطاعات الكبيرة ، فطردهم بلـــبن من الخدمة العسكرية ، وأمعن فى عقابهم ، وقتل كثيرا منهم ، وتخلص من هذه الفئة كلية. وبهذه الجهود أصبح بلبن سلطانا قويا مهابا يرعـــى جانبه رجال الدولة ، ويخشون بأسه.

لم يكد بلبن ينتهى من مشاكله الداخلية ، حتـــى واجـــه خطـــرا خارجيا جسيماً ، ذلك أن المغول عادوا من جديد إلى تهديد الهند بعـــد أن زحفوا إلى بلاد العراق بقيادة هولاكو خان ، واستولوا على بغـــداد

ـ حاضرة بنى العباس ـ وقتلوا الخليفة المستعصم سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٤م ، واعتزم المغول غزو الهند بعد أن سمعوا عن ثروتها ، فأعد بلبن العدة لصد الأعداء عن بلاده ، وبقى فى دهلى لا يغادرها وترك لقواده أمر تعقب الخارجين على سلطانه ، حتى لا تتعرض العاصمة لخطر المغول ، ولا تقاسى ما قاسته بغداد من ويلات ، وأعاد بناء القلاع على الحدود بسبب غزوات المغول السابقة ، وأقام تحصينات جديدة مزودة بالجند والسلاح ، كما زود جيشه بالأسلحة والمعدات ، وأسند القيادات العسكرية إلى رجال أكفاء وعين ابنه الكفء الشجاع محمد حاكما على الملتان ، ووضع ابنه الآخر بغراخان على حراسة سمنة وسنام.

وكان لخطته الدفاعية أثرها الكبير فى درء خطر المغول عن ديار الهند ، فحين هاجموها سنة ١٢٧٩ ، تعقبهم محمد وهزمهم ، ودفع خطرهم عن بلاد الهند. وبذلك سلمت المماليك فى الهند من خطر المغول وويلاتهم.

على أن انشغال الحكومة الهندية فى الذود عن البلاد أدى إلى بروز مشكلة أخرى داخلية ، ذلك أن البنغال بقيادة واليها " طغرل " عادت إلى محاولة الاستقلال عن دلهى ، ولقب واليها طغرل نفسه مغيث الدين ، وأمر بإقامة الخطبة باسمه ، ونقش اسمه على السكة بدلا من بلبن ، فأرسل السلطان جيشا بقيادة أمير خان لإخضاع طغرل ، وإعادة البنغال إلى الخضوع للحكومة المركزية ، لكن

طغرل هزم القائد الهندوكي ، وغضب بلبن مــن قائــده ، وحملــه مسئولية الهزيمة التى لحقت به ، وحكم عليه بالإعدام ، وأرسل جيشا آخر إلى التغال لسحق تمرد طغرل ، لكن هذا الجيش لقــى مصــير سابقه ، عندئذ لم ير السلطان بلبن بدا من المسير بنفسه إلى البنغــال لإعادتها إلى حوزته ، وصحبه ابنه بغ راخــان ، وحينمــا اقتــرب السلطان من البنغال أخذ طغرل الجزع والفزع ، وفر هو ورجاله إلى الغابات المجاورة شرق البنغال فى جاجنكر ، وأرسل السلطان فرقــة من الجيش لتعقب المتمردين ، وعثروا علــيهم فعــلا ، وشــاهدوهم يشربون ويلهون والفيلة تتجول بين الأشجار ، والخيــول والمواشــى تتغذى على النباتات ، فباغتوهم على حين غفلة منهم ، ومازالوا بهم حتى أفنوهم عن آخرهم وقتلوا زعيمهم طغرل.

بعد ذلك اتجه السلطان إلى لكهاونتى ، وكانت تؤيد طغرل فــى ثورته ضد دهلى فاختفى أغلب أعيانها ، خوفا من بطــش الســلطان ، لكن بلبن لم يبرح البلدة إلا بعد أن نكل بالثائرين وبذلك إلــى الــولاة والطاعة للسلطان بلبن ، ولكى يضمن السلطان بقاء البنغال على الولاء لدهلى ، عهد إلى ابنه بغ راخان بحكم البنغال ، وحكــم بــغ راخــان واعقابه البنغال أكثر من نصف قرن.

وجدير بالذكر أن البنغال سببت متاعب كثيرة لحكومة دهلــى ، فقد حاولت الاستقلال منذ أن حكمها الخليجيون منتهزين فرصة صعوبة المواصلات بين دهلى وبلادهم ، فضلا عن بعد المســافة ، وانتشــار

الأوبئة فيها. وبذل ألتمش جهودا كبيرة فى إخضاع البنغال وحذا طغرل ــ كما رئاينا ــ حذو الخلجيين فى محاولة الاستقلال عن دهلى منتهزا فرصة انشغال السلطان بلبن فى مشال الدولة الداخلية والخارجية.

على أن بلبن واجه كارثة أخرى مروعة ، فقد توفى ابنه محمد وهو يقاتل المغول ، ولم يحتمل صدمة موت ابنه ، وتوفى بعدها فى سنة ١٢٨٧ بعد حكم دام أربعين سنة.

يعتبر بلبن من أعظم حكام الهند فى تاريخها الوسيط ، فقد تغلب على الصعوبات الكبيرة التى واجهته ، إذ وقف فى وجه الأمراء الهنادكة الذين حاولوا النيل من سلطانه ، وقهر العصاة والمفسدين ، وتمكن من درء خطر المغول عن البلاد ، وأقر الأمن والنظام فى ربوع الدولة ، واشتد فى معاقبة الخارجين على القانون والعدالة والتخذ لنفسه ــ كما ذكرنا ــ بلادا مهيبا له مراسم معينة ، ورجال يرتدزن أزياء معينة ، ومظاهر خاصة ، واتخذ رجالا أكفاء فى إدارة شئون الدولة على أنه لم يستطع توسيع رقعة دولته لانشغاله طوال حكمه بمشاكل الدولة الداخلية والخارجية ، ولم يأل جهدا فى سبيل حماية الدين والمحافظة على الشريعة ، وإقرار العدالة ، وبنى دارا أسماها دار الأمن لرفع المظالم عن رعاياه ، وتخفيف أعباء الحياة عليهم ، وساوى بين رعاياه المسلمين والهنادكة أمام القانون وإذا كان قد أبعد الهنادكة فترة ما عن مناصب الدولة الرئيسية ، فإنه فعل ذلك بعد أن

لمسُ منهم نزعاتهم الاستقلالية فى وقت تواجـه الدولـة فيـه خطـر خارجيا.

ولم يأل بلبن جهدا فى سبيل رعاية الفنون والآداب ، وحـرص على رفع شأن مجتمعه ، فشجع الناس على التحلى بتعاليم الإسـلام ، وقد كان لعمله هذا أثر كبير على المجتمع الهندى حتى أن المـؤرخين يعزون إليه ما يتمتع به الآن المجتمع الهندى من تقاليد رفيعة.

ومما يجدر ذكره أن هذا السلطان أكـرم وفـادة الشخصـيات الإسلامية الكبيرة التى لجأت إلى الهند فـزارا مـن بطـش وجـور المغـول ، وكان من بين هؤلاء فريق من بنى العباس ومـن أمـراء خوارزم وغيرهم. وقد أنزل كل فريق منهم فى حى خـاص ، سـمى باسمه ، مثل محلة عباسى ، محلة خوارزمى ، محلة ديلمـى ، محلـة سنجر .. إلخ.

لما شعر بلبن بدنو أجله عهد إلى ابنه بغراخـان الحكـم مـن بعـده ، لكن بغراخان رفض ، وآثر البقاء فى البنغال ، لـذلك عهـد السلطان إلى كيخسرو بن بغراخان بولاية عهده ، وتـولى كيخسـرو السلطة فى دهلى سنة ١٢٨٧ ، وكان ضعيفا لا يستطيع القيام بأعبـاء الحكم ، فأسند أمور الدولة إلى نظام الدين وكان رجلا طموحا اسـتبد بأمور الدولة دون السلطان ، وزين نظام الدين للسـلطان الاسـتمتاع بمباهج الحياة واللهو والعبث ، وأسند المناصب الرئيسية فى الدولة إلى رجاله المقربين إليه.

على أن بغراخان – حاكم البنغال – ساءه ما علم من استبداد نظام الدين بأمور الدولة دون ابنه السلطان ، وعقد معه لقاء سريا حثه فيه على التخلص من نظام الدين ورجاله واستعادة نفوذهم في الدولة ، لكن الترك لم يمكنوه من ذلك بل عزلوه وولوا بدلا منه كيقباد – أحد أطفاله الصغار – على أن الخلجيين لم يمكنوا الترك من الاستبداد بأمور الدولة ، فدخلوا دهلى ، وأزالوا عنها حكم المماليك.

٢ - السياسة الداخلية لسلطنة دهلى الإسلامية فى العهد الخلجى

قيام الدولة الخلجية في دهلى:

يرى البعض أن الخلجيين من أصل تركى ، على حين يرى آخرون أنهم من اصل أفغانى ويؤكد بارالى أنهم ينسبون إلى قلبج خان – أحد أصهار جنكيزخان ، نزل بجبال الغور بعد هزيمة شاه خوارزم ، وحرف أسمه بعد ذلك إلى خلج ، وقيل لورثته الخلجيون، وقد اندمجوا فى اليحاة الأفغانية ، واعتنقوا الإسلام فى عهد سلاطين بنى سبكتكين ، وضم الجيش الغزنوى فرقا منهم ساهمت فى فتح الهند.

على أن نشاط الخلجيين اتضح فى عهد سلاطين الغور. فحينما ولى قطب الدين أيبك التركمانى الهند نيابة عن سلطان الغور ، حرص على توسيع رقعة ولايته الجديدة فى بلاد الهند ، فأسند هذه المهمة إلى قائده محمد بن بختيار الخلجى ، فاستولى على بندنتبورى – عاصمة إقليم بهار – وكان يحكمها مولك اسرة بلا ، ولم يلبس أن استولى على

مملكة بلا بأسرها ، وكانت الديانة البوذية سائدة بين سكان هذه المملكة ، فحكم القائد الخلجي معابدهم وأصنامهم ، ونشر الإسلام بينهم ، وانضمت هذه البلاد إلى إمبراطورية الغور.

وأذن قطب الدين أيبك – نائب سلطان الغور فى الهند – إلى القائد الخلجى بمواصلة الفتح والتوسع ، فاتجه محمد بن بختيار الخلجى إلى نادية – عاصمة البنغال الرغم من قلة عدد جنده ، فإنه اقتحم نادية ، وكان يحكمها لكشمن سنا من أسرة سنا ٥٩٥هـ/١١٩٦م ، وفزع الملك الشيخ وجزع ، ورأى أن لا قبل له بالغزاة المسلمين ، فلاذ بالفرار من عاصمة ملكه ، لا يلوى على شئ ، وقد يسر ذلك للقائد الخلجى أمر الاستيلاء على نادية – عاصمة البنغال – فضمها إلى مملكة الغور ، وأقام الخطبة فيها للسلطان الغورى ، وقد مهد سقوط نادية فى أيدى الغور السبيل لهم لضم إقليم البنغال بأسره لدولتهم.

لم يكتف محمد بن بختيار الخلجى بما أحرزه من انتصارات رائعة ، بل تطلع إلى المسير إلى التبت للاستيلاء على هذه البلاد ، ففي سنة ٦١٣هـ/١٢٠٦م إتجه فى عشرة آلاف فارس إلى التبت ، لكن حملته باءت بالفشل الذريع ، وتعرض جنده لأهوال جسام أثناء انسحابهم ، ولقى الكثير منهم حتفه فى عودتهم إلى " ديفكوت " ، ولم يلبث هو كذلك أن توفى.

حرص خلفاء محمد بن بختيار الخلجى على بسط نفوذهم على بعض أقاليم الهند ، فلما قامت دولة المماليك فى الهند ، وولى شـــمس الدين ألتمش السطنة فى دهلى ، تعرض لمشاكل داخلية تهـدف إلـــى إطاحته من الحكم ، وأثار هذه المشاكل رجال الدولة الــذين انتهــزوا فرصة الفوضى التى اعقبت وفاة قطب الدين أيبك ، وقد مهــدت هــذه المشاكل للخلجيين أمر السيطرة على بهار والبنغال.

على أن الملوك المماليك لم يقفوا مكتوفى الأيدى إزاء نزعــات الخلجيين الاستقلالية ، فلما غادر جلال الدين منكبرتى بــلاد الهنــد ، وزال خطر الخوارزميين عنها ، وبالتــالى خطــر المغــول ، تفــرغ السلطان ألتمش لقمع الحركات الاستقلالية فى دولته ، ومــن أرزهــا استقلال غياث الدين الخلجى فى البنغال عن دهلى حيث أقام الخطبــة باسمه ، ونقش اسمه على السكة ، وتلقب بألقاب الملوك ، وقوى أمره واشتد بأسه وامتد نفوذه على البلاد الواقعة شرقى دهلى.

عول السلطان ألتمش على سحق محاولة الخلجى الاستقلالية ، وسار على رأس جيش كبير إلى البنغال ، ولما رأى الأميــر الخلجــى عدم استطاعته التصدى لسلطان دهلى ، أعلــن هودتــه إلــى الــولاء والطاعة ن ونبذ التمرد والعصيان ، وتعهد بالعودة إلى دفــع الأمــوال المقررة عليه ، إلا أنه لم يكن صادقا فى تعهده ، بل كان يزمع انتهــاز فرصة أخرى تتيح له العودة إلى الاســتقلال بولايتــه ، فلمــا ابتعــد السلطان ألتمش عن البنغال أعلن الاســتقلال ، وســار إلــى بهــار ،

واستولى عليها ، غير أنه لم يهنأ بهذا الاستقلال طويلا ، إذ سار إليه ناصر الدين محمد شاه — إلى أودة — من قبل السلطان ألتمش — وهاجم البنغال ، وأوقع الهزيمة بالخلجى وأنصاره وبذلك عادت البنغال إلى حوزته سلطان دهلى.

لكن الأمير الخلجى لم يستسلم لانتزاع البنغال منه ، بل عول على استرداد هذا الاقليم ، فلما توفى ناصر الدين محمد شاه — والى البنغال من قبل أبيه سلطان دهلى — عاد إلى البنغال وحكمها.

ضعفت دولة المماليك بعد وفاة السلطان بلبن وقد عهد بالحكم لابنه بغراخان لكن بغراخان آثر البقاء ، وأسندت السلطنة إلى كيخسرو بن بغراخان سنة ١٢٧٨م ، وكان ضعيفا لا يتسطيع القيام بأعباء الحكم ، فأسند أمور الدول إلى نظام الدين ، وكان رجلا كموحا استبد بأمور الدولة دون السلطان ، وزين للسلطان أمر الاستمتاع بما فى الحياة الدنيا من مباهج حتى يبعده عن الانشغال بأعباء الحكم ، وأسند المناصب الكبيرة فى الدولة إلى رجاله المقربين.

على أن بغراخان — حاكم البنغال — ساءه استبداد نظام الدين بأمور الدولة دون السلطان ، وعقد معه لقاء سريا حثه فيه على التخلص من نظام الدين ورجاله ، واستعادة نفوذه فى الدولة ، ومباشرة مسئولياته بنفسه ، ونفذ السطان مطالب أبيه وتمكن من التخلص من نظام الدين ورجاله ، واسترد نفوذه فى الدولة.

لكن السلطان كيخسرو لم ينفرد بالسلطة طويلا فقد تآمر عليه الترك ، وعزلوه وولوا بدلا منه كيقباد ـ أحد أطفاله الصغار ـ السلطنة حتى يتيسر لهم الاستبداد بالدولة دونه.

استاء الأمراء الخلجيون من استبداد الترك بأمور الدولة ، وعولوا على تغيير نظام الحكم فى دهلى ، فساروا إليها بقضهم وقضيضهم بقيادة زعيمهم " فيروز " وهزموا القواد الأتراك ، وأحدثوا انقلابا فى دهلى أطاحوا فيه بالسلطان الطفل ، وأعلنوا فيروز سلطان ، ولقب بجلال الدين ، وكان ذلك سنة ١٢٩٠م.

ولم يتقبل أهالى دهلى حكم الخلجيين فى بادئ الأمر بالرضا والتأييد ، لكثرة ما ألحقه جندهم ببلدهم من الخراب والدمار ، وارتكابهم حماقات ذهب ضحيتها الكثيرون. على أن السلطان الخلجى الذى كان فى السبعين من عمره ـ تمكن بحسن سياسته وعدله ومودته أن يجتذب الناس إلى محبته. وبذلك خضع أهل دهلى للملك الجديد والعهد الجديد ، ووفد الناس على السلطان الشيخ زرافات ووحدانا يبايعونه ويقدمون له فروض اللاوء والطاعة.

كياسة السلاطين الخلجيين فى توطيد سلطانهم

لم يأل السلاطين الخلجيون جهدا فى سبيل سحق حركات التمرد والعصيان ، ومنع اندلاع الثورات ضدهم والحيلولة دون حدوث الحركات الاستقلالية والانفصالية فى الدولة ، وأول هذه الحركات الثورية حدث سنة ١٢٩٠ حينما أعلن جيجو ـ حاكم إقليم كره ـ

الثورة ضد الحكم الخلجي وهو ابن أخى بلبن وكان يطمع فى اسـعادة عرش دهلى ، وقوى أمره واشتد بأسه وكثر أنصاره ، وانضـم إليـه الكثير من الأمراء والراجات وتعاهدوا وتعاضدوا على الوقـوف إلـى جانبه ضد نظام حكم جلال الدين فيروز شاه ، وأعلن جيجو الاستقلال عن دهلى ، بل أعلن نفسه سلطانا ، وتلقـب بلقـب مغيـث الـدين ، وضرب العملة باسمه وأمر بذكر اسمه فى الخطبة ، وأعد جيشا كبيراً للزحف إلى دهلى واملاكها ، وإسقاط الحكم الخلجي.

لم يقف السلطان جلال الدين مكتوف اليدين إزاء هذه الحركـة الخطيرة التى تهدف إلى انتزاع الحكم منه ، بل عول على إحباطهـا ، فاستخلف فى دهلى ابنه الأكبر ولبفه خان الخانات ركن الدين ، وسار هو على رأس جيش كبير ، يتكون من عشرة آلاف مقاتل وقسمه إلـى قسمين ، قسم قادة " أركالى خان " ، والثانى تحت قيادته هو ، وباغت أركالى الأعداء على حين غفلة منهم ، وهزمهم شر هزيمة. غيـر أن المتمردين لم يهنوا ولم يضعفوا بل أعادوا تنظيم صفوفهم ، ودخلوا مع أركالى وجنده فى معركة أخرى ، ولما علم جيجو باقتراب السلطان ، أسقط فى يده ، وترك ميدان القتال ولاذ بالفرار لا يلوى على شـئ ، غير أن أركالى خالن اقتفى أثره ، ولجأ جيجو إلى قلعـة قريبـة مـن ولايته ، واعتصم فيها ، فحاصره أركالى ، وشدد عليـه الحصـار ، ومنع وصول الأقوات إلى القلعة ، حتى استسلم جيجو ، ووقـع هـو وأنصاره أسرى فى أيدى جيش دهلى ، أما السلطان فقـد سـار إلـى

كــره ، وطهر فى طريقة البلاد من المتمردين وعناصـــر الشـــغب ، واستعاد كره ، وسيق الأسرى المتمردين مكبلين بالسلاسل والأغـــلال. على أن السلطان الرحيم أمر بفك قيـــدهم ، وأن تكفـــل لهـــم وســـائل الراحـــة ، وبدلا من أن يحاكمهم بتهمة الخيانة والغدر ، عفـــا عـــنهم ، وتغضى عن خطاياهم وآثامهم ، وشملهم بعنايته ورعايتـــه وعطفـــه ، وحذره قواده من هذا التسامح الذى قد لا يؤدى إلـــى وقـــف حركـــات التمرد والعصيان ، بل ربما يزيد الثورات اشتعالا فى دولتـــه. ولكـــن السلطان الشيخ استند فى عفوه وصفحه إلى روح الإسلام التى تـــدعو على تجنب إراقة دم المسلم ، وكان يرى أنه فى شيخوخته يجب عليـــه أن يختتم حياته بالأعمال الطيبة الصالحة. ومهما يكن من أمر فقد أفرج السلطان عن عناصر التمرد والفتنة ، وأرسل جيجو إلى الملتـــان فـــى ظل حراسة مشددة.

ظهرت حركات معارضة أخرى لحكم الخلجى من بينها حركة دبرها أمراء ونبلاء ألتمش ، وتزعمها تاج كوشـــى ، وعقـــدوا عـــدة اجتماعات وندوات تحدثوا فيها عن مساوئ الحكـــم الخلجـــى وعـــدم جدارته بتولى زمام الأمور فى الدولة وعدم صـــلاحية جـــلال الـــدين بالذات لعرش سلطنة دهلى ، واتفقوا على العمل على إزاحة الخلجيين عن حكم البلاد ، ونقل زمام الحكم من جلال الدين إلـــى تـــاج الـــدين كوشى ، ودبروا مؤامرة لاغتيال السلطان الخلجى. غير أن تفاصـــيل هذه المؤامرة نمت إلى علم السلطان ، فأرسل إليهم يهددهم ويتوعـــدهم

بسيفه إن لم يعودوا إلى الولاء والطاعة ، ويقلعوا عن التآمر والتمـــرد فخشوا مغبة عصيانهم ، وأرسلوا إليه وفدا يعتذر عمـا بـدر مـنهم ، ويطلب من السلطان العفو والصـفح ويعلـن عـودتهم إلـى الـولاء والطاعـة ، فعفا السلطان الطيب عنهم. وبذلك أحبط جلال الدين هـذه المؤامرة بالطرق السلمية.

وتعرض جلال الدين لمؤامرة أخرى كادت تقضـى عليـه ، ورأس هذه المؤامرة " سيدى مولى " ، وهـو درويـش مـن بـلاد فـارس ، لجأ إلى الهند عقب الغزو المغولى لها ، وأقام فى دهلـى إبان حكم بلبن ، وعاش فيها حياة زهد وتقشف وخشونة ، يتبسط فى طعامه ويلبس الخشن من الثياب ، ومن الغريب أنه يتعفف عن أموال الناس ، فلا يقبل ما يعرض عليه من منح وهبات ، ورغم ذلك كـان ينفق عن سعة ، وبنى خانقاه عظيمة ، ووفد عليه الناس من كل مكان بعد أن بلغ صيته الآفاق ، وكان يستضيفهم ويكرم وفادتهم ، ويـدفع هذه النفقات الكبيرة من ماله الخاص ، ودهش الناس وأخذتهم الحيرة لعدم معرفتهم مصدر هذه الأموال حتى اعتقد بعضهم أن لـه صـلة بالجن أو معرفة بالسحر.

كثر أتباع هذا الرجل من الصـوفية والفقـراء والمسـاكين والنبلاء أيضا ، ونظر جلال الدين إليه نظرة شك وريبـة فحضـر مجلسه متنكرا ، وشاهد بنفسه التفاف الناس حوله ، واتضح أن سيدى مولى ليس درويشا ولا متصوفا ، وإنما يتخذ من هذاالمظهر وسـيلة

لتحقيق أغراض سياسية ، فقد كان يكثر من الاتصال بالأمراء والنبلاء وقواد بلبن المعارضين لحكم جلال الدين ، وبلغ من ازدياد نفوذه أن خان الخانات ركن الدين بن جلال الدين أصبح من مريدية ، وتدخل الشيخ الدرويش فى النزاع الذى حدث بين ابنى جلال الدين حول ولاية العهد ، وحاول كل منهما تقوية مركزه بضم الأنصار والأعوان له ، ومن ثم ظهر حزبان فى دهلى ، الأول موال لخان الخانات ويضم الشيخ الدرويش ، والآخر التف حول أركالى خان ، ويضم المناهضين للدرويش ، وحرص خان الخانات على أن يخاطب الدرويش بالأبوة حتى يكتسب إلى جانبه أنصار الدرويش.

حرصت الحركات المعارضه للحكم الخلجى على نيل رضا الشيخ الدرويش حتى أن أبناء أمراء العهد البائد تطلعوا إلى الشيخ للوقوف إلى جانبهم فى استعادة نفوذهم ، وخلع السلطان الخلجى.

ومهما يكن من أمر فقد دبر هؤلاء المعارضون للحكم الخلجى مؤامرة لاغتيال السلطان جلال الدين وهو ذاهب لصلاة الجمعة فى مسجد دهلى الكبير ، وبعدها يعلنون سيدى مولى خليفة ، ويتزوج من ابنه السلطان ناصر الدين غازى كيانى ، ويحصل على لقب غازة خان ثم يعين أبناء بلبن فى الوظائف الرئيسية فى الدولة ، على أن هذه المؤامرة فشلت فشلا ذريعا ، فقد علم السلطان بأنبائها ومخططها ، وأمر بالقبض على جميع المتآمرين ، وأجبروا بالعنف والشدة على الاعتراف بتفاصيل المؤامرة ، وأمر السلطان بإعدام

المتآمرين على حياته – وعلى رأسهم سيدى مولى ، وأمر بنفى وسجن المتآمرين الآخرين ، ولقد كان لمقتل سيدى مولى صدى كبير فى دهلى فقد غضب أنصاره ومريدوه لمقتله ، وبنادوا بالانتقام لمولاهم الذى قتل ومات شهيدا حسب اعتقادهم. غير أن ثورتهم أخمدت. وبذلك نجا السلطان ودولته من محاولة قلب حكومته.

لم تنته متاعب السلطان الخلجى عند هذا الحد ، بل واجه حركة استقلالية عن دولته تزعمتها مدينة رانثمبهور ، وجدير بالذكر أن هذه المدينة كانت قوية التحصين حتى أن الغوريين لم يستطيعوا الاستيلاء عليها ، واستطاع ألتمش السيطرة عليها سنة ١٢٢٦م ، واستعادها الراجبوتيون فى عهد السلطانة رضية المضطرب ، ولما ولى بلبن السلطة استردها ، ولكنها عادت إلى الثورة من جديد فى عهد جلال الدين الخلجى. ولم يتغاض هذا السلطان عن هذه الحركة الانفصالية فأناب عنه فى دهلى ، ابنه أركالى خان وسار هو على رأس جيش كبير لإعادة الأمن والهدوء إلى هذه المدينة فى مارس سنة ١٢٩١م ، واجتازت قواته صحراء الثأر القاحلة الموحشة ، وقاسى الجند فيها ألوان العذاب وأهلك العطش والجوع الكثير منهم ، وظلوا على هذا الحال عدة شهور حتى أكلوا معظم دوابهم ، ومهما يكن من أمر فقد بلغ جلال الدين وجنوده مدينة رانثمبهور ، وأرسل فرقا استطلاعية لاختبار قوة المدينة وحشد جيشه على حدودها ، ورأى السلطان أن يستولى على مدينة غين Jhain قبل رانثمبهور

حتى لا يطعن جنده أثناء هجومها على رانثمبهور ، وباغــت الجنــد الخلجى غين ، وألقوا الذعر بين سكانها ، وقتلوا الكثير من سكانها ، ولم يستطع راجا هذه البلدة دفع الخلجيين عن ديراه ، وفر من نجــا من سكان البلدة لا يلوون على دار ولا يركنون إلى قــرار ، ودخــل جلال الدين " غين " ، وضمها إلى حوزته ، وأعجبه جمــال البلــدة وروعة ما فيها من تماثيل منقوشة من الحجر أو الخشب فى قصــر الراجا ، وزار معابد البلدة ، وشاهد نقوشها البديعة وتحفها الذهبيــة والفضية الرائعة. غير أن جلال الدين أمر بإحراق التماثيل والتحــف لأنها ترمز إلى عبادة الأصنام ، وأخذ قطعتين من البرونز من تمثــال لبرهاما وأمر بتفتيتها إلى قطع صغيرة ، ووزع بعضها بين ضباطه وجنوده وكبار موظفى دولته ، وزين بالبعض الآخر بوابات مســجد دهلى الكبير.

وبعد أن استولى جلال الدين على غين ، أرسل فرقــا مــن جيشه إلى مالوا Malwa وهاجمتها ، وحطمــت معابــدها وعــادت محملة بالغنائم والأسلاب. وقد مهدت هذه العمليات الحربيــة لشــن الحرب على رانثمبهور ، وإعادتها إلى حوزة دهلى ، وكان صاحبها قد أعد جيشا كبيرا لصد هجوم جلال الدين ، وانضم إليه عدد كبيــر من راجات البلاد المجاورة ، وتعاضدوا جميعا على صــد الجــيش الخلجى ، وحصنت المدينة خير تحصين ، ولمــا نمــى إلــى علــم السلطان قوة تحصين البلدة ، واستعداد أهلها الكبير للــدود عنهــا ،

ودرء هجمات العدو ، خشى إن اشتبك معه أهل رانثمبهور أن يقتــل ويجرح الكثير من جنوده المسلمين ، وهو كرجل مسلم يحرص على عدم إراقة دم المسلمين الذى يؤدى بالضرورة إلى ترميل النســاء ، وتيتيم الأطفال ، وهو أمر لا يحتمله ، ويخشى وقوعه ، لذا قرر هذا الشيخ الطيب الرحيم رفع الحصار عن رانثمبهور وأمــر بانســحاب جيشه وعودته إلى دهلى ، غير مبال بالغواقب ، ولم يستجب لنصيحة قواده ومستشاريه بسوء عاقبة هذا العمل وما ينجم عنه مــن ضــياع هيبته بين سكان هذه البلاد. وفعلا كان لانسحاب جلال الــدين أثــر كبير فى تشجيع الحركات الانفصالية ، فقد استردت غين استقلالها ، وخرجت رانثمبهور من هذه المحنة ظافرة منتصرة ، وتحقق أملهــا وحلمها فى الانفصال عن دهلى.

ومن أهم الأحداث الداخلية التى شهدتها سلطنة دهلى ، تــآمر علاء الدين على عمه السلطان جلال الدين ، فقد كان هــذا الأميــر طموحا يتطلع إلى العرش على الرغم من أن عمه السلطان قد أســند ولاية عهده إلى ابنه ركن الدين ، وكان علاء الدين قد ولى من قبــل عمه حكم إقليم كره سنة ١٢٥٤م وأسند إليه قيادة بعض الغزوات فى أرجاء الهند كان آخرها فى الدكن ، وأحرز من هذه الغزوة بعــض الانتصارات ، وعاد إلى كره محملا بالغنائم والأســلاب ، وحينئــذ واتته الفرصة لتدبير مؤامرته ضد السلطان ، فأرسل إليــه يخادعــه ويدعوه إلى زيارته ، ويزعم ولاءه ومحبته له ، ولم يجــد الســلطان

الشيخ غضاضة فى الاستجابة لدعوة ابن أخيه على الرغم من تحذير رجاله له ، وسار إلى كره ، وأفلح علاء الدين فى إقنـاع السـلطان بنزع أسلحة جنده منعا لحدوث صدام بين جند كره وحند دهلى ، أما علاء الدين فقد أعد جيشه وزوده بالأسلحة والمعدات ، وزوده بالخيل والفيلة ، وركز جنده فى عدة مواضع. ولما وفد السلطان على ابـن أخيه ، وأدرك سوء نواياه ، أسقط فى يـده ، وأرك أنـه لا محالـة هـالك ، وانصرف إلى قراءة القرآن ، هنا أمر علاء الـدين بقتـل السلطان ، ولما نفذت المؤامرة أعلن علاء الـدين نفسـه سـلطانا ، وركب جنده الفيلة ، ورفعوا رأس جلال الدين على حربة ، وتجولوا بها وقد أدى موقف أركالى خان إلى تقوية شأن علاء الدين ، وزيادة الضعف والانقسام فى جيش دهلى ، وبالغ علاء الـدين فـى بـذل الأموال والهدايا لأنصاره حتى انضم إليه الكثير مـن جنـد ركـن الـدين ، فأسقط فى يده ، واعتزل العرش ، ومهد ذلك لعلاء الـدين أمر توليه العرش فى دهلى.

دخل علاء الدين دهلى سنة ١٢٩٦م ، وأعلن نفسه سلطانا ، وقبض على ركن الدين إبراهيم ، وسمل عينيه كما زج بأمـه فـى السجن ، واستصفى أموال أصار الحزب الجلالـى ، ولقـب بـأبى المظفر السلطان علاء الدنيا والدين محمد شـاه خلجـى ، وضـرب العملة باسمه ، وأقيمت الخطبة باسمه ، وفرض الهدايا على الناس ، وأقيمت الزينات السرادقات فى كل مكان ، وأقبل الناس عليه من كل

صوب وحدب مؤيدين ومبايعين. وبذلك تربع علاء الدين على عرش سلطنة دهلى بعد أن تخلص من عمه وابن عمه ، وقوى من شأنه وجذب الأنصار والأتباع له.

لما ولى علاء الدين السلطة ، واجه مشاكل داخلية وخارجية معقدة ، فبلاده هدف لغزوات المغول من الشمال الغربى سنويا ، وهذا الغزو يقترن عادة بالخراب والدمار ، واقتطاع أراضى من مملكته ، كذلك انتقم أركالى خان ــ ابن السلطان جلال الدين ــ من علاء الدين ، فاستقل بإقليم الملتان ، وضم إلى حوزته السند والبنجاب ، وبذلك اقتطع من سلطنة دهلى بلادا واسعة ، وفى السند مملكة الكجرات الغنية ويحكمها الأمير الراجيوتينى وبالقرب من الكجرات تقع ممالك الأمراء الراجيبوتيين فى Baghela صحراء الثأر ، وكل إمارة مستقلة عن الأخرى ، وتحرص على الانفصال عن دهلى ، ولم يستطع سلاطين دهلى من قبل إخضاعهم ، ومن ناحية أخرى توجد ممالك مثل شيتور Chittor ورانثمبهور تقف من دهلى موقفا عدائيا ، يضاف إلى ذلك أن بعض بلدان سلطنة دهلى مثل ملاوى Dhar ويوجين Ujjain لم تتأثر بعد بالحضارة الإسلامية ، بل تنتهز الفرصة المواتية للاستقلال عن دهلى ، وتقف منها موقفا عدائيا أما البنغال فولى حكمها ناصر الدين محمود بن بلبن وأعقابه ، واستقلوا عن دهلى. وحكم الدواب وما جاورها أمراء مستقلون عن دولة الإسلام فى الهند. وبذلك ولى علاء الدين

السلطنة ، فى وقت تفككت فى الدولة الإسلامية فى الهند ، وانفصل عنها الكثير من أقاليمها.

ولى علاء الدين السلطنة فى وقت كانت فى أشد الحاجة إلى رجل دولة مثله ، فالسلطان الجديد يختلف عن سلفه جلال الدين ، فهو يمتاز بقوة البأس ، والحزم وحسن التدبير ، والكفاءة العسكرية والإدارية ، فقبض على زمام الأمور بيد من حديد ، وبذل قصارى جهده فى إعادة الوحدة إلى دولته ، وإنقاذها من الهوة التى تردت فيها ، ودرء الخطر الخارجى عنها.

وأبرز أعداء السلطان الجديد ، وهم أبناء جلال الدين ، ونبلاء دهلى ، وهؤلاء يعارضون العهد الجديد كما أن الراجات الذين استقلوا عن دهلى فى أثناء الاضطرابات التى حدثت فى أواخر عهد جلال الدين ، وبعد مصرعه من واجبه إعادتهم إلى الولاء والطاعة له ، وكان عليه تنظيم إدارة البلاد ، وتقوية الحكومة المركزية ، وضمان طاعة وولاء القادة العسكريين ، والحكام المسلمين فى الولايات.

أعد علاء الدين جيشا فى سنة ١٢٩٦ لإخضاع أركالى خان ـــ الذى استقل بالملتان وغيرها ـــ وسار هذا الجيش إلى الملتان ولم يستطع أركالى له دفعا بل قبض عليه وعلى إخوته وأقاربه وقادته وعوقبوا أشد العقاب وصودرت أموالهم وأمتعتهم ، ونكل بهم أشد

تنكيل. وبذلك استرد إقليم الملتان وبلاد البنجاب والسند ، وضمها إلى حوزته.

لم يكتف علاء الدين بذلك ، بل صادر ممتلكات نبلاء جلال الدين ، والأمراء والملوك الذين عملوا تحت قيادته ــ وكان لا يطمئن إلى ولائهم ، وحرص على التنكيل بكل من حامت حوله الشبهات بعدم الولاء والطاعة له ، وذلك بالمصادرة والسجن والتشويه ، وبذلك عادت البلاد إلى الطاعة والولاء له ، وجمع من المصادرات أموالا طائلة ، مكنته من توسيع رقعة دولته ، ودرء الخطر عنها ، والتصدى للحركات الانفصالية فى المملكة.

تتابعت انتصارات علاء الدين وفتح الكثير من البلدان ، وضمها إلى حوزته ، وحالفه التوفيق فى دفع الغزو المغولى المدمر عن الديار الإسلامية فى الهند ، فأخذته نشوة النصر كل مأخذ ، وركبه الغرور ، وذهب عنه صوابه ، فتوهم أن باستطاعته أن ينجز إنجازات الإسكندر الأكبر من حيث غزوه للعالم أو محاولة ذلك ، وقهر الدنيا تحت سلطانه ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك ، فقد تصور أنه نبى لدين جديد وصاحب رسالة جديدة ، على غرار محمد نبى الإسلام وتوهم أن أصحابه الأربعة بمثابة الخلفاء الراشدين الأربعة ، وبدأ يتحدث عن إمكانية نشر دعوته فى أرجاء الدنيا ، واستطاع بقوة بأسه وقوة جيشه وجنده التبشير بالدين الجديد والرسالة الجديدة ، واستهوته قصص وأحاديث الشعراء والمؤرخين والأدباء عن

الإسكندر الأكبر ، والتف حوله الانتهازيون الراغبون فـــى تحقيــق منافع شخصية ، فزينوا له صحة ما توهمه ، وروجوا دعوته ، وهيأ السلطان نفسه لأن يصبح الإسكندر الثانى. ومما لاشك فيه أن رجال البلاد والقادة المقربين إليه قد وافقوه لا عن اقتناع بل اتبعوه رهبـــة منه ، وخوفا من قسوته وبطشه ، فلم يسعهم إلا التعبير عن رضاهم.

تصور السلطان أنه على حق فيما ذهب إليه ، ودفعه جنـــون العظمة إلى التمادى فى أفكاره وخيالاتـــه ، وكـــان الســـلطان يقـــيم الحفلات الكثيرة ، ويجمع فيها كبار رجال دولته ، ويتحدث فيها عن دعوته ، وفى هذه الحفلات حذره عمه علاء الملـــك القاضـــى مـــن خطورة ما ذهب إليه على ملكه ، وعلى الوضع الداخلى فى البلاد ، ومن انتفاضة الكثيرين من الغيورين على دينهم ، فقـــال : إن الـــدين يوحى به الله للأخيار من عباده ، ولا يمكن أن يكون بفغل أو يصـــنع إنسان وقال: إن الإسلام دين الحق ، ولا يمكن القضاء عليه. حتى إن قهار العالم وجبابرتهم مثل " جنكيزخان" ، أراقوا من دماء المســـلمين ما أراقوا ولكنهم لم ينالوا من الإسلام شيئا ، بل دخل المغول فى دين الله أفواجا ، وأوضح أن الناس إذا وجودا الســـلطان يشـــككهم فـــى معقداتهم فن يسمعوا له ويطيعوا بل سيدمرون ملكه ، وبـــذلك تعـــم الفوضى البلاد ، وينتهز أمراء الأقـــاليم فرصـــة هـــذه الفوضـــى ، ويحققون أملهم فى الاستقلال عن دهلـــى. وأوضـــح عـــلاء الملـــك للسلطان أن النبوة لا تأتى الملوك ، وإن كان بعض الرسل قد أوتـــى

من الملك نصيبا ، وأما عن فكرة قهر العالم ، فقد أوضح علاء الملك للسلطان أن الظروف تغيرت ، وأن الإسكندر كان يستند إلى حكم الحكماء مثل " أرسطو " الذى أوتى الحكمة وفصل الخطاب ، وهو مالا نظير له عند علاء الدين ، كما أن الإسكندر ورث عن أبيه فيليب المقدونى ، دولة اليونان الموحدة ذات الإدارة القوية.

وختم القاضى نصيحته للسلطان بقصر جهوده وتركيزها فى إخضاع بلاد الهند لسلطانه ، وقهر الكفرة فيها ، والدعوة على الإسلام فى غير بلاد الإسلام ، وإصلاح البلاد ، والقضاء على الفتن والثورات وحماية البلاد من هجمات المغول ، وقد لقيت نصيحة علاء الملك أذنا صاغية من السلطان فأقلع عن فكرة الدعوة لنبوته وتأسيس دين جديد والتفرغ للغزو والفتح وإصلاح البلاد. وبذلك عدل السلطان عن دعوته التى كانت ستؤدى إلى ثورات وانتقاضات فى المملكة. قد يذهب ضحيتها السلطان أو تفكك عرى الوحدة فى البلاد.

تعرض علاء الدين لمؤامرة كادت تودى بحياته ، وقاد هذه المؤامرة ابن أخيه سليمان شاه ، وكان يشغل منصب وكيل الدار ، وأراد بخطته أن يسقى علاء الدين نفس الكأس الذى أسقاه لجلال الدين ، ويتولى هو – أى سليمان شاه – السلطنة ، وكان علاء الدين قد أرسل عدة حملات إلى نواحى الهند للفتح والتوسع ، بينما سار هو إلى رانثمبهور ، وتوقف فى تلبات Tilpat لبعض الوقت ، وباغته – قوادة الذين أنضموا إلى سليمان شاه فى مؤامرته – ورموه

بالسهام فأصيب بجراح شديدة ، وأعلن المتـآمرون مقتلـه ، وأعـد سليمان شاه العدة لتولى السلطنة ، وساد الذعر معسـكر السـلطان ، وتفرق الجند السلطاني. وفي خضم هذه الفوضـى. أخفـى أنصـار السلطان ، السلطان ، وضمدوا جراحاته ، وعـالجوه خيـر عـلاج وأنجعه. وحينما توجه سليمان شاه ــ رأس المؤامرة ــ إلى معسـكر السلطان مطالبا تسليمه له ، رفض رجال علاء الدين ذلك ، وفجـأة حدث مال يكن فى حساب المتأمرين ، فقد ظهر علاء الدين فجـأة ، وإن كان ضعيفا من آثار الجروح ، فأسقط فى أيـدى المتـأمرين ، فلاذوا بالفرار بقيادة رئيسهم شاه لايلوون على شئ إلى أفغانسـتان ، وبذلك أحبطت هذه المؤامرة التى كادت أن تودى بالسـلطان عـلاء الدين وتمهد السبيل لتولى ابن أخيه سليمان شاه سلطنة دهلى.

رأى علاء الدين ضرورة استئصال شأفة المتأمرين فأرسـل فرقا من جيشه إلى أفغانستان للقبض على المتأمرين ، وأدى الجـيش مهمته فقبض على سليمان شاه وقتل وحملت رأسـه إلـى معسـكر السلطان وانتقم السلطان شر انتقام مـن المتـأمرين فـأمر بقـتلهم ومصادرة أموالهم ، وسبى نسـائهم وأطفـالهم ، وتـوزيعهم علـى القـلاع ، وبذلك فشلت محاولة التخلص من علاء الدين ، وخرج من هذه المحنة قويا.

على أن اغتصاب علاء الدين العرش من عمـه سـبب لـه متاعب كثيرة إذ أصبح واضحا عدم ، جود قاعدة ثابتة لوراثة الملك

وكان ذلك من أسباب طمع سليمان شاه في اغتصاب العرش ، وأشعل بعض أمراء الأسرة ثورة في دهلي منتهزين فرصة غياب علاء الدين عنها ، وطالبوا بعزل السلطان ، وتولية واحد منهم الحكم مبررين تذمرهم بشدة السلطان وقسوته ، واستبداده وجوره ، وغير أن حكومة دهلي قبضت على المتآمرين ، وسيقوا إلى علاء الدين في رانثمبهور ، بأمر بسملهم ، وزجهم في السجون ، ونكل بأتباعهم.

ولم تنته متاعب علاء الدين عند هذا الحد ، بل واجه حركة ثورية أخرى ضد نظام حكمه ن قادها " حاجي " مولى وهو رجل طموح واسع الاطماع ، كان يشرف على إدارة بعض الأراضي الملكية ، ولقد بدأ حاجي مولى مؤامراته بالتصدي لتيرميزي Tirmizi ، الذي عهدت إليه حكومة دهلي بإصلاح بوابة بادون ، وعرف عن هذا الرجل شدة البأس والعنف والغطرسة ، لذا أضمر أهل دهلي له السوء ، وبينما صاحبنا يصلح بوابة بدون أحاط بمسكنه عدد من الأكواخ أقام فيها العمال الذين عهد إليهم بتشييد القلعة ، وتوجه حاجي مولى إلى منزله ، زعما أنه يحمل إليه رسالة من السلطان ، وبينما تيرميزي يتسلم الرسالة باغته حاجي ورجاله وقتلوه ، وأخرج من جيبه خكابا للناس نسبه إلى السلطان زعم فيه أن علاء الدين أمره بقتله ، وقد أخذ الناس الجزع والفزع بعد هذا الحادث حتى أغلقوا منازلهم وانضم إلى حاجي مولى المتذمرون من علاء الدين ، والجند الفارون من جيشه بعد أن أضناهم طول الغياب

فى الحرب والقتال. وأفح حاجى مولى فى إشاعة الفوضى والذعر فى دهلى ، والتمكين لنفسه ، وقاد أتباعه إلى السجون ، وأمرهم باقتحامها ، والإفراج عن نزلائها ، فكثر أتباعه وقوى أمره ، واشتد بأسه ، وأطلق لأتباعه العنان فنهبوا خزينة الدولة ووزع الأسلحة والخيول والأموال على أصحابه وحصل على أموال طائلة من أعمال السلب والنهب التى قادها ، واختار طفلا من سلالة ألتمش ، وأعلنه سلطانا بدلا من علاء الدين الذى أعلن عزله ، واعتزم أن يحكم البلاد باسم هذا الطفل ، وقد لقيت خطته قبولا من كثير من سكان المملكة إما رهبة أو كراهة لعلاء الدين ، فوفدوا على السلطان الجديد وبايعوه وقدموا له فروض الولاء والطاعة.

كان طبيعيا ألا يقف علاء الدين مكتوف اليدين إزاء هذه الثورة التى هدمت دولته وملكه ، فاتخذ الأهبة لإخمادها ، وعهد بهذه المهمة إلى ملك حميد الدين ، وبلغ خان ، وسار جيش السلطان إلى دهلى ، واشتبك مع حاجى ورجاله فى عدة معارك ، انتهت بهزيمة حاجى ، وسحق قوات التمرد ، وقتل حاجى مولى ، وعلقت رأسه على حربة ، ودار بها الجند فى شوارع دهلى ، ثم أرسلت على علاء الدين فى رانثمبهور ، وحرص حميد الدين على استئصال الفتنة من جذورها ، فأمر بالقبض على أعوان وأنصار حاجى مولى ، وصادر أموالهم ، التى يسر حاجى لهم نهبها ، وأودعت هذه الأموال فى خزينة الدولة ، وانتقم حميد الدين من الثوار فقتل كل

من قُبض عليه. ومما لاشك فيه أن إخماد الثورات التى قامت ضد علاء الدين بالعنف والقسوة أدى إلى استتباب الأمر للسلطان ، وإعادة الهدوء والسكينه إلى البلاد ، وإخماد الفتن والثورات ، وتوقف حركات التمرد والعصيان.

على أن كثرة الثورات التى حدثت ضد السلطان علاء الدين جعلته كثير الشك والريبة فى رجال الدولة حتى المقربين إليه ، فيتهمه بعض المؤرخين بتدبير اغتيال يلغ خان أثناء سيره إلى دهلى لقمع حركة حاجى مولى ، إذ خشى أن ينتزع سلطانه ، ولكن باراتى يشك فى هذه الرواية التى رددها بعض المؤرخين ، ذلك أن يلغ خان كان شديد الإخلاص للسلطان ، وحزن عليه علاء الدين كثيرا ، بل أمر بتوزيع الصدقات على روحه.

غادر السلطان علاء الدين رانثمبهور ، واتجه إلى دهلى ، وتردد كثيرا فى دخولها ، وبقى فترة من الوقت يجول ويصول فى ضواحيها ، ولا يجسر على دخولها لأن دهلى كثيرة الثورات ضد الحكم الخلجى ، وأمر قواده بتطهير العاصمة الهندية من المتمردين ، ولما اطمأن إلى استتباب الأمن والنظام فى دهلى ، وخلوها من عناصر الثورة والفتنة دخلها ، وأخذ فى إصلاح أحوالها ، وحل مشاكل الجماهير بها.

واستطاع علاء الدين – بفضل ما بذله من جهد – إعادة الأمن والطمأنينة إلى البلاد غير أنه لم يضع الحلول المناسبة لتفادى

المشاكل لتفادى المشاكل الناجمة عن عدم وضع قواعد ثابتة لوراثة عرش دهلى ، الأمر الذى أدى إلى حدوث ثورات وفتن حول اغتصاب الحكم. بأبعد عن البلاط كل أعوان وأنصار سيده علاء الدين ، وجردهم من وظائفهم وأسندها إلى أعوانه وأنصاره.

على أن كافور لم تصف له الأمور ، ولم تبتسم له الأيام طويلا ، ولم يسعد بالسيطرة على سلطنة دهلى على الرغم من إجراءات العنف وسياسة البطش والقمع التى اتخذها ضد المشتبه فيهم ، فقد تذمر منه الناس وترقبوا ساعة الخلاص من هذا الحكم الغاشسم ، واحاطوا كل تحركاته بالتجسس ، ودبرت الكثير من المؤامرات للتخلص منه ، وآخرها حدث حينما أرسل فريقا من جنده لقتل مبارك خان فى سجنه ، ولما اقترب الجند من هذا الأمير ، ألقى ما لديه من ذهب وفضة لهم وناشدهم عدم التعرض له ، فاستجاب الجند لندائه ، وتيقظ ضميرهم ، ولم يكن غائبا عن أذهانهم أن كافور رجل ظالم مستبد ، وآن الأوان للتخلص منه ، وتمردوا عليه ، بل ساروا إلى قصره ، وشنوا عدة هجمات على القصر ، وتمكنوا من اقتحامه أخيرا ، وقتلوه ، وبذلك خلصوا البلاد من استبداد وبطش وجور كافور الغاشم الذى حكم البلاد خمسة وثلاثين يوما ارتكب خلالها أعمالا عدوانية بشعة ضد أفراد البيت الحاكم ورجال سيده.

لم يكتف الثوار بذلك ، بل أبرجوا عن مبارك وعينوه نائبا للسلطان شهاب الدين بدلا من كافور ، وقد بدأ حكمه للبلاد بداية

حسنة ، فأعطى النبلاء والقواد ورجاله أمانا على أنفسهم ، ورد إليهم الأموال التى صادرها كافور منهم فطابت نفوسهم ورضوا عنه وناصروه والتفوا حوله وأيدوه ، غير أنه عاد إلى الاستبداد وأعمال العنف ، وحدثته نفسه بالانفراد بالسلطة فنفى شهاب الدين عمر إلى جاوليار ، وعزله عن العرض ، وولى هو السلطنة ولم يعد له منازع فى الحكم أو البلاط واعتزم تحطيم وتدمير كل مراكز القوى التى بالمملكة ، والتى قد تضعف نفوذه أو تعرقل سياسته ، وبدأ بالجند الذين أفرجوا عنه ، وقتلوا كافور ، وولوه بدلا منه ، فشتتهم فى البلاد ، ورفض الاستعانة بهم فى إدارة دولته ، وفى نفس الوقت تخلص من أنصار كافور ، وكل من يخشى بأسه.

كان كافور – خصى علاء الدين – مقربا إليه وصاحب حظوة عنده ، وكان طموحا يتطلع إلى السيطرة على مقاليد الأمور فى البلاد عقب وفاة سيده ، فانتهز فرصة اشتداد مرض السلطان ، وحمله على كتابة وصية بتولى ابنه الطفل عمر خان – وكان غرا صغيرا لايتجاوز السادسة من العمر – وفى نفس الوصية طلب السلطان من ابنه الأكبر خسروخان التخلى عن المطالبة بالعرش ، ولزوم الولاء والطاعة لأخيه الصغير ، وعهد السلطان إلى كافور بالوصاية على ابنه الطفل ، وبذلك حقق كافور على يد سيده السلطان ما كان يصبو ويتطلع إليه من الاستئثار بالسلطة والنفوذ فى سلطنة دهلى.

لما توفى علاء الدين سنة ١٣١٦م جمع كافور النبلاء وكبار رجال الدولة ، وأظهر لهم وصية السلطان الراحل التى أودعها إياه والتى تتضمن تولية ابنه شهاب الدين عمر. وبذلك خلف هذا الطفل الصغير أباه ولقب شهاب الدين عمر خلجى. وبتوليته أصبح كافور سيد الموقف فى سلطنة دهلى بلا منازع.

ولكى يكتسب كافور احترام وتقدير الناس ، وتزداد سيطرته على السلطان الطفل وعلى الحكم ، تزوج من أمه رامادیفا Rama Deva وأمر بسمل عين خسروخان الابن الأكبر للسلطان علاء الدين وأخيه شادى خان ، حتى لا يطالب أحد الأخوين بالعرش بعد أن فقدا الإبصار ، ولم يكتف بذلك ، وإنما جرد والدة خسروخان من حليها ، وأمر بنفيها إلى جاوليار.

وشعر كافور أنه غير آمن على نفسه ، وفعلا اشتدت المعارضة له ولحكمه ، واستنكر الناس فعله واستقبحوه ، ولم يرضوا عن سيطرته على الحكم ، فضلا عن تشويه وإذلال بعض أفراد البيت الحاكم ، وعادت الفوضى والاضطربات إلى البلاد ، فسعى إلى حماية نفسه من أعدائه المتربصين به ، فعمد إلى نفى كل من تحوم حوله الشبهات من الأمراء وقواد الجيش وكبار رجال الدولة ، بل شوه بعضهم بالسمل ، وصادر أموال معارضيه فضلا عن إلحاقه ويلاته بهم ، وإزدادت شكوكه.

أعلن مبارك شاه نفسه سلطانا فى أبريل سنة ١٣١٨ وبدأ عهده — كما فعل أسلافه من قبل — بمنح الهبات والهدايا والألقاب لكبار رجال الدولة.

كانت البلاد فى ذلك الوقت تمر بظروف حرجة للغاية وفى أشد الحاجة إلى حكومة قوية تنقذها من الهاوية التى تردت فيها ، وترأب الصدع ، وتعيد الأمن والطمأنينة إلى الناس ، بعد أن فرقت بلادهم الفتن والثورات ، وعمت فيها القلاقل والاضطرابات نتيجة للمنازعات والمشاحنات حول السلطة والنفوذ ، وأدى السلطان الجديد فى مستهل عهده دوره فى إعادة الهدوء والسكينة إلى البلاد ، وأثبت أنه رجل الساعة ، وأصلح البلاد فاطمأن الناس إلى العهد الجديد. وأفرج السلطان عن الألوف الذين زجوا فى السجون بتهم التمرد — أو الاشتباه فى ذلك — على كافور ، ومنح الجند مكافآت مالية ، وأغدق المال على المحتاجين من رعاياه ، وأعاد الأموال التى صادرها علاء الدين إلى أصحابها ، وخفف عن الناس عبء الضرائب ومنع كبار موظفى الحكومة من استغلال الأهلين ، وكان ينظر فى الشكاوى والالتماسات التى يرفعها الناس له ، ويضع بنفسه الحلول المناسبة لها ، وألغى القوانين الصارمة التى وضعها علاء الدين على التجار ، وكانت تحدد أرباحهم فانتعش التجار ، وراجت التجارة ، وخفف عن الفلاحين ضريبة الأرض ، ورفع أجور الموظفين. وباختصار تحسنت أحوال الناس المعيشية على اختلاف

طبقاتهم. وإذا أضفنا إلى ذلك الحريات التى كفلها للشعب تستطيع أن تقول إن هذا السلطان حقق لبنى وطنه مالم يحقق لهم منذ سنوات طوال.

على أن رجال علاء الدين لم يرضوا عن السلطان الجديد ، لأنه أقصاهم عن مباشرة شئون الدولة ، وعولوا على التخلص منه ، وتزعم هذه الحركة أسد الدين ، وقد انتقد هؤلاء المعارضون السلطان قطب الدين لسوء اختياره لموظفى الحكومة ورؤساء الدواوين ورجال البلاط ، واتهموه بأنه يقضى وقته فى اللهو والعبث والاستماع إلى الغناء ، وقاد أسد الدين المعارضة فى مؤامرة كبرى تهدف إلى قتل السلطان قطب الدين وهو فى طريقه إلى دهلى ، وتوليته ـ أى تولية أسد الدين ـ السلطنة.

لم يقدر لهذه المؤامرة النجاح ، فقد أخطر كبار رجال الدولة السلطان بالمؤامرة قبل تنفيذها ، فتدارك الأمر فى أوله ، وتلاحقه فى ابتدائه قبل أن تضطرم نار الثورة ، ويعم الكرب ويشتد البلاء ، فأمر السلطان بالقبض على زعيم حركة الانقلاب المرتقب ، وكل من اشترك وساهم فى محاولة قلب نظام الحكم من قريب أو بعيد ، وأمر بتقلهم ، وصادر أموالهم ، وكان انتقامه شديداً جداً من الثوار حتى أنه قتل بعض أطفالهم ، وشرد البعض الآخر فى شوارع دهلى لا مأوى لهم ، ولا عائل يعولهم ، ولم يكتف بذلك ، بل نصب المشانق فى دهلى وأقام مذبحة مروعة قتل فيها كل من ينتمى إلى البيت

الحاكم بصلة وكل من تحوم حوله الشبهات باحتمال قيامه أو اشتراكه في انقلاب ضده في المستقبل ، واستأصل الفروع والجذور من أسرة علاء الدين ، وأسرف في القتل وإراقة الدماء حتى نائبه الذى كان مخلصا له ، واتهمه بالإهمال وعدم كشف المؤامرة في حينها.

ولكن سياسة العنف هذه لم تقض على محاولة عزل قطب الدين عن العرش ، فقد ظهرت مؤامرة أخرى اختلف المؤرخون حول اسم السلطان الذى رشحه المتآمرون لتولى الحكم ، وضربوا العملة باسمه. فيذكر مؤرخ متأخر أنه ابن خسرو خان بن علاء الدين ، أما باراتى فلا يذكر ذلك وينفي اشتراك خسروخان أو أحد أبنائه في المؤامرة ، وعلى ذلك فإن الاسم الذى نقش على العملة ، الملك شاهين ــ نائب السلطان على دهلى والذى قتله السلطان على أثر دخوله دهلى.

لم يكتف السلطان قطب عن أعمال العنف ضد أبناء علاء الدين لأنه كان يتوجس خيفة ، ويخشى أن يتآمروا عليه ، وينضم إليهم أنصار أبيهم ، وهم خسروخان ، وشادى خان ، وشمس الدين ، وأمر بالقبض عليهم وإرسال أفراد عائلاتهم إلى دهلى ، وهؤلاء الأمراء سملت عيونهم ، وعاشوا في المنفى في شظف من العيش ، وعمد السلطان إلى إذلالهم ، فكتب إلى خسروخان رسالة ذكر له فيها أنه ــ أى خسروخان ــ فقد بصره واعتلت صحته ، وعرض عليه أن يفرج عنه ، ويعينه حاكما على أحد الأقاليم ، ويمنحه الألقاب

والامتيازات المناسبة له ، فى مقابل أن يتخلى عن زوجته دفال رانى التى قال إنه أصبح ذليلا لها ، وطلب منه إرسالها إلى البلاط لتهدئة عاطفته نحوها وإعادتها إليه بعد ذلك جارية مطيعة. على أن خسروخان قد حزن من هذه الرسالة ، ورفض الإذعان لنداء السلطان ، وتمسك بزوجته ، بل آثر الموت على التخلى عن محبوبته ، ورفض إغراءات السلطان له التى يهدف السلطان منها اغتصاب زوجته بالقوة. وقد تعرض خسرو خان فعلا للموت بسبب رفضه عرض السلطان فقد أمر باغتياله ، وكان حدثا مروعا اهتزت له قلوب الناس فى كل مكان ، ووصفه ابن بطوطة وعلم به ماركو بولو من بعض الهود ، ورواه غيره من الرواة. وأرسلت ديفال إلى دهلى ، وأمر السلطان بقتل شادى خان ، وشمس الدين وغيرهم واغتصب زوجاتهم ، وشرد أطفالهم ، وقد وصف لنا بارانى مدى استياء الناس من الجرائم التى اركبها قطب الدين ولكن على الباغى تدور الدوائر.

على أن أعمال العنف التى اتبعها السلطان مع أعدائه لم توقف المؤامرات ضده ، ولم تخمد الثورات المعارضة لحكمه فى البلاد ، بل زادت اشتعالا ، وأبرز هذه الانتقاضات ما قام به نظام الدين أوليا ، وهو رجل تقى ورع ، طبقت شهرته الآفاق ، ووفد إليه الناس من كل صوب وحدب للزيارة والتبرك ، وكان علاء الدين يقدره ويعتز به ، أما قطب الدين فقد ناصبه العداء ، وخشى من

تجمع الناس حوله لما فى ذلك من خطورة عليه ، إذا قاد هذه الجموع فى حركة غزو ضده فمنع النبلاء وكبار رجال الدولة من زيارتــه ، وحاول إضعافه وإبعاد الناس عنه ، فشجع الشيخ على النيــل منــه ، والحملة عليه ، وتحريض الناس على التفرق من حوله ، كما حرض المشايخ الكبار فى الدولة عليه ولم يكتف بذلك بل أمر بقتلــه حتــى يخمد ما قد يثيره هذا الشيخ من متاعب فى وجه هذا السلطان الظالم.

أدت سياسة السلطان الداخلية المتسمة باليقظة إلــى توقــف الحركات الاستقلالية فى الكوجرات ودكــا ، ولكــن قســوته علــى خصومه وإسرافه فى إراقة الدماء ، واستبداده وعدم استماعه لنصح الناصحين ، أدى إلى اشتداد كراهة الناس له ، وتطلعهم إلى التخلص منه ، وبذلك فقد ثقة الرعية به ، وازداد بطشه بالناس ، وقضى أيامه فى لهو وعبــث ومجــون ، وضــم بلاطــه المغنــين والمغنيــات والراقصات.

لم تتوقف المؤامرات ضد هذا السلطان على الرغم من بطشه بأعدائه ، فاندلعت ثورة ضده فــى ديفــاكيرى قادهــا يــاك لاخــى Yaklakhi فعول السلطان على إخماد هذه الفتنة وأرسل فرقة مــن الجيش لقمعها ، ولكن الثائر لم يعــد العــدة الكافيــة لصــد جــيش الســلطان ، وكان يعتقد أن جند السلطان سينضمون إليه نظراً لحالة التذمر السائدة فى البلاد ، ولكن حدث مالم يكن يتوقع ، فهاجمه جيش دلهى ، وخشى رجاله سوء العاقبة ، فانفضوا من حولــه ، وعندئــذ

ضعف أمر الثائر ، فقبض عليه جند دهلى وأمر السلطان بقطع أنفه وأذنه. وبذلك فشلت هذه الحركة ، واشتدت قبضة السلطان على الدولة ، وتأكدت سيطرته الكاملة عليها من جديد.

ولكن طغيان قطب الدين واستبداده لم يوقف محاولات قتله واغتياله ، فتعددت المحاولات للتخلص منه وكان آخرها مؤامرة وزيره خسرو ، فقد نجح في ضم بعض النبلاء إليه ، وعاهدوه على النصرة والتأييد ، وانضم إليه الكثير ممن لحقهم الضيم على يده.

بدأ الوزير مؤامرته ضد السلطان ، بأن أقنعه بأنه ــ أى السلطان ــ يخرج فى حروب كثيرة ، ويجب فى غيابه أن يطمئن على الأمن والنظام فى دهلى ، ولا يستطيع ــ أى خسرو ــ الاطمئنان لأحد فى هذه المهمة سوى رجاله المقربين من الكجرات ، فوافق السلطان على طلب وزيره وامتلأت دهلى بأهل الكجرات ، وأغدق عليهم خسرو الأموال ، وأعطاهم خيولا وأسلحة وملابس ، واستكثر خسرو منهم ، حتى صاروا حوالى أربعين ألفاً كلهم طوع إرادته ورهن إشارته. وبذلك عظم شأن خسروخان وقوى أمره ، واشتد بأسه ، وعهد إلى رجاله بحراسة القصر ، فأصبح هذا السلطان تحت رحمة وزيره ، ودبرت المؤامرة ، وكان من اليسير جدا نجاحها وتنفيذها وفقا للخطة المرسومة ، فأمر خسرو رجاله بقتل السلطان ، فانهالوا عليه ضربا بسيوفهم حتى قتلوه وألقوا رأسه فى

فناءُ القصر. وبذلك تجرع هذا السلطان من نفس الكأس الذى أسقاه للكثيرين فى أبريل سنة ١٣٢٠م. وخاب كل جبار عنيد.

وقد لحق الناس من السلطان قطب الدين الكثير من المظالم، على الرغم من أنه بدأ عهده بالعدل بين الرعية وإصلاح أحوال البلاد، ولكن المؤامرات العدية التى تعرض لها جعلته غير مطمئن على نفسه وعلى ملكه، فاشتد فى قمعها وقلب على شعبه ظهر المجن، فطغى وتجبر، بل أساء إلى مشاعر الناس الدينية، فأهمل المراسم الدينية كالظهور فى الصلاة، والاحتفالات فى رمضان والعيدين وأساء إلى الدرويش ـ نظام الدين، وعلى الرغم من ذلك فقد لقب بألقاب لا يستحقها، مثل خليفة، الإمام الأعظم، أمير المؤمنين.

ومهما يكن من أمر فقد عبر خسزوخان عن سخط شعب المملكة الهندية على سلطانها، وتخلص منه، لذا نادى به النبلاء ورجال الدولة سلطانا، وتربع على عرش سلطنة دهلى، ولقب ناصر الدين خسروشاه، وأمر بالدعوة له فى الخطبة على أنه أمير المؤمنين.

ولى خسروشاه العرش فى هذه الظروف العصيبة، ولما كان مدينا لبنى قومه من الكجرات فيما بلغه من جاه فقد خصهم بالمناصب الرفيعة فى الدولة، واعتمد عليهم فى شئون الحكم والإدارة.

على أن هذا السلطان الجديد اتخذ سياسة تختلف كل الاختلاف عن سياسة أسلافه من الحكام المسلمين ، فقد أباح لكفار الهنود إظهار نحلهم ومللهم والعبير عنها علنا ، فنصبوا أصنامهم فى كل مكان ، وازداد الأمر خطورة ، فاستفزوا شعور المسلمين ، ومزقوا المصاحف ، ووضعوا أصنامهم فى القصر الملكى ، وهاجموا المساجد واقتحموها ، ومنعوا المسلمين من تأدية شعائرهم فيها ، بل نصبوا أصنامهم فى بيوت يذكر فيها اسم الله ، واغتصبوا البنات المسلمات. ومن الطبيعى أن يرضى كفار الهنود عن السلطان فالفوا حوله وناصروه ، ورأوا فيه خير معين على المحافظة على شعائرهم وإظهارها والانتقام من المسلمين ، ولم يكتف هذا السلطان بالتغاضى عن إيذاء شعور المسلمين الدينى بل فرض عليهم الأموال ، وأغدق عليهم.

وبرر السلطان تصرفه هذا بأنه انتقام من المسلمين الذين دمروا معابدهم ، ودمروا أصنامهم ، وأحرقوا كتبهم ، لذلك يرى البعض أن حكم هذا السلطان مظهر من مظاهر الردة عن الإسلام ، ونستبعد ما يذكره بارانى بأن السلطان أراد أن يعيد الوثنية إلى الهند ، ويعيد البلاد إلى حكم راجات الهنود ، ذلك أنه دخل الإسلام وهو طفل صغير وعاش ونشأ فى الحياة الإسلامية وكان شديدا قاسيا حينما اشتبك فى دكا مع كفار الهنود قبل توليته الملك ، بل كان أكثر قسوة من أى حاكم مسلم ، وفى نفس الوقت ظل على دينه وعقيدته

وإنْ ظل تاركا حركة اضطهاد المسلمين من كفار الهنود تسير في مجراها دون أن يتدخل لإنهائها أو يشترك في دفعها ، وأبقى على الحكام المسلمين في الولايات ، وربما أراد السلطان بذلك كسب محبة وتأييد فريق كبير من الناس للوقوف إلى جانبه ومناصرته ضد حركات التمرد التي انتشرت انتشارا واسعا ضد سلطان دهلي ، ويقودها عادة كبار الدولة من المسلمين ضد هذا السلطان الوضيع الذي ينتمي أصلا إلى طبقة جامعي القمامة في الهند الغربية ، فقد عجل بنهايته بسياسته الغاشمة التي آذت شعور المسلمين ، وساد التذمر بينهم ، وأعدوا عدتهم للخلاص من هذا الحاكم – ناصر الكفرة الملاعين.

وقد قاد تغلق حركة المعرضة ضد السلطان ، فزحف بجيش كبير يضم خيرة جند شمال غرب الهند وصناديدهم ، إلى دهلي ، فأرسل خسروخان جيشا لصد عدوه ، وقد تناقص جيشه بعد فرار الجند الغيورين على دينهم منه ، وإنضمام بعضهم إلى جيش تغلق ، ومهما يكن من أمر فقد التقى الجمعان في ديوبالبور Deopalpur وهزم الجيش الملكي ، وتفرق الجند ، ولاذوا بالفرار ، بل فر قائد الجيش الملكي ، تاركا الأسلحة والخيول الفيلة والأموال ومهمات الجند واستحوذ جيش تغلق على هذه الغنائم ، ثم زحف تغلق وجنده إلى دهلي ، وانتظر السلطان مصيره المحتوم وقدره الذي حدده بسياسته الغاشمة.

سار تغلق وجنوده إلى دهلى لا يعترض طريقهم معترض ، ولما اقترب تغلق منها نصب معسكره ، ودعا الناس فى دهلى إلى طاعته ، ولقيت دعوته هوى من أهل دهلى الذين كرهوا خسروخان الذى أذى شعورهم ومعتقداتهم ثم دارت المعركة الفاصلة سنة ١٣٢٠ بين جيش تغلق وجيش السلطان انتهت بهزيمة جيش السلطان ومقتله – أى السلطان – وألقيت رأسه فى فناء القصر ، كما ألقيت رأس مبارك شاه. وبذلك انتهى حكم خسروخان بعد أربعة أشهر وبنهايته انتهى حكم سلاطين الخلجيين فى بلاد الهند.

٣ - الأحداث الداخلية فى سلطنة دهلى الإسلامية فى عهد بنى تغلق

ينسب آل تغلق إلى عنصر تركى ، وكان يقيم فى الهند منذ زمن طويل ، وأول من حكم سلطنة دهلى من هذه الأسرة ، غياث الدين تغلق شاه ، قدم بلاد السند فى خدمة بعض التجار فى أيام السلطان علاء الدين ، ودخل فى خدمة أولوخان – أمير السند إذ ذاك – فظهرت شجاعته ، وتدرج فى سلك الفروسية ، حتى صار أمير الخيل ، وكان أولوخان يعده من كبار الأمراء ، وسمى بالملك الغازى لأنه صد الكثير من غزوات المغول وهجماتهم ، وحاصرهم ونكل بهم ، ولما ولى قطب الدين ولاه مدينة دبال بور وأعمالها ، وعهد إلى بانه محمد تغلق بإمارة الخيل وظل يشغل هذا المنصب فى عهد السلطان خسروشاه ، فلما استاء تغلق من حسروشاه الذى اغتصب

العرش ، وقتل السلطان ، وأباح للهنود الوثنيين إظهار نحلهم ، والتنكيل بالمسلمين ، وأظهر أمورا منكرة منها النهى عن ذبح البقر على قاعدة كفار الهنود ، وأعلن ــ أى تغلق ــ الثورة والخروج على الطاعة ، وكان له ثلاثمائة من أصحابه الذين يعتمد عليهم فى القتال ، وكتب إلى كشلوخان ــ أمير الملتان ــ يطلب منه القيام بنصرته والأخذ بثأر قطب الدين لسابق فضله وإخلاصه ، ولكن كشلوخان اعتذر لأن ابنه فى خدمة السلطان فى دهلى ، فحرض تغلق ابنه باصطحاب ابن كشلوخان ، والهرب معا من دهلى ، فلحق الرجلان بتغلق ، وحينئذ واتت الفرصة تغلق ، فحشد أنصاره ، وأعد العدة ، والتف حوله الكثير من الناس ، فقوى أمره ، واشتد بأسه ، وانضم إليه كشلوخان وزحف الجيش الثائر إلى دهلى ــ كما أوضحنا ــ وهزم تغلق جيش السلطان بقيادة أخيه ــ خان خانان ــ واستولى على خزائنه ، وشتت شمل جنده ، وقصد تغلق دهلى ، وخرج إليه خسروخان فى عساكره ، وفرق الأموال على أنصاره ، ودارت رحى معركة بين الفريقين انتهت بهزيمة تغلق غير أن الجند السلطانى انشغل عقب المعركة فى جمع الغنائم فباغتهم جند تغلق على حين غفلة منهم ، وهزموهم شر هزيمة ، ولاذ من نجا من العدو بالفرار ، فدخل جند تغلق دهلى لا يعترضهم معترض ، ولا يعوقهم عائق ، ودخل تغلق القصر الملكى ، وجلس على سرير

الملك ، وقدم الناس لمبايعته ، وبذلك انتقل حكم سلطنة دهلى من الحلجيين إلى بنى تغلق.

لم يقدر لسلطنة دهلى الإسلامية الهدوء والاستقرار فى عهد بنى تغلق ، وإنما كثرت القلاقل والاضطرابات فى الدولة وتعرض سلاطين هذه الأسرة للمؤامرات التى تستهدف بالدرجة الأولى انتزاع كرسى الحكم منهم ، بل تآمر الابن على أبيه ، كما حدث سنة ١٣٢٥ ، ذلك أن محمد بن تغلق ثار على أبيه ، وكان الأب ينقم على ابنه تقربه للوالى نظام الدين البذوانى ، وساءت منه أمور منها استكثاره من شراء المماليك وإجزاله العطايا واستجلابه قلوب الناس ، فلما عاد تغلق من سفره ، أمر ابنه بإقامة قصر فى الطريق إلى دهلى ، وأقام محمد بن تغلق القصر ومعظم بنائه من الخشب ، وصمم هذا القصر بحيث إذا وطئته الفيلة ، وقع ذلك القصر وسقط ، ونزل السلطان بالقصر ، وأطعم الناس وتفرقوا ، واستأذنه ولده فى أن يعرض الفيلة بين يديه وهى مزينة فأذن له ، فلما وطئت الفيلة القصر ، سقط الكشك على السلطان وولده محمود ، ولقى السلطان حتفه ، ودفن بخارج البلدة التى سميت باسمه ، تغلق آباد ، وبها كانت خزائن تغلق وقصوره ، وبها القصر الأعظم ، واستولى محمد على هذه الكنوز ، وولى السلطنة ، ولقب أبو المجاهد محمد شاه.

كان السلطان محمد بن تغلق غريب الأطوار ، فهو أحب الناس إلى إغداق العطاء ، وإراقة الدماء ، فلا يخلو بابه من مغن

يغنى أو حى يقتل ، وله حكايات كثيرة فى الكرم والشجاعة ، والفتك والبطش بذوى الجنايات ، وهو أشد الناس مع ذلك تواضعا ، وأكثرهم إظهارا للحق والعدل ويتشدد فى تأدية الفرائض الإسلامية ، ويعاقب تاركى الصلاة وفاطرى رمضان.

رأى السلطان محمد بن تغلق نقل حاضرة دولته إلى مدينة ديوكر لحصانتها وتوسطها مملكته الواسعة المترامية الأطراف ، ولكى يأمن من خطر المغول الذين يهاجمون دهلى من وقت لأخر ، وأسمى العاصمة الجديدة دولت أباد ، وأمر سكان دهلى بترك بلدهم ، والهجرة إلى العاصمة الجديدة طوعا أو كرها ، وشق الطرق المؤدية إلى دولت أباد ، وحمل سكان دهلى أمتعتهم ، وهاجروا من مدينتهم الحبيبة إلى قلوبهم كارهين ، وساروا إلى مقرهم من مدينتهم على كره منهم فى رحلة شاقة ذاقوا ألوان العذاب ، وهلك كثيرون منهم ، وخربت دهلى بهجرة أهلها منها ، وأصبحت بلدة موحشة ، تبكى قصورها ودورها من شيدها وبناها وأقام صرحها. أما المهاجرون من ديارهم وبلدهم ، فلم يستطيعوا المعيشة فى المدينة الديدة ، وقاسوا ويلات الجوع والحرمان ، لأن سبل المعيشة فيها غير متوافرة وغير كافية للقادمين الجدد وقد ارتكب السلطان خطأ جسيما لأنه لم يراع الشروط الواجب توافرها فى تشييد المدينة الجديدة ، فيجب أن تقع فى بقعة زارعية تكفل لسكانها العمل والعيش

، أو على طريق تجراى ، يضمن لأهلها المغيشة من عمليات البيع والشراء فضلا عن طيب الهواء للسلامة من الأمراض.

ومهما يكن من أمر فقد تراجع السلطان عن قراره بعد أن أدرك فشل مشروعه ، وأمر أهل دهلى بالعودة إلى بلدهم ، غير أن دهلى قد تطرف اليها الخراب والدمار ، ولم تعد تصلح للحياة ، فشيد السلطان لهؤلاء القوم الذين قاسوا الشدائد من سياسته الغاشمة ، مدينة قرب دهلى ، كفل لهم فيها أسباب الحياة الميسرة ، والأمن الغذائى.

لم تستقر الأمور فى سلطنة دهلى فى عهد محمد بن تغلق فقد قامت ضده عدة ثورات ، وحركات استقلالية ، واضطربت الدولة اضطرابا شديداً فغادر السلطان دهلى — على الرغم مما كانت تقاسيه من مجاعة — إلى إقليم الدكن ، لقمع ثورته ، لكنه اضطر إلى العودة إلى دهلى بعد أن فتك الوباء بجنده سنة ١٣٣٥م ، كما أعلنت البنغال الاستقلال عن دهلى بقيادة فخر الدين ، ولم يستجب أمراء البلدان المجاورة للبنغال لأوامر السلطان بالخروج إلى البنغال ، وقمع الثورة مما يدل على أن سلطان دهلى قد فقد نفوذه فى تلك البلاد.

وعمت الفتن والاضطرابات لاهور وديوكر وغيرها من الولايات الهندية ، ولم يستطع السلطان القضاء على هذه الفتن ، وتوفى سنة ١٣٥١م بعد أن تدهورت سلطنة دهلى ، واستقلت معظم ولاياتها.

لم يكن للسلطان محمد بن تغلق وريث يخلفه ، لذا ولى ابن عمه فيروز تغلق الحكم من بعده ، وقد حكم هذا السلطان بالعدل ، وسار فى الناس سيرة حسنة ، غير أنه واجه المتاعب الداخلية ، فقد ظلت البنغال على تمردها وتزعم الحركة الانفصالية فيها " حاجى اليأس " ، لذا لم يتغاض هذا السلطان عن هذه الحركة ، وعول على إعادة البنغال إلى حوزته ، وأرسل منشوراً إلى الأهلين يدعوهم إلى الاستسلام والعودة إلى الولاء والطاعة إلى سلطان دهلى ، ووعدهم بالعفو والصفح ، ورفع الضرائب عنهم سنة كالمة إن استجابوا لندائه ، وأذاع فى منشوره بأنه مفوض من قل الخليفة العباسى بالقاهرة ، وأن الخروج عليه خروج على الإسلام ، وسار هذا السلطان إلى البنغال ، وطهر البلاد فى طريقه من المتمردين ، ودخل إقليم " جنجنكر " ودخل الراجا فى طاعته ، بل اعتنق الإسلام ، كما أن حكام المدن المجاورة ، أقبلوا على السلطان معلنين إسلامهم ، والدخول فى طاعته.

كذلك عاد " الزط " فى لاهور وما جاورها إلى التمرد والعصيان ، فعهد فيروز شاه إلى أحد قواده لقمع حركة الزط ، فدخل معهم فى معركة حاسمة ، أدت إلى هزيمتهم ، وأسر زغيمهم.

أما عن الدكن فقد اتجه أهلها إلى الاستقلال عن دهلى ، وتمكنوا منه فعلا منتهزين فرصة انشغال السلطان بمتاعبه الداخلية

والخارجية ، وقد تعددت الثورات فى الهند التى نتج عنهـا ضـياع مساحات كبيرة من الأراضى من سلطنة دهلى.

على أن هذا السلطان كان محبوبا من رعاياه ، فقد كان بـارا بالفقراء وأنشأ ديوانا للخيـرات لمسـاعدة الفقـراء علـى قضـاء ضروريات حياتهم ، وتقديم معونات مادية للفتيات فى حالة الزواج ، وإعانة الأطفال اليتامى العجزة والشيوخ.

لكن سلطنة دهلى ظلت مسرحا للقلاقل والاضطرابات. ففـى أواخر عهد السلطان فيروز شاه ، فوض هذا السلطان أمـور دولتـه إلى وزيره خان حهان ظفرخان ، ولكن هذا الوزير أخل بالثقة التـى منحها له السلطان ، واعتزم الاستحواذ على العرش ، وإزاحة ولـى العهد ، " محمد بن فيروز " من طريقه حتى يخلوا له الأمر ، وضـم إليه فعلا بعض الأمراء ورجال الدولة ، وحرض السلطان على خلع ابنه من ولاية العهد بتهمة أنه يتآمر عليه مع بعض أعدائه ، ولكـن السلطان فطن إلى سوء نوايا وزيره ، وعزله ، ومن ثم انفرد محمـد بن فيروز بأمور البلاد بلا منازع ، ولكن هذا الأميـر كـان سـيئ السيرة ، قاد البلاد إلى الدرك الأسفل ، وعكف على اللهو والعبـث ، بل اعتمد على عناصر السوء فى البلاد وخارجه ، فثار عليه الأمراء ورجال الدولة ، والتفوا حول ابنى أخى السـلطان ، " بهـاء الـدين وكمال ". وبذلك أصبح فى دلهى فريقان يتنازعان السلطة والنفـوذ ، وتصدى كل فريق للآخر ، وتدهور الوضع فى البلاد تبعـا لـذلك ،

ودارت معارك دامية فى شوارع دهلى بين الفريقين ، فلم ير السلطان الشيخ بدا من الخروج من عزلته ، وظهر للناس ، وأقنعهم بلزوم الطاعة والهدوء والسكينة ، والتوقف عن أعمال الشغب ، وكان النداء هذا السلطان الطيب تأثير كبير فى قلوب الأهلين ، فهدءوا واستكانوا ، وكفوا عن إثارة الفوضى والفتن.

عزل السلطان ابنه محمد من ولاية العهد لأنه من عوامل الاضطرابات فى دهلى ، وأسند ولاية عهده إلى حفيده غياث الدين بن فتح خان ، ولم يلبث أن توفى السلطان الشيخ ، وولى حفيده الشاب الحكم. على أن السلطان الجديد لم يكن جديرا بتولى مهام الحكم ، وهو فى غضاضة الشباب ، فقد انصرف إلى اللهو والعبث وأغفل مشورة الأمراء وأهل الحل والعقد فى الدولة ، فثاروا ضده ، وكثر المعارضون له ، وقاد الحملة ضده ابن عمه أبو بكر ، وهاجم الثوار القصر الملكى ، فلاذ السلطان بالفرار منه ، على أن الثوار لحقوا به ، وقتلوه بعد أن حكم البلاد ما يقرب من خمسة أشهر ، وولى أبو بكر السلطنة.

على أن محمد بن فيروز لم يتغاض عن حركة ابن عمه أبى بكر ، واغتصابه العرش ، فجمع حوله الكثير من الأنصار فى الدوابـ وقوى أمره ، واشتد بأسه ، ودخل دلهى واقتحمها ، وقبض على السلطان الجديد أبى بكر سنة ١٣٩١ ، وولى هو السلطنة. على أن البلاد لم تهدأ فى العهد الجديد ، وإنما ظلت مضطربة متوترة ،

وتنافس الأمراء ورجال الدولة حول السلطنة والنفوذ ، وانقسم الناس إلى أحزاب وشيع ، حتى جنح كثير من حكـام الولايـات وأمـراء الهنادكة إلى نبذ سيادة دهلى والاستقلال بما فى أيـديهم مـن بـلاد وحصون.

وظلت سلطنة دهلى فى هذا الوضع المضطرب حتى تـوفى آخر سلاطين آل تغلق سنة ١٤١٢ ونصب أعيان دهلى دولت خـان ــ من الأسرة اللودية ــ حاكما على البلاد ، وتعرضت سلطنة دهلى للغزو التيمورى فى الفترة من ١٣٩٨ حتـى ١٤٩٠م الـذى أهلـك الحرث والنسل ، وأتى على الأخضر واليـابس ، وأقـام الخضـر خانيون ــ الذين خلفوا آل تغلق ــ دولتهم فى دهلى فى ظـل هـذا الدمار ، وكان خضر خان أول أفراد هذه الأسرة من أمراء فيـروز شاه التغلقى ، وكان واليا على الملتان ، ولما تـوفى محمـود شـاه التغلقى أعلن استقلاله.

الإمارات المستقلة فى الهند عن دهلى

لم يكن سلطان دهلى طوال العصور الوسطى قـادرا علـى السيطرة على الولايات التابعة للملكته ، ومن ثـم اسـتقلت بعـض الولايات عن دهلى وخصوصا البعيدة النائية عنها ، حتـى انـدمجت نهائيا فى إمبراطوريـة المغـول ، وهـذه الإمـارات " Jaunpur Mandu " وكشمير والبنغال ، واستقلت كذلك مملكة " الكجـرات " سنة ١٤٠٠ وشيد السلطان أحمد شاه ١٤١١ــ١٤٤١ مدينة أحمد آباد

لتكون عاصمة لمملكة الكجرات ، وتقع فى وسطها ، وتشتهر هذه المملكة بثرائها ، وتقدمها فى صناعة المنسوجات الحريرية والقطنية ، وتتصل بالبحر بسهولة ويسر ، وقد أشاد الزوار الأجانب بمدينة أحمد آباد ، وذكر بعضهم أنها من أجمل مدن الأرض وشبهها آخرون بالبندقية.

ومن أشهر سلاطين الكجرات " محمد بياجارها " (١٤٥٠_١٥١١) وكان له تأثير كبير على الزوار الأجانب مثل الرحالة الإيطالى Ludovico varthema ، ومظهر هذا السلطان أثار الدهشة ، طويل القامة ، له شنب كثيف ، ولحية تتدلى إلى وسطه ، ويتخذ أدوية تحصنه من السم.

ولى محمود العرش فى سن الثالثة عشرة ، ورغم صغر سنه استطاع أن يسيطر على البلاد ويتغلب على خصومه ، وسيطر على بعض البلاد المجاروة وتغلب على دولة Champanir الهندية ودخل خلفاؤه فى حروب مع الراجيوتيين فى وسط الهند ، وفى سنة ١٥٣٤ استولى السلطان محمود (١٥٢٦_١٥٣٧) على " شيتور " ولاذ أميرها بالفرار ، وألقت النساء فى هذه البلدة بأنفسهن فى النار حتى لايقعن فى الأسر ، وتعرض رجال شيتور لسيوف المسلمين ، ومزقوا شر ممزق. على أنه فى العام التالى هزم سلطان دهلى "همايون" ، سلطان بهادور ، ومن ثم سادت الفوضى والحروب

والأهلية إمارة الكجرات حتى امتلكها الإمبراطور المغولى أكبر سنة ١٥٧٢م.

واشتهرت العاصمة " أحمد آباد " بجمال مبانيها ، وشيد بهـا العديد من المساجد ، تميزت بارتفاعها ورشاقة مآذنها. وشيد السلطان محمود بجوارها قصرا على ضفاف بحيرة صناعية فى سـارخيج ، وتقع على بعد أميال قليلة مـن المدينـة. علـى أن أهـم إنجازاتـه العمرانيـة ، المسجد الجامع فى شامبانير وبه قبـة رائعـة ومـآذن وأعمدة ، ومزين من الداخل ، ونقشت على جدرانه آيات قرآنيـة ، ويعد من أجمل المنشآت الدينية وأبهاها فى غرب الهند.

وفى سنة ١٣٤٧ خلال حكم محمد تغلـق ، انتهـز ضـابط أفغانى يسمى " حسن جانجو " الفرصة ليكون دولة مستقلة عاصمتها Culbarage فى جنوب غرب الهند وتيمـى دولـة حيـدر آبـاد ، واستمرت مملكة " البهمانى " من سنة ١٣٤٧ حتـى سـنة ١٤٨٢ ، وامتدت فى إبان قوتها من البحر إلى البحر ، واشتملت على حيـدر آباد ومنطقة فى جنوب مدارس ، وجزء من منطقة بـومبى ، ومـن الطبيعى أن يدخل أمراء حيدر أباد فى حروب مع الحكام الـوراثين انتزعوا منهم الحكم. واشتمل بلاط ملوك البهمانى علـى مـواطنين وأجانب. وقد تحيز ملوك البهمانى إلى الأجانب دون المواطنين الذين عمدوا إلى إضعاف شأنهم ، وانتهجوا سياسـة دعـوة فريـق مـن المغامرين من العرب وفارس وبلاد الأفغان ، وأسندوا إليهم المراكز

الهُامة فى البلاد. وأدى ذلك إلى أحقاد عميقة. وزاد الأمر سوءا أن القادمين إلى البلاد من الشيعة. أما المواطنون فسنيون.

انقسمت مملكة البهمانى إلى أربع ولايات ، تتمتع كل منها بقدر من الاستقلال ، ولكل حاكم من حكام الولايات جيشه ، ومن حقه فرض الضرائب وجبايتها من ولايته ويعين الموظفين الذين يساعدونه فى حكم الولاية. وبالجملة كان يشرف على الشئون الإدارية والمالية والدفاعية لولايته. أما السلطان فيساعده ثمانية وزراء ، كل مسئول عن اختصاصه مثل المالية أو الشئون الخارجية ، القضاء ، الأمن ... إلخ ونظم ملوك هذه الأسرة الجيش أحسن تنظيم.

لما توفى مؤسس هذه الأسرة سنة ١٣٥٨ خلفه ابنه محمد الأول وبدأ هذا الملك حكمه بأن حصل على تقليد بالحكم من الخليفة العباسى بالقاهرة حتى يضفى على حكمه الصفة الشرعية.

نشبت حرب بين مملكة بهمانى ومملكة Vijayanagar ، تقدم فيها جيش بهمانى عبر أراضى العدو ، ولكنه لم يستطع مهاجمة أراضيها. وانتهت الحرب بعقدة اتفاقية سلام بين الطرفين.

وولى " محمد الثانى " العرش سنة ١٣٧٨ ، وكان حاكما عادلا مصلحا شجع العلوم والآداب ، ودعا إلى بلاطة الشاعر " حافظ

بن شيراز " ، وشيد مدارس لأبناء المسلمين اليتامى ، وحاول بكل ما يستطيع تقديم العون وتخفيف المعاناة عن الأرامل والفقراء من النساء. ومن سلاطين هذه المملكة الأقوياء " فيروز شاه " (١٣٩٧ـ ١٤٢٢) كان حاكما مستنيرا ومصلحا. وبلغت المملكة فى عهده أوج عظمتها وازدهارها. ولقد فرض السلام على مملكة Vijayanagar بعد أن لقنها درسا قاسيا عل الرغم من قسوة جيشها وضخامته ، فقد دبر أحد ضباطه خطة ناجحة بأن عهد إلى بعض جنده بالتنكر فى زى مشعوذين ، واستطاعوا اقتحام معسكر العدو ، وألقوا الذعر بين الجنود الهنود ، وفى خلال ذلك تمكن الجند المسلمون من مهاجمة العدو ، وهزموهم شر هزيمة.

وانتهت الحرب بين الفريقين بعقد معاهدة سلام تعهد فيها راجا Vijayanagar بتقديم فيلة ومبالغ من المال للسلطان فيروز شاه. وقد له إحدى بناته ليتزوجها. وتزوج السلطان من ابنه الراجا. غير أن هذا الزواج لم يؤد إلى إرساء سلام دائم بين المملكتين المتنافرتين.

ولقد شيد السلطان فيروز المنشآت الضخمة فى مملكته ، وكان يحب ويشجع العلوم والآداب والموسيقى ، واهتم بالدراسات الدينية فى مختلف الأديان ، كان قصره يضم نساء أوربيات وهنديات ، واستطاع السلطان التفاهم معهن بلغاتهن. وانتهت حياة

هذا السلطان بمؤامرة دبرها أخوه أحمد الذى خلفه فى الحكم ونقل هذا السلطان عاصمة بلاده إلى بدار Bidar ، وتقع فى نقطة هامة ترتفع عن سطح البحر قدر ٢,٥٠٠ قدم ، وإلى غربها سهل منبسط يضم أشجار المانجو والتمر هندى.

وآخر من حكم مملكة البهمانى ، " محمد شاه الثالث " (١٤٦٣_١٤٨٢) ويرجع ما حققه من نجاح فى سياسته إلى وزيره " محمود جوان " ، وينتمى إلى أسرة فارسية عريقة ، وعرف عنه المهارة القتالية والحنكة الإدارية والعدالة والمقدرة السياسية والمالية ، وكان يعيش حياة زهد وتقشف ، وأسس مدرسة فى بدار ، مبناها ضخم مرتفع ، وغرف المحاضرات مضيئة ، وتشتمل مكتبة المدرسة على ثلاثة آلاف مجلد ، وبالمدرسة غرف للأساتذة والطلاب ومسجد ، والواجهة نقش عليها آيات قرآنية.

على أن السلطان قلب ظهر المجن على وزيره ، فقد اتهمه بمحاولة خلع السلطان ، وتنصيب نفسه حاكما مستقلا على المملكة. ولقد سعى حكام الولايات وكبار الموظفين إلى بث الوقيعة بينه وبين السلطان لأنه تشدد فى مراقبتهم ، ولم يتهاون مع واحد منهم ، فضلا عن أنه فارسى الأصل ، ومازالوا بالسلطان حتى خشى من تآمر وزيره عليه ، ووجه إليه السلطان تهمة الخيانة العظمى ، ودافع الوزير عن نفسه ، وأنكر التهمة ، وحاول إثبات براءته ، فحذر

الوزير " جوان " السلطان من مغبة وعاقبة قتله ظلمـا ، لأن ذلـك سيؤدى إلى فقدانه لشخصيته وضياع ملكه. وقتل الـوزير المصـلح وهو فى الثانية والسبعين من العمر ، وبعد أن خدم المملكة بإخلاص خمسة وثلاثين عاما. وبعد فترة من الوقت اكتشف السلطان أن وزيره قتل ظلما ، فشعر بالذنب ، وظل يتناول الشراب من الخمر ، وهـو يردد أن محمود جوان سيقطعه إربا ومازال يشرب حتى توفى.

أخذت المملكة فى الضعف والتدهور بعد وفاة هذا السـلطان وعمت الفوضى البلاد ، وساد القتال فى الشوارع بـين المـواطنين الهنود والوافدين الأجانب ، وحكم البلاد ملوك كانوا ألعوبة فى أيدى القواد الأتراك. وظل الأمر كذلك حتى استعان خر ملوكها بسـلطان المغول فى دهلى ـ بابر ـ لإنقاذه من الفوضى السائدة فى الـبلاد. ودخلت المملكة فى حوزة دهلى ، وتوفى آخر ملوك البهامانى سـنة ١٥٢٦.

نشأ مجتمع جديد فى مملكة البهمانى من تـزاوج العناصـر الأجنبية بالعناصر الوطنية. أما الفلاح فى القرية فلم يطرأ جديد على حياته إلا فى عهد الوزير جوان ، فقد حقق الزراع دخلا كبيرا نتيجة لسياسته الاقتصادية واستتباب الأمن والنظـام فـى الـبلاد ، وعـم العمران حتى تشابكت الـقرى ، ولـقد وصـف لنا رحالة روسـى " أثناسيوس " Kikitin (١٤٧٠ ـ ١٤٧٤) محمود الثانى بأنه فى

العشرين من عمره ، وعنده جيش ضخم يتكون من مشاة مسلحين وفيلة مهيأة لركابها ، وفى كل قرية مسجد يتعلم فيه الأطفال القرآن الكريم ، ويديرها القاضى بمقتضى الشريعة الإسلامية ، وفى المدن مدارس لتعليم اللغتين العربية والفارسية ، ولها أوقاف ينفق من ريعها على إدارتها ، وأضف من شأن ملوك البهمانى ، إدمانهم للشراب ، الأمر الذى تسبب فى ضعف الإدارة الحكومية والتدهور الاقتصادى والإدارى وكثرة الحروب الأهلية.

وملوك البهمابى ، اهتموا عموما بالعمارة ، ويتجلى ذلك فى القلاع التى شيدوها فى طول البلاد وعرضها ، وأدى اختراع البارود إلى ضرورة تقوية القلاع وأحيطت بأسوار ضخمة ، أشهرها قلعة " دولت آباد ".

قلنا إن مملكة البهمانى انقسمت إلى أربع ولايات ، ولما ضعفت هذه المملكة تطلع الولاة إلى الاستقلال بولاياتهم ، ومن أقوى هؤلاء الولاة " يوسف عادل شاه " حاكم بيجابور ، أعلن استقلاله سنة ١٤٨٩ ، وكان عبدا اشتراه الوزير جوان ، وهو الابن الأصغر للسلطان التركى مراد الثانى ، حيث هرب فى وقت استخلاف أخيه وهرب من القتل ، وتعرف جوان على مقدرته وأسند إليه وظيفة رئيسية. وأثبت يوسف عادل شاه أنه حاكم قدير ومستنير ، استفاد من أستاذه جوان ، وترك المذهب السنى ، واعتنق المذهب الشيعى ،

وتزوج أمرأة من Martha وأخلص لها ، واستعمل لغة المارتا فـــى المخاطبة ، وكان ذلك من أسباب تقرب الهنود له ، وأسند المناصـــب الرسمية للهنود ، وبصفة فرشته بالحكمة والفصاحة والنجابة وكـــان موسيقيا بارعا وأديبا فذا ، وحرص على بث الفضيلة بـــين وزرائـــه ورجال دولته وضرب المثل بنفسه ، وحثهم على التعامل مع الأهلين بالعدالة والحكمة ، وجلب إلى بلاطه رجـــالا أكفـــاء مـــن فـــارس وتركستان والروم ، وفنانين من مختلف البقاع والأصقاع ، وكفل لهم الحياة الكريمة الهنيئة ، ووضع لخلفائه المبادئ والأسس التى ينبغـــى للحاكم أن يتحلى بها.

ومن أبرز حكام بيجابور إبراهيم الثانى (١٥٨٠ ــ ١٦٢٦) واصل سياسة أسلافه الحكيمة ، وشجع التجارة مع القوى الخارجية ، وجلب إلى بلاطه الفنانين والأدباء ، وتعـــاطف مـــع المســـيحيين ، ومنحهم أراض لإقامة كنائس ، واهتم بـــالأدب الفارســـى ، والأدب الأردي على السواء ، وأوجد مدينـــة Naurasbur كمركـــر أدبـــى ودينى ، وآخر حكام بيجابور العظام ، السلطان محمد عـــادل شـــاه (١٦٢٦ــ١٦٥٦) خضع للمغول مضطرا سنة ١٦٣٦م.

ومدينة بيجابور تقع على ألفى قدم فوق مستوى البحر ، وبها أسوار دفاعية هائلة وعليها أبراج نصبت مدافع ، وتمثل هذه المدفعية مهارة وسائل الدفاع ، واشتهرت هذه المدينة بمدارسها وأســـاتذتها ،

ومنْ أشهر أساتذتها ، محمد قاسم فرشته ، قدم من إستراباد ، واستقر في أحمد ناجار ، ولجأ إلى بلاط إبراهيم عادل شاه الثاني في سنة ١٥٨٩. وتاريخه عن الإسلام في الهند فريد في نوعه ، كتاب فيه الأصالة والنقاوة ، بعيد كل البعد عن التأثر ببلاط السلطان ، والكتاب مرجعنا الرئيسي عن تاريخ الإسلام في الهند في الفترة ما قبل سنة ١٦١٢ وترجم إلى الإنجليزية بواسطة الكولنل j. Briggs سنة ١٨٢٩.

المراجـــــــع

د. عصام الدين عبدالرؤوف الفقى : بلاد الهند فى العصر الإسلامى منذ فجر الإسلام حتى الغزو التيمورى ، دار الفكر العربى ١٩٩٦.

د. عبدالله محمد جمال الدين : التاريخ والحضارة الإسلامية فى الباكستان أو السند والبنجاب إلى آخر فترة الحكم العربى ، دار الصحوة ، القاهرة ١٩٩١.

د. عبد الله مبشر الطرازى : موسوعة التاريخ الإسلامية والحضارة الإسلامية لبلاد السند والبنجاب (باكستان فى عهد العرب) ، عالم المعرفة ، جدة ، ١٩٨٣.

الفهرست